窓ぎわのトットちゃん

黒柳徹子



国際交流基金助成による出版

翻訳：アリー・ハサン・エル・サムニー
古谷野　晃

تُوتُّوتْشَنْ

الفتاة الصّغيرة عند الشبّاك





THE
JAPAN
FOUNDATION

ساهمت في نشر هذه القصة
مؤسسة اليابان

تأليف

تيتسوكو كورويا ناغي

ترجمة

د. علي حسن علي السمني
أكيرا كويانو

دار الشروق

الفهرس

الصفحة

نبذة عن المؤلفة ١١

فى محطة القطار لأول مرة ١٣

توتوتشن عند الشباك ١٦

المدرسة الجديدة ٢٤

أنا أحب هذه المدرسة ٢٦

مدير المدرسة ٢٨

وجبة الغذاء ٣٤

أذهب إلى المدرسة من اليوم ٣٦

فصل الدراسة فى القطار ٣٩

الفصل الدراسى ٤٢

طعام من البر وطعام من البحر ٤٦

امضغ الطعام جيدا ٥١

نزهة ٥٣

أغنية المدرسة ٥٨

أعيديها ٦٢

اسم توتوتشن ٦٧

الصفحة

التمثيليات الهزلية ٦٩
قدوم القطار ٧١
حمام السباحة ٧٧
كشف الدرجات ٨١
بدء العطلة الصيفية ٨٣
المغامرة الكبرى ٨٦
اختبار الشجاعة ٩٢
قاعة التدريب ٩٦
رحلة إلى العين الساخنة ١٠٠
فن الايقاع ١٠٥
طلب واحد فى حياتى ١١١
الملابس الرثة ١١٥
تاكاهاشى ١١٩
انظرى قبل أن تقفزى ١٢٢
وبعد ذلك ١٢٥
كنا نلعب فقط ١٣٢
يوم الرياضة ١٣٦
إسًّا كوباياشى الشاعر ١٤٣
شىء غامض ١٤٦
محادثة بالأيدى ١٥١
معبد سنغاكوجى ١٥٣
ماساؤتشان ١٥٧

الصفحة

ضفيرتا الشعر الطويلتان 160
شكرا 164
المكتبة 167
ذيل 171
الربيع الثانى لها فى تومو ى 175
بحيرة البجع 177
أستاذ التربية الزراعية 180
طهى فى الحقول 184
بلاشك أنت بنت طيبة 190
عروس 193
المدرسة الرديئة 196
شريط الشعر 200
زيارة الجرحى 204
'اء الشجر 209
فل يجيد الانكليزية 217
لمسرح 221
طباشير 225
وفاة ياسواكى تشن 228
جاسوسة 237
الكمان 236
الوعد 239
اختفاء روكى 242

الصفحة

حفل الشاى ٢٤٧

وداعا ٢٥١

الخاتمة ٢٥٣

تعريف بالأشخاص الذين وردوا فى هذه القصة ٢٦٤

هذه قصة عن مدرسة ابتدائية فى طوكيو وعن فتاة صغيرة درست فيها قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية .

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد دفعنا إلى المشاركة فى ترجمة هذه القصة أنها تترجم حياة المؤلفة وتعبر عن سلوك طريق طويل وصل بها إلى مركز مرموق فى الحياة العامة بعد أن كان كثير من الناس ينظرون إليها فى أول حياتها نظرة اشفاق وإخفاق . والذى يقرأ هذه القصة سيعرف من خلالها مواقف عصيبة مرت بها الكاتبة وأمورا كثيرة وتجارب متعددة كونت شخصيتها وصقلت معارفها ووسعت ثقافتها وأكسبتها جرأة فى الحياة وجعلتها إنسانا متعاونا يحب الخير ويساعد عليه ويكره الشر ولا يميل إليه .

فى هذه القصة سيرى القارئ أنماطا من الحياة اليابانية وطريقة اليابانيين فى تربية أبنائهم وحملهم على أن يجربوا الحياة بأنفسهم ، ويباشروها بقسوتها ورخائها ، ويتغلبوا على صعابها بتفكيرهم وإرادتهم ، كما سيرى كيف يهتم بتنشئة الأطفال المتخصصون ، وغير المتخصصين من الذين تدور فى خواطرهم أفكار جديدة وطرق حديثة غير الطرق الروتينية والنظامية ، كالذى أقام مدرسة خاصة فى عربات قطار أصبحت غير صالحة للسير على القضبان فاستغلها كفصول للدراسة توحى إلى الأطفال بالسفر الطويل ، والكفاح المرير والتنقل من درجة إلى درجة آخرى ، والاجتماع والصحبة على طريق الحياة ، كما سيرى القارئ كيف تذكر الكاتبة رفاق الدراسة وزملاء الرحلة فى عالم الدراسة وتحاول أن تذكرهم بأوصافهم وأخلاقهم وتوادهم وتعاونهم وسيرى القارئ حوالى ستين فصلا أو أكثر

فى هذه القصة كل فصل منها يوحى بكثير من أخلاق القوم وعاداتهم وطريقة حياتهم ، وإنه لمن الأنانية والفضول أن نترجم مافى هذه الفصول من فلسفات ونظريات وآراء ولكن من العدل أن نتركها كما هى معتمدين على ذكاء القراء وحسن استنتاجهم ونظراتهم لما تخفى هذه المواقف من نظرات للحياة ، ولعل فيها مايستفيد منه القارئ فى حياته الخاصة والعامة وفى طريقة تعليمه لأولاده وتأديبهم وتوجيههم فى الحياة ، بل وفى سلوكه هو فى الحياة العامة والخاصة .

ولقد تُرْجِمَتْ هذه القصة إلى أكثر من لغة ووزعت فى أكثر من ثلاث عشرة دولة حتى لقد بلغ عدد النسخ التى وزعت منذ عام ١٩٨١م أكثر من ثمانية ملايين نسخة .

ونرجو أن ينفع الله بها قراء العربية وأن يجدوا فيها بعض مايرشدهم فى تهذيب أبنائهم وترشيد سلوكهم .

القاهرة فى　　　　　　　　المترجمان

أول سبتمبر سنة ١٩٨٨م　د/على حسن على السمنى

أكيرا كويانو

نبذة عن المؤلفة

ولدت ونشأت بمدينة طوكيو ، وتلقت دراستها فيها حتى الجامعة حيث تخرجت من قسم الأصوات بجامعة طوكيو للموسيقى ، كانت أمنيتها أن تكون أما وتستطيع أن تدرس الصور والأطفال بطريقة جيدة ، فدخلت الأمتحان لفرقة المذيعين من الإذاعة الوطنية (N.H.K) ونجحت فيه ، وكانت ضمن الدفعة الأولى التى دخلت هذا المجال .

ثم انتخبت كأحسن ممثلة بالإذاعة والتلفزيون خلال خمس سنوات متتالية ، ونالت أثناء عملها بالإذاعة عددا من الجوائز ، ثم سافرت إلى نيويورك فى عام ١٩٧٢ ومكثت هناك عاماً كاملاً كتبت فيه كتاباً يحمل عنوان « نيويورك والحب » ومنذ أن عملت فى برنامج « مضيفة تيتسوكو » وهو برنامج يومى ، نالت فيه أكبر جائزة للإذاعة التلفزيونية . هذا وقد كانت برامجها الأخرى من أكثر البرامج جاذبية للمشاهدين ، كما كرست حياتها للرفاهية ، ودعت الفرقة المسرحية الوطنية الأمريكية للمكفوفين إلى اليابان مرتين ومثلت معهم بالإشارة وكانت تقوم معهم من حين لآخر بالتمثيل .

وقد ألفت كتابا بعنوان « باندا وأنا » . وكانت عضوا بجمعية الرفق بالحيوان . وكانت مديرة الصندوق العالمى لإنقاذ حياة الحيوان البرى وتعينت فى عام ١٩٨٤ سفيرة سلام باليونيسيف (صندوق الأمم المتحدة لاغاثة الأطفال) .





فى محطة القطار لأول مرة :

من محطة « جيوغاؤكا » عندما نزلتا من قطار خط « أويماتشى » جذبت الأم يد ابنتها ـ توتوتشن ـ لتخرج بها من باب الخروج ، ولأن توتوتشن لم يسبق لها ركوب القطار عز عليها أن تسلم تذكرة القطار لموظف الباب و أرادت أن تحتفظ بها لنفسها فسألته :

ـ هل يمكننى الاحتفاظ بهذه التذكرة ؟

قال :

ـ لا ،

وأخذها من يدها .

أشارت توتوتشن إلى الصندوق الذى تتجمع فيه التذاكر وقالت :

ـ هل كل هذه التذاكر ملكك ؟

وفى أثناء استلام التذاكر من الخارجين أجابها قائلا :

ـ إنها ليست ملكى ولكنها ملك للمحطة .

فقالت :

ـ آه . .

واقتربت من الصندوق وتأملت ما بداخله وقالت فى أسف :

ـ عندما أكبر فإنى أريد أن أكون بائعة تذاكر .

فرمقها بنظرة ثم قال :

ـ إن ابنى أيضا يريد أن يعمل فى المحطة ، فيمكن أن تعملا سويا .

فابتعدت عنه قليلا وتأملته فإذا هو بالرغم من بدانته وشكل نظارته يبدو عليه طيبة القلب وحسن الخلق فتأوهت ووضعت يديها على خصريها وقالت :

ـ سأذهب إلى المدرسة الجديدة الآن وسأفكر بعد ذلك هل يمكننى العمل مع ابنك .

ثم جرت إلى أمها التى كانت فى انتظارها فى الخارج وصاحت بصوت عال :

ـ أريد أن أكون بائعة تذاكر

لم تتعجب الأم وقالت لها :

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ، لقد كنت تريدين قبل ذلك أن تكونى جاسوسة ؟

ثم سارتا تمسك الأم بيد توتوتشن وهى تفكر فى صمت :

ـ (نعم . إننى قررت بالأمس أن أكون جاسوسة ، واليوم أريد أن أكون بائعة تذاكر لأراقب الصندوق . وذلك حسن أيضا) .

فكرة طيبة خطرت . قالت بصوت عال لأمها :

ـ أكون بائعة تذاكر وفى نفس الوقت أكون جاسوسة .

فلم تجب الأم وظلت فى صمتها لأنها كانت فى شغل شاغل ، ماذا تعمل لو لم تقبل توتوتشن فى المدرسة الجديدة لقد كان وجهها الجميل مقطبا تحت القبعة المصنوعة من الجوخ المزينة بالزهور . نظرت إلى توتوتشن التى كانت تقفز

من مكان إلى آخر فى أثناء سيرها وتحدث نفسها بحديث سريع لم تفهم الأم منه شيئا فالتقت عيناهما وابتسمت البنت حيث لم تدر ما يدور فى خلد أمها وقالت :

ـ إذن سوف أتخلى عن الفكرتين ـ فكرة الجاسوسة وفكرة بيع التذاكر ـ وسوف أكون غجرية أعزف آلات الموسيق فى الشارع مع الذين يقومون بالدعاية للمحلات الجديدة .

فقالت الأم فى يأس شديد ـ وكانتا فى طريقهما إلى المدرسة الأخرى ـ :

ـ هيا حتى لا نتأخر فمدير المدرسة ينتظرنا ، أنظرى أمامك ، وتوقفى عن الكلام ، واستقيمى فى سيرك .

واستمرتا فى السير حتى باب المدرسة الصغيرة .

توتوتشن عند الشباك :

سوف أشرح لكم ـ قبل ذهابهما إلى المدرسة الجديدة ـ لماذا كانت الأم **قلقة :**

لقد طردت توتوتشن من المدرسة السابقة وهى لاتزال فى الصف الأول . ففى الأسبوع الماضى استدعت مدرسة فصل توتوتشن الأم وقالت لها بحزم :

ـ إن ابنتك تسبب إزعاجا للجميع فأرجوك أن تأخذيها إلى مدرسة أخرى .

وأضافت المدرسة الشابة الجميلة فى تنهد :

ـ إنها حقا مشكلة .

وكررت هذه العبارة كثيرا مما دعا الأم إلى التعجب فقالت فى دهشة لنفسها :

ـ كيف ذلك ؟ ولماذا هى تزعج الجميع ؟ وماذا تعمل ؟

وقالت المدرسة ـ وكانت فى ذلك الوقت تضع يدها على شعرها المجعد (المفتول الأطراف) ، وتغمض عينيها وتفتحهما مرات كثيرة ـ تصف للأم ما تفعله توتوتشن :

ـ أولاً ، هى تفتح درج المكتب وتغلقه أكثر من مائة مرة فى أثناء الحصة

فأنهاها عن ذلك ولكن بدون جدوى : تضع الكتب التى أخذتها والمقلمة وكل شىء فى الدرج ثم تخرجها بعد ذلك واحدة تلو الأخرى ، ومثلا فى درس الإملاء تأخذ الدفتر من الدرج وتغلقه بصوت مرتفع مباشرة ثم تفتح مرة أخرى وتدخل رأسها فى الدرج لتأخذ القلم من المقلمة لكى تكتب حرف (أ) وتغلقه بصوت عال وبسرعة أيضا وعندما تعتقد أن الخط ليس جيدا أو تخطئ فى الكتابة تفتح الدرج مرة أخرى لتحضر الممحاة ، ثم تخرج رأسها وتغلقه بصوت عال وبسرعة ، وتستعمل الممحاة ثم تفتح الدرج مرة أخرى بسرعة لإرجاع الممحاة وتغلقه بسرعة فأنظر إليها عندما تفتح الدرج مرة أخرى لتضع كل شىء فى الداخل واحدة تلو الأخرى بعد كتابتها حرف واحد فقط .

فهى تضع القلم ثم تفتح لتضع الدفتر وتغلق .. وهكذا ...

ثم عند كتابة حرف (ب) تعيد ما فعلته من قبل فتخرج الدفتر ثم القلم ثم ... ثم ... وتفعل كل هذا أمام عينى بسرعة وتعجل فأشعر بذهول ودهشة من أفعالها هذه ولكننى لا أستطيع أن أطلب منها أن تكف عن هذا العبث . لأنه لابد وأن تكتب ...

وحركت المدرسة رموشها بسرعة وكأنها تذكرت ما فعلته توتوتشن بالضبط . فهمت الأم لماذا توتوتشن كانت تفتح الدرج وتغلقه كثيرا . وتذكرت الأم أول يوم عادت فيه توتوتشن من المدرسة وكانت ثائرة وأخبرت أمها بما حدث فى المدرسة فقالت :

ـ آه .. المدرسة هائلة . فالدرج هنا يخرج هكذا وفى المدرسة يجذب إلى أعلى مثل سلة القمامة إلا أنه أكثر ملوسة منها ويستوعب أشياء أكثر ولذلك فهو جيد جداً !.

وبدت الأم وكأنها تستطيع فهم ما تفعله توتوتشن فى المكتب الذى لم تره من قبل ـ بسرور ـ واعتقدت الأم أن هذا ليس سيئًا وأنها إذا تعودت على المكتب فسوف تقلل من تكرار هذا الأسلوب السيئ . قالت الأم للمدرسة :

ـ سوف أحذر توتوتشن .

ولكن المدرسة قالت فى صوت عال :

ـ لو كانت تفعل ذلك فقط لسمحت لها .

وشعرت الأم فى ذلك الوقت بتضاؤل جسمها من الخجل لما فعلته توتوتشن فتقدمت المدرسة نحو الأم قليلا وقالت :

ـ إن لم تفعل ذلك فإنها تقف طول الحصة .

وسألت الأم فى تعجب وحيرة لأنها لا تعرف السبب الحقيق .

ـ أين تقف ؟

قالت المدرسة ـ وقد بدت عليها سمات الغضب ـ :

ـ عند شباك الفصل .

وسألت الأم :

ـ ماذا تفعل عند الشباك ؟

وأجابت المدرسة صائحة :

ـ إنها تقف عند الشباك لتنادى بعض الغجر الذين يعزفون على الآلات الموسيقية فى الشارع . وإذا لخصنا قول المدرسة فإنه يكون كالآتى :

ـ فى الحصة الأولى تفتح المكتب وتغلقه بصوت مرتفع ثم تبتعد عن المكتب متجهة إلى الشباك وتنظر إلى الخارج . ولاتمنعها المدرسة طالما هى صامتة لاتزعج الآخرين . ولكنها فجأة تصرخ بصوت عال من الشباك منادية على الغجر ،ـ

ومن حسن حظ توتوتشن وسوء حظ المدرسة أن الفصل فى الدور الأول ويطل على الطريق العام ولايوجد حاجز بين الفصل والشارع إلا حائط منخفض عليه بعض الشجرات مما سهل على توتوتشن أن تتكلم إلى الناس من شباك الفصل ـ فيأتى الغجر أمام الشباك . ثم تنادى توتوتشن على التلاميذ فرحة لينظروا إلى الغجر فيصرخ التلاميذ ويطلبون منهم العزف أمام الشباك بصوت مرتفع ـ مع أنهم يخفضون أصوات العزف أمام المدارس ـ فيعزفون بالكلارينت والجرس والطبل والعود اليابانى ذى الثلاث أوتار أما المدرسة فتقف أمام الفصل فى صبر انتظارا لانتهاء الغجر من المعزوفة . ثم ينصرف الغجر بعد ذلك ويعود التلاميذ إلى أماكنهم فى هدوء إلا أن توتوتشن تظل واقفة فى مكانها . وهذا شىء مثير للعجب . فتسألها المدرسة :

ـ لماذا أنت واقفة هكذا ؟

فتجيب توتوتشن بجدية قائلة :

ـ إذا جاء آخر ناديت عليه . وإذا عاد الأول ولم يجدنى أمام الشباك فتكون مشكلة .

وتستمر المدرسة فى الحديث للأم :

ـ هل تفهمين ؟ إن الدرس لا يمكن أن يستمر هكذا .

وكانت المدرسة متأثرة جدا وكادت الأم تفهم هذه المشكلة التى تسببها توتوتشن لها . وكان حديث المدرسة بصوت عال مما أدى إلى أن رثت الأم لها وقالت لها :

ـ أهناك شىء آخر غير ذلك ؟

فقالت المدرسة :

ـ لو أن أخطاءها يمكن حصرها ماطلبت منك نقلها إلى مدرسة أخرى .

وبعد أن هدأت أنفاسها نظرت إلى الأم وقالت :

ـ ولقد حدث بالأمس أن كانت تقف عند الشباك كعادتها والدرس مستمر وفكرت أن وقوفها للغجرى إذا عاد فإذا بها فجأة تسأل بصوت عال :

ـ ماذا تفعل ؟

أنا لا أعرف من هذا الشخص ولا أستطيع أن أراه من مكانى ، ومرة أخرى وبصوت مرتفع قالت :

ـ ماذا تفعل ؟

وفى هذه المرة لم يكن هذا شخصا فى الشارع . إنه فوق ، فهى تنظر إلى أعلى وتلهفت على معرفة رد ذلك الشخص ، وتسمعت ولكنه لم يرد . وبالرغم من ذلك فإن ابنتك تكرر السؤال :

ـ ماذا تفعل ؟

وهذا يزعج التلاميذ فى الفصل ، وفكرت أن أخاطب هذا الشخص فذهبت إلى النافذة ، وأخرجت رأسىَ ونظرت إلى أعلى فوجدت طائر الخطاف يبنى عشة ، مما أثار دهشتى ... فالطائر يبنى عشة فوق شباك الفصل وتحت التندة . فهى تسأل الطائر. حقيقة إنى لست بالمدرسة التى لاتفهم شعور الأطفال ولا أريد أن أقول إن ما فعلته من تكرار السؤال للطائر هراء ولكن أظن أن هذا غير مسموح به فى أثناء الحصة .

وواصلت المدرسة حديثها قبل أن تفتح الأم فمها معتذرة :



وذات مرة فى أثناء حصة الرسم ، طلبت منهم أن يرسموا علم الوطن ، وهو علم أبيض وفى وسطه الشمس ، فرسمه التلاميذ فى الورق ، ولكن توتوتشن بدأت الرسم فرسمت علم سفينة حربية كأنها تصمم علما لجريدة الأساهى فقلت فى نفسى :

لو أنها تريد رسم علم سفينة فلا مانع ، ولكن المفاجأة الكبرى فى أنها أضافت إليه بعض الشراريب خارج الورقة فتعجبت وعلى الرغم من ذلك فكرت أنها قد رأت هذا العلم فى مكان ما ، وابتعدت عنها قليلا فإذا بها تلونه باللون الأصفر ثم لونت هذه الشراريب باللون الأصفر الداكن .

هى رسمت أولا العلم فى الورقة كلها ثم رسمت الشراريب على المكتب لتكمل الرسم حيث قد امتلأت الورقة بالعلم ثم لونت هذه الشراريب بذلك القلم الأصفر (الكريون) وضغطت عليه بجدة وعنف .

وعندما رفعت الورقة بقى رسم الشراريب الصفراء على المكتب ولم يمكن محوها وكان من تخفيف وقع المصيبة أنه كان من ثلاث جهات فقط

وسألت الأم وقد بدأ عليها الاضطراب :

ـ ما معنى ثلاث جهات ؟

وعلى الرغم من أن المدرسة كانت فى حالة من التعب فإنها أجابت بلطف :

ـ لقد كانت خطوط الشراريب فى ثلاث جهات وكان السارى ـ عمود التعليق ـ فى الجهة الرابعة فبدت الأم مرتاحة بعض الشىء وكررت :

ـ آه ... فى ثلاث جهات فقط .

وقالت المدرسة ببطء شديد كلمة كلمة :

ـ ولكن الجانب الرابع جانب السارى خرج على المكتب أيضا وبقيت آثاره فيه .

ثم وقفت المدرسة وقالت بعد ذلك فى حزم وصرامة :

ـ إن الازعاج ليس لى فقط ولكن للمدرسة التى تدرس فى الصف الأول بجانبنا أيضا .

وكانت الأم فى هذه الحالة مرغمة على اعتقاد أن توتوتشن تزعج التلاميذ كثيرا . ولابد أن تعمل شيئا فى هذا الأمر . إنه ليس من العدل بالنسبة للتلاميذ الآخرين أن تزعجهم توتوتشن هكذا . إنه لابد من البحث عن مدرسة أخرى قد يوجد فيها من يفهم ابنتها الصغيرة ويعلمها كيف تتعامل مع الناس الآخرين .

وأخيرا بعد أن بحثت الأم طويلا وجدت المدرسة التى هما فى الطريق إليها . ولم تخبر الأم توتوتشن بأنها قد طردت لأنها لاتستطيع أن تفهم أنها عملت

خطأ ، وأيضا لم ترد أن تدخل فى نفسها مركب النقص ، ولهذا قررت ألا تخبرها حتى تكبر. وكل ما قالته لها :

ـ هل تريدين أن تذهبى إلى مدرسة جديدة ؟ لقد سمعت أن هناك مدرسة لطيفة ؟

وبعد تفكير قليل قالت :

ـ وهو كذلك . ولكن ...

وفكرت الأم :

ـ ماذا تفكر الآن ؟ هل عرفت أنها قد طردت ؟

وبعد لحظة أقبلت توتوتشن على أمها فى لهفة وارتمت فى أحضانها وسألت :

ـ هل تظنين أن الغجر سيحضرون إلى المدرسة الجديدة أيضا ؟

وهكذا سارتا نحو المدرسة الجديدة .

المدرسـة الجـديدة :

توقفت توتوتشن عندما رأت بوابة المدرسة الجديدة . لقد كانت بوابة المدرسة التى كانت تذهب إليها قبل ذلك بوابة فاخرة ذات أعمدة من الأسمنت المسلح عليها اسم المدرسة بحروف كبيرة ولكن بوابة هذه المدرسة ... قد تكونت ببساطة من شجرتين قصيرتين نوعا ما لا يزال يرى عليهما فروع وأوراق .

قالت توتوتشن :

ـ من المحتمل أن يستمر نمو هذه البوابة حتى تكون أطول من أعمدة التليفون ! !

لقد كان واضحا أن هذين العمودين عبارة عن شجرتين بجذور . وعندما اقتربت منها كان عليها أن تميل رأسها جانبا لتقرأ اسم المدرسة لأن الرياح قد عصفت باللوحة التى كتب عليها الاسم فحرفتها جانبا .

ـ مدرسة تو ـ مو ـ ئ

هكذا تقرأ .

قبل أن تسأل توتوتشن أمها عن معنى تو ـ مو ـ ئ لمحت شيئا جعلها تظن أنها لابد أن تكون فى حلم . لقد جلست القرفصاء ثم دققت النظر خلال الأشجار لترى منظرا أغرب ولكنها لم تصدق عينيها ونادت :

ـ أمى ، هل ذلك الذى فى أرض المدرسة هناك قطار حقا ؟

لقد استعملت المدرسة لأجل فصولها الدراسية ست عربات قطار سكة حديد متروكة لعدم صلاحيتها ولقد بدأ هذا لتوتوتشن أنه شىء لايكون إلا فى الحلم ، مدرسة فى قطار .

لقد كانت نوافذ العربات تلمع فى نور الشمس فى الشروق ولكن عينى الفتاة الصغيرة ذات الخدين الورديين كانتا تلمعان أكثر عندما تنظر إليها .

أنا أحب هذه المدرسة :

بعد لحظة : صاحت توتوتشن صيحة الفرح وبدأت تجرى نحو مدرسة القطار ملتفتة إلى أمها ونادتها :

ـ هيا بسرعة ، دعينا نلحق بهذا القطار الذى لايزال واقفا .

فبدأت الأم ـ متدهشة ـ تجرى وراءها وكانت أسرع منها ـ حيث كانت يوما ما من فريق كرة السلة ـ وأمسكت بردائها فى الوقت الذى كانت قد وصلت فيه إلى الباب ثم قبضت عليها من الخلف وقالت لها :

ـ أنت لا تستطيعين أن تدخلى الآن ، هذه العربات هى الفصول الدراسية ولا يركبها إلا من قبل فى المدرسة . فإذا كنت تريدين حقا أن تركبى هذا القطار فيجب عليك أن تكونى لطيفة ومؤدبة مع المدير . نحن الآن ذاهبتان لمقابلته ، فإذا كان كل شىء على مايرام فإنك ستتمكنين من دخول هذه المدرسة . هل تفهمين ؟!

فكانت توتوتشن فى وجل وخوف أن يخيب ظنها فى ركوب القطار فى الحال ، ولكنها قررت أنه من الأفضل أن تفعل كما قالت أمها فأجابت :

ـ وهو كذلك .

ثم أضافت :

ـ أنا أحب هذه المدرسة كثيرا .

أرادت الأم أن تخبرها أن الأمر لايعتمد على حبها للمدرسة ولكنه يعتمد على حبِ المدير لها نفسها ولكنها اكتفت بأن أخلت سبيل ردائها وأمسكت بيدها وبدأتا السير إلى مكتب مدير المدرسة .

لقد كانت جميع العربات هادئة لأن الدرس الأول لهذا اليوم كان قد بدأ .

وكان فناء المدرسة على الرغم من ضيقة مسورا بالأشجار وكانت هناك أحواض الزهور التى امتلأت بالأزهار الحمراء والصفراء . لم يكن مكتب المدير فى عربة من هذه العربات بل كان يقع فى مكان مرتفع على يمين سلم أمام الباب مكون من سبع درجات مبنى من الطوب . تركت توتوتشن يد أمها وصعدت السلم وفجأة وقفت والتفتت . وكانت الأم تصعد خلفها مباشرة فكادت تصطدم بها . سألتها أمها :

ـ ماذا حدث ؟

وظنت الأم أن توتوتشن غيرت رأيها فعادت بسرعة . كانت توتوتشن على أعلى درجة فى السلم وهمست لأمها فى جدية :

ـ هل الشخص الذى سوف نقابله الآن عامل فى المحطة ؟

كانت الأم صبورة كما كانت أيضا مرحة فسألت توتوتشن بصوت خافت بعد أن وضعت وجهها فى وجهها :

ـ لماذا ؟

فأجابت توتوتشن بصوت منخفض أيضا :

ـ ماما أنت قلت إنه المدير فإذا كان يملك كل هذه القطارات فلابد أن يكون عاملا فى المحطة . أليس كذلك ؟

وكان على الأم الأن أن تعترف أنه على غير المعتاد أن تستعمل مدرسة عربات السكة الحديد القديمة كفصول دراسية ولكن لم يكن هناك وقت يسمح أن تشرح ذلك .

قالت الأم ببساطة :

ـ تستطيعين أن تسأليه بنفسك . لقد كان أبوك يعزف الكمان ويملك كثيرا من هذه الآلة الموسيقية ولكن مع ذلك لم يكن بيتنا حانوتا لبيع الكمان ! !

وهناك أشخاص كثيرون مثل ذلك .

فقالت توتوتشن :

ـ نعم . إنه كذلك ثم أمسكت بيد أمها .

مدير المدرسة :

عندما دخلت الأم وتوتوتشن مكتب المدير وقف من كرسيه . لقد كان خفيف الشعر فى وسط الرأس وقد فقد بعض أسنانه الأمامية ولونه يدل على حسن صحته مع أنه لم يكن طويل القامة وله كتفان عريضان وذراعان مفتولان ، وقد لبس حلة سوداء مهندمة من ثلاث قطع .

وسرعان ما انحنت إليه توتوتشن للتحية ثم سألته بصوت عال :

ـ هل أنت مدير مدرسة أم موظف فى المحطة ؟

واجاب ضاحكا ـ وقبل أن توضح الأم الأمر لتوتوتشن :

ـ إننى مدير هذه المدرسة .

وقالت بسعادة غامرة :

ـ حسنا . إذن أريد أن ألتحق بهذه المدرسة .

قدم المدير مقعدا لتوتوتشن والتفت نحو الأم . وقال :

ـ يمكنك أن تنصرفى الآن . فلى كلام كثير مع ابنتك .

وسرعان ما انتاب توتوتشن شعور بالضيق . ولكن على أى حال شعرت

بالطمأنينة نحو المدير . وقالت الأم بشجاعة :

ـ إذن أنصرف الآن . وأرجو أن تراعيها

ثم خرجت من المكتب وأغلقت الباب خلفها . ثم أخذ المدير مقعدا ليجلس عليه فى مواجهة توتوتشن واقترب منها ليتبادلا الحديث . ثم قال :

ـ الآن تكلمى فى أى شىء تريدين .

فقالت :

ـ أى شىء أحبه ؟

لقد توقعت توتوشن أن السيد المدير سيسألها بعض الأسئلة التى يجب أن تجيب عليها . ولكن عندما طلب منها أن تتكلم عن أى شىء كانت سعيدة جدا ثم بدأت فورا .

حاولت جهدها أن تتكلم ولكن كان حديثها بغير ترتيب ولانظام . تكلمت عن سرعة القطار الذى ركبته ومراقب المحطة ورفضه السماح لها بأخذ تذكرة القطار مع طلبها ذلك ، وتحدثت عن مدرستها السابقة فلقد كانت مدرسة فصولها جميلة كما كان فى المدرسة عش لطائر الخطاف وفى المنزل كلب بنى اللون اسمه روكى يسمع كلامها ويسلم عليها وتظهر عليه مظاهر السرور والفرح بعد الأكل . وعندما كانت فى روضة الأطفال كثيرا ما كانت تدخل المقص فى فمها وطالما حذرتها المدرسة من قص لسانها ولكنها استمرت تفعل ذلك مع تألم المدرسة لذلك . وعندما كان يسيل مخاطها تسرع فى مسحه حتى لاتغضب أمها ، وأبوها يستطيع السباحة جيدا كما يستطيع أن يغطس فى البحر ،

واستمرت فى حديثها حول موضوعات كثيرة بلا ترابط فى الأفكار ، وكان سيادة المدير يضحك ويهز رأسه ويقول : ثم ماذا ؟ وكانت توتوتشن سعيدة فى استمرارها فى الحديث وأخيرا صمتت كأنما تفكر فى شىء آخر فقال لها سيادة المدير :

ـ ألا يوجد شىء آخر ؟

لقد أسفت توتوتشن على سكوتها ، فلقد كانت فرصة جيدة . لم يعد هناك شىء آخر تستطيع الكلام فيه ثم طرأت لها فكرة : تستطيع أن تحدثه عن الملابس التى تلبسها الآن . لقد صنعت أمها أكثر ملابسها إلا أن ملابس اليوم جاهزة لأنها دائما عندما تعود إلى المنزل فى المساء تكون ملابسها ممزقة وبعض التمزيق يكون سيئا جدا من غير أن تدرى الأم كيف تمزقت هذه الملابس حتى بعض الملابس القطنية الداخلية كانت أحيانا ممزقة . وحسب قصتها يبدو أن التمزيق ناتج من تسللها إلى حدائق البيوت فتخترق أسوارا من الأشجار وتمر بين فروعها زاحفة على الأسلاك الشائكة حول الحقول والمزارع .

وعلى كل حال فان الملابس الأنيقة التى خاطتها الأم كانت ممزقة ، وفى هذا الصباح عندما أرادت الذهاب إلى المدرسة الجديدة كان عليها أن تلبس ملابس قد اشترتها أمها ، وكانت هذه الملابس عبارة عن فستان بخطوط حمراء ورمادى وهو من نسيج الجرسى ومع أنه لم يكن رديئا إلا أنه لم يرق ذوق الأم كما أن تطريز الورود الحمراء على البنيقة (الياقة) لاتتفق مع الذوق الحسن .

قالت توتوتشن وقد أمسكت بالبنيقة ليراها السيد المدير :

ـ أمى لاتحب هذه البنيقة .

فكرت كثيرا لتجد شيئا آخر تتحدث عنه ولما لم تجد شعرت بالحزن وفى أثناء تفكيرها وقف المدير ووضع يده الكبيرة الدافئة على رأس توتوتشن وقال :

ـ إذن الآن أصبحت تلميذة فى هذه المدرسة .

وأحسست توتوتشن أنها لأول مرة فى حياتها تلتقى بشخص تحبه كثيرا لأنها لم تلتق قبل ذلك بمن يسمع منها هذا الحديث الطويل وعلى مدى الساعات لم يضجر منها ولم يمل حديثها وكان يهتم به اهتماما كثيرا مثلما كانت تهتم به .

لم تكن تعرف توتوتشن قراءة الساعة ، ولكن رغم ذلك فأنها شعرت بأن ساعات طويلة انقضت أثناء حديثها ، فلوكانت تعرف الساعة إذن لاندهشت وكانت أكثر شكرا للمدير فالساعة كانت الثامنة عند وصولها وأمها إلى المدرسة وبعد انتهاء قصتها إلى قبولها فى المدرسة ، نظر المدير إلى ساعة الجيب وقال :

ـ آه ... لقد حان وقت الغداء .

أى أنه قد استمع إليها أكثر من أربع ساعات . إلى الآن لم يسمع رجل إلى قصة توتوتشن الطويلة بمثل هذه الاهتمام . وعلاوة على ذلك فانه ليدهش الأم والمدرسة السابقة إذا ما عرفنا أن طفلا فى الصف الأول الابتدائى يستطيع أن يتكلم بدون توقف لمدة أربع ساعات ويجد الكلام الذى يكفى هذه المدة .

طبعا لم تكن تعرف توتوتشن أنها قد طردت من المدرسة السابقة ولا عن الناس حولها كيف كانوا يضيقون بأعمالها .

لقد أسبغ عليها المرح وسرعة النسيان وشرود الذهن سذاجة وبراءة ، ولكنها كانت تشعر شعورا عميقا أن الناس يعتبرونها مختلفة عن الأطفال الآخرين وينظرون إليها بعدم أكتراث . ولكن السيد المدير أشعرها بالأمان والدفء والسعادة حتى أنها ودت لو تبقى معه إلى الأبد .

هذا هو شعور توتوتشن نحو السيد المدير (سوساكو كوباياشى) فى اليوم الأول . ومن حسن الحظ أن السيد المدير شعر نفس الشعور نحوها .

وجبة الغداء :

لقد طلب المدير من توتوتشن التوجه إلى مكان تناول طعام الأطفال فذهبت لتشاهده وكانت محاولة من المدير لتعليمها أن الأطفال فى وقت الغداء يجتمعون فى قاعة الاجتماعات وليس فى القطار. وتقع هذه القاعة فى آخر الممر ، الذى يبدأ بالسلم الذى صعدت عليه من قبل . عندما ذهبا معا ــ المدير وتوتوتشن ــ إلى القاعة كان التلاميذ قد شرعوا فى وضع المقاعد والموائد فى شكل دائرة . وكانا يقفان فى أحد أركان القاعة فجذبت بدلة المدير قائلة :

ــ أين باقى التلاميذ ؟

أجاب :

ــ هولاء هم كل التلاميذ .

فقالت فى دهشة :

ــ كلهم !

إلا أن توتوتشن لم تصدقه . لأن عدد هؤلاء يساوى عدد تلاميذ فصل واحد فى المدرسة السابقة أستطردت فى الحديث أذن عدد التلاميذ كلهم خمسون ؟

أجاب :

ـ نعم .

وأعتقدت أن كل شيء هنا يختلف عن المدرسة السابقة . وعندما جلسوا جميعا سألهم المدير :

ـ هل أحضرتم شيئا من البحر وشيئا من البر؟

أجابوا :

ـ نعم .

ثم نزع الجميع غطاء العلب لينظر إليها . ولما دخل المدير داخل الدائرة التى صنعها الأطفال من الموائد أخذ ينظر إلى العلب واحدة تلو الأخرى . وكان التلاميذ يحدثون ضوضاء .. ضاحكين .. لاعبين .. وسألت توتوتشن نفسها :

ـ ما أعجب هذا ! ! ماذا يعنى بقوله : شيء من البحر وشيء من البر؟ هذه المدرسة مختلفة ، إنه لعجيب . إنها لم تفكر أبدا أن يكون طعام الغداء فى مدرسة يمكن أن يكون عجيبا مثل هذا .

مجرد التفكير فى أنها سوف تجلس على المائدة غدا ويطلع السيد المدير على ما فى داخل علبتها : شيء من البحر وشيء من البر جعلها سعيدة جدا وأرادت أن تقفز من الفرح .

عندما كان السيد المدير يفتش على علب الغداء كان ضوء الشمس الهادئ ظهرا يغمر كتفيه .

أذهب إلى المدرسة من اليوم

بعد أن قال السيد المدير لتوتوتشن : لقد أصبحت تلميذة فى هذه المدرسة أخذت تنتظر الغد الذى ستدخل فيه المدرسة بفروغ صبر ، ولم يكن من عادتها مثل هذا الانتظار ليوم جديد ، ولقد كانت أمها توقظها بصعوبة كل صباح ، ولكنها فى هذا اليوم استيقظت مبكرة قبل الجميع ولبست ملابسها بطريقة منظمة وحملت حقيبتها على ظهرها وانتظرت استيقاظ الجميع .

روكى ـ ذلك الكلب من فصيلة شيبرد ، الذى يعرف الوقت بدقة ـ نظر إلى تصرف توتوتشن غير المعتاد بدهشة وبعد أن تمطى جيدا وشد جسمه اقترب منها متوقعا حدوث شىء ما .

كان على الأم أن تفعل شيئا كثيرا : ها هى تجهز صندوق الغذاء (البنتو) وتصنع فيه شيئا من البحر وشيئا من البر ، بينما أعطت توتوتشن طعام الأفطار لتتناوله ، كذلك علقت اشتراك القطار فى رقبتها بخيط مصنوع من الصوف بعد أن وضعته فى حافظة بلاستيك حتى لاتفقده فى أثناء سيرها ..لقد قال لها الأب ـ وما زال شعره مشعثا ـ :

ـ كونى تلميذة مؤدبة .

فقالت :

ـ طبعا .

ثم لبست حذاءها وفتحت الباب الأمامى ثم التفتت منحنية بأسلوب مؤدب وقالت :

ـ أراكم جميعا بخير

لقد ترقرقت عينا الأم بالدموع عندما رأت توتوتشن تخرج ولأنها تذكرت أن هذه البنت الصغيرة النشيطة المطيعة قد فصلت من المدرسة السابقة فقد دعت وصلّت من أجلها أن تكون مستقيمة مقبولة فى المدرسة الجديدة .

بعد لحظة كانت الأم مندهشة لترى توتوتشن تخلع خيط اشتراك القطار من رقبتها ثم تضعه فى رقبه الكلب (روكى) ثم فكرت ، ولكنها قررت أن تنتظر حتى ترى ما سيحدث . بعد أن وضعت توتوتشن خيط الاشتراك فى رقبة روكى جلست القرفصاء وقالت له :

ـ هل ترى ؟ هذا الاشتراك لا يناسبك مطلقا .

لقد كان الخيط طويلا جدا وتجرجر الاشتراك على الأرض ، فاستمرت

ـ هل فهمت أن هذا الاشتراك خاص بى وليس لك لأنك لا تستطيع أن تركب القطار . سأسأل السيد المدير ورجل المحطة إذا كنت تستطيع أن تذهب إلى المدرسة أيضا .

كان الكلب ينصت أولا إلى كلامها بانتباه وكانت أذناه منتصبتين ولكن بعد أن انتهى حديثها لعق الاشتراك ثم تثاءب إلا أن توتوتشن واصلت حديثها :

ـ إن فصول المدرسة عربات لا تتحرك لهذا فانى لا أظن أنك فى حاجة إلى تذكرة لتركبها ، ولكن عليك اليوم أن تنتظرنى فى المنزل .

لقد اعتاد الكلب روكى أن يسير مع توتوتشن إلى بوابة المدرسة السابقة ثم يرجع وحده إلى المنزل وبالطبع توقع أن يفعل اليوم مثل هذا .

خلعت توتوتشن خيط الاشتراك من رقبة روكى ثم علقته بعناية حول رقبتها ثم نادت مرة أخرى لوالديها وودعتهما . ثم جرت من غير أن تلتفت وكانت حقيبتها تتحرك خلف ظهرها وكان روكى بجانبها سعيدا ، وكان طريق المدرسة الجديدة هو نفس الطريق إلى المدرسة السابقة ولذلك فقد مرت بكلابه وقططه كما مرت بتلاميذ فصلها السابقين وأرادت أن تريهم اشتراكها لتثير اندهاشهم ولكنها خوفا من التأخير أجلت هذا العمل فى هذا اليوم ومرت سريعا .

عندما وصلت توتوتشن المحطة التفتت يمينا وكانت قبل ذلك تلتفت يسارا . وقف روكى ثم نظر باستغراب . ولما كانت توتوتشن عند مدخل المحطة رجعت إلى روكى الذى كان يقف متحيرا . وقالت له :

ــ أنا لست ذاهبة إلى المدرسة السابقة مرة أخرى ، إننى سأذهب إلى مدرسة جديدة .

ثم وضعت وجهها على وجهه : فشمت رائحة منبعثة من أذنه كالمعتاد ولكنها كانت رائحة جميلة بالنسبة لها . ثم تركته وقالت :

ــ مع السلامة .

وأبرزت اشتراكها لموظف المحطة ثم شرعت فى الصعود على سلم المحطة . روكى نبح بصوت منخفض كأنما يرد سلامها ثم ظل ينظر إليها حتى غابت عن نظره .

فصل الدراسة فى القطار :

لم يكن أحد قد وصل إلى المدرسة عندما وصلت توتوتشن إليها وذهبت إلى فصلها الذى قد عرفه لها السيد المدير . لقد كان الفصل عبارة عن عربة سكة حديد من الطراز القديم ذات مقبض للباب من الخارج يجب أن تمسكه باليدين لتزلجه إلى الجهة اليمنى . لقد كان قلبها يدق سريعا عندما نظرت إلى الداخل . لقد صاحت مندهشة :

ـ يا سلام . الدراسة هنا تشبه الذهاب إلى رحلة أبدية .

لم يكن هناك أى تغير فى عربة القطار : كان فيها رف لوضع الأمتعة عليه والنوافذ كما هى إلا أنه توجد سبورة أمام المكان الذى يجلس فيه السائق ، ووضع مكان المقاعد الطويلة طاولات وكراسى متجهة فى اتجاه سير القطار ، وقد نزعت المقابض التى يمسك بها الواقفوان من الركاب . لقد خلعت توتوتشن حذاءها ودخلت وجلست إلى طاولة للكتابة وكانت الكراسى خشبية مثل التى كانت فى المدرسة السابقة ولكنها كانت مريحة لدرجة أنها كانت تحب أن تجلس عليها طول الوقت . ولقد كانت توتوتشن سعيدة جدا وأحبت هذه المدرسة حبا شديدا لدرجة أنها قررت أن تحضر إليها كل يوم وألا تغيب عنها أبدا .

نظرت توتوتشن إلى الخارج من الشباك . إنها تعلم أن القطار واقف ولكنه

يبدو متحركا لأن الأزهار والأشجار فى فناء المدرسة كانت تتحرك مع الرياح الخفيفة . لقد صاحت :

ـ أنا سعيدة .

ثم ضغطت وجهها على زجاج النوافذ ثم غنت مثلما كانت تغنى عندما تشعر بالسعادة :

ـ أنا سعيدة جدا .

ـ سعيدة جدا أنا .

ـ لماذا أنا سعيدة .

ـ لأنه .....

وفى هذه اللحظة دخل عليها شخص ما ، وكان الداخل بنتا ـ لقد أخرجت البنت كراستها والمقلمة من حقيبتها ووضعت ذلك على الطاولة ثم وقفت على أطراف أصابع رجلها ووضعت الحقيبة على الرف وكذلك كيس حذائها .

توقفت توتوتشن عن الغناء وبسرعة فعلت كما فعلت البنت .

ثم دخل العربة ولد قد وقف عند الباب وقذف بحقيبته على رف القطار كمن يقذف كرة السلة ، ولكنها وقعت على الأرض فقال :

ـ رمية فاشلة .

ثم حاول مرة أخرى من نفس المكان فاستمرت الحقيبة على الرف فصاح :

ـ رمية ناجحة . إنها ليست رمية فاشلة .

ثم صعد على الطاولة وفتح الحقيبة ليخرج منها كراسته ومقلمته ولأنه لم

يخرجها قبل قذفه للحقيبة فقد بدا وكأنه كان فاشلا أيضا فى المرة الأخرى .
أخيرا كان هناك تسعة من التلاميذ فى هذه العربة وكان هؤلاء هم جميع تلاميذ السنة الأولى فى هذه المدرسة وسيكونون المسافرين سويا على نفس القطار .

الفصل الدراسى

إذا كانت توتوتشن اعتبرت أن الفصل الدراسى فى عربة قطار سكة حديد شىء غريب فلقد كان هناك شىء أغرب هو أن التلميذ يستطيع أن يجلس فى هذا الفصل حيث يريد بينما كان كل مقعد فى فصل الدراسة فى المدرسة السابقة محددا لتلميذ بعينه .

بعد تفكير طويل وتأمل هنا وهناك قررت توتوتشن أن تجلس بجانب التلميذة التى دخلت الفصل بعدها لأنها كانت ترتدى فوق ملابسها جوئلة ذات صدار قد رسم عليه أرنب بأذنين طويلتين . وكان الأكثر غرابة فى هذه المدرسة هى طريقة التدريس .

فى المدارس العادية يوضع فى كل فصل من فصول المدرسة جدول بالمواد التى ستدرس كل يوم من أيام الأسبوع : فالحصة الأولى مثلا قرآن ودين والثانية حساب والثالثة كذا .... وهكذا . ولكن الأمر فى هذه المدرسة يختلف اختلافا تاما ، فعندما تبدأ الحصة الأولى يكتب المدرس على السبورة المشاكل والأسئلة فى الموضوعات التى ستدرس فى مواد هذا اليوم ثم يترك للتلاميذ حرية ترتيب الدراسة فيبدأ كل بما يريد . فمثلا هناك تلميذ يحب كتابة الموضوعات التعبيرية وبجانبه تلميذ آخر يحب العلوم فيوقد موقد الكحول أو الغاز

ليجرى تجربة فى مخبار زجاجى وقد ينفجر الغاز أو الكحول انفجارا بسيطا وهكذا يمكن رؤية هذه المشاهد فى جميع فصول المدرسة .

هذه الطريقة تمكن المدرسين من ملاحظة التلاميذ عندما يتقدمون فى السنوات الدراسية ومعرفة اهتمامهم وطريقة تفكيرهم وتصرفاتهم ، كما يسعد التلاميذ حين يبدءون بالمادة التى يرغبون فيها وأما بالنسبة للمواد التى لا يحبونها فيمكن إرجاؤها على أن ينتهى فيها فى آخر اليوم .

ولهذا كانت الدراسة تعتمد على التلميذ نفسه ، فإذا تعسر عليه شيء فإنه يستطيع الذهاب إلى المدرس ليسأله أو يحضر المدرس إليه ليشرح له ويوضح ما خفى عليه حتى يفهم ثم يعطى التلاميذ تمرينات إضافية لعملها . بمفردهم ولذا فإنه لا يكون هناك تلاميذ غير منتبهين عندما يشرح المدرس .

وإن كانت توتوتشن وآخرون فى الصف الأول لم يصلوا إلى مرحلة الاعتماد على النفس فإنه يسمح لهم أن يبدءوا بما يحبون من الدروس .

بعض التلاميذ يكتب «كاتا كانا» وبعضهم يرسم صورا وبعضهم يقرأ كتبا وحتى بعضهم يقوم بتمرينات رياضية .

كانت البنت التى بجانب توتوتشن تبدو كأنها تعرف الهيراجانا ولذا فإنها تكتب فى كراستها هيراجانا .

كل شيء كان غريبا على توتوتشن لدرجة أنها اضطربت ولم تستطع أن تدرس مباشرة بنفسها كالآخرين .

وفى ذلك الوقت وقف التلميذ الذى كان يجلس خلف توتوتشن ومشى متجها نحو السبورة ومعه كراسته ويبدو أنه كان متجها نحو المدرسة التى كانت تشرح لأحد

التلاميذ شيئا حيث كانت تجلس إلى مكتب بجوار السبورة . وتوقفت توتوتشن عن النظر فيما حولها وأخذت تنظر إلى هذا التلميذ من خلفه وهو يسير وقد اسندت خديها إلى كفيها لقد كان يجر رجله وكان جسمه يهتز بدرجة مخيفة ، واستمرت تتابع النظر إليه وهو راجع إلى مقعده فالتقت عيناهما فابتسم وابتسمت بدورها إليه ، وعندما حاول الجلوس فى مكانه خلفها استغرق منه وقتا أكثر من الآخرين فالتفتت إليه وسألته :

ــ لماذا تمشى هكذا ؟

فأجاب بصوت هادىء يدل على اللطف والذكاء :

ــ أنا عندى شلل أطفال .

لم تسمع توتوتشن بهذه الكلمة من قبل ولذلك رددتها :

ــ شلل أطفال ؟!!

فأجاب فى همس :

ــ نعم ، شلل أطفال ، ليست رجلى فقط ولكن يدى أيضا . .

وأصابعه الطويلة قد انحنت وبدت كأنها ملتصقة ببعضها . فسألته مهتمة وقد نظرت إلى يده اليسرى :

ــ ألا يمكن أن تعالج ؟

فلم يجب . فتأثرت توتوتشن وودت أنها لم تسأله . وقال الولد بصوت مبتهج :

ــ اسمى يا سواكى يا ماموتو . وأنت ما اسمك ؟

لقد كانت توتوتشن مسرورة لسماعها هذا الصوت البهيج منه فقالت له بصوت عال :

ـ اسمى توتوتشن .

وهكذا بدأت علاقة الصداقة بين ياسوا كى ياماموتو وبين توتوتشن .

كان داخل القطار حاراً إلى حد ما بسبب أشعة الشمس . ففتح واحد من التلاميذ الشباك فهب نسيم الربيع العليل بداخل القطار فاهتزت مشاعر التلاميذ كأنها ترقص على نغم .

وهكذا بدأ أول يوم فى تومویء لتوتوتشن .

طعام من البر وطعام من البحر

لقد كانت توتوتشن فى شوق لمعرفة ما هو الطعام الذى يحتوى شيئا من البر وشيئا من البحر . وها هو قد حان وقته .

لقد اختار المدير هذا التعبير «شيء من البر وشيء من البحر» ليصف الوجبة الغذائية المتوازنة ـ الطعام الذى توقع أن يجهز للأطفال علاوة على الأرز . وذلك بدلا من أن يعبر كالعادة : مرن أولادك على أن يأكلوا كل شيء ، أو : أرجو مراعاة أن يحتوى الطعام على أشياء لذيذة متوازنه . لقد أخبر السيد المدير أولياء الأمور بكل هذه المعانى عندما قال لهم «شيء من البر وشيء من البحر» يجب أن يحتويه البنتو (صندوق الطعام) فى وجبة الغذاء .

الشيء الذى هو من البحر مثل : السمك وتوكودانى (نوع من السمك مطبوخ بطريقة خاصة تحفظه مدة طويلة من التلف) . والشيء الذى من البر هو الخضروات واللحم البقرى أو لحم الخنزير والدجاج .

لقد تعجبت الأم كثيرا من هذا التعبير البسيط الذى استطاع به المدير أن يعبر به عن أشياء مهمة وتلك طريقة لا يستطيعها إلا قليل من المديرين . إنه يبدو سهلا أن تختار من نوعين مختلفين (طعام البر وطعام البحر) لتعد غذاء وبجانب ذلك فإن المدير يعتقد أن الغذاء بهذه الطريقة «شيء من البر وشيء

من البحر) لا يمثل أى صعوبة أو تكلفة.

طعام البر قد يكون «كنبرا غوبو» ـ نوع من الخضر اليابانية مقلى ـ أو البيض المقلى، وطعام البحر هو رقائق من السمك المجفف ومعه بعض الأرز.

وهناك طريقة أسهل من ذلك فشىء من البر وشىء من البحر عبارة عن بعض الأعشاب البحرية (نورى) وأوميبوشى (مشمش أخضر مخلل) تماما كالحالة السابقة التى غبطت عليها توتوتشن الأطفال عندما حضر المدير وأخذ ينظر إلى صناديق غذائهم وهم سعداء والمدير يسألهم واحدا تلو الآخر عن صندوقه:

ـ هل به شىء من البر وشىء من البحر؟

لقد كان شيئا سارا للأطفال أن ينظروا إلى صناديقهم لمعرفة ما هو الشىء من البر وما هو الشىء من البحر.



فى بعض الأحيان يحضر بعض التلاميذ فى صناديق غذائهم نوعا واحدا إما من البر وإما من البحر وهذا نظرا لأن أمهاتهم تكُنَّ مشغولات أو لأسباب خاصة ؛

وهو كذلك . أمر غير مهم .

لقد كانت زوجة المدير فى أثناء تفتيشه على الصناديق تسير خلفه فى مريلتها البيضاء حاملة حلة فى كل يد . فإذا وقف المدير أمام تلميذ وقال : بحر ، فإن زوجته تأخذ من الحلة التى بها طعام البحر أصبعين (كفته من السمك المطبوخ) ثم تضعها فى غطاء صندوق طعام التلميذ ، وإذا قال : بر ، فإنها تأخذ بعض مطبوخ البطاطس من الحلة التى بها طعام البر ثم تضعه فى صندوق طعام التلميذ .

وهكذا يأكل الأطفال لا يفكر أحدهم أن يقول أنا أحب هذا أو أكره ذاك ولا ينظر بعضهم إلى بعض ليقول هذا عنده طعام جيد وذاك عنده طعام ردىء .

يهتم الأطفال فقط بضرورة اكتمال نوعى الطعام : شىء من البر وشىء من البحر لهذا يكونون مسرورين .

بعدها فهمت توتوتشن ما هو الشىء من البر وما هو الشىء من البحر كانت فى شك إذا كان طعام الغذاء (البنتو) الذى أعدته أمها فى الصباح سريعا سيحوز القبول ، ولكنها عندما فتحت صندوق الطعام وجدت فى داخله طعاما مدهشا لدرجة أنها وقفت صائحة :

ــ أوه ــ حسنا جدا .

لقد احتوى طعام الغذاء بيضا مقليا قد اختلط صفارة ببياضه ، بسلة

خضراء ، ودينبو بنى اللون (سمك مطبوخ مع بعض المواد اليابانية فصار دقيقا) وبطارخ سمك القد (البكلاه) المطبوخ (فصارت وردية اللون) .

لقد كان البنتو (صندوق الطعام) مملوءا بألوان كأنها أزهار حديقة . لقد قال السيد المدير عندما رآها مندهشا :

ـ ما أجمل هذا .

لقد تأثرت توتوتشن وقالت :

ـ أمى طباخة جيدة .

قال المدير :

ـ أهى كذلك ؟

ثم أشار إلى الدينبو وقال :

ـ هذا جيد. ما هذا ؟ هل هو شىء من البحر أم شىء من البر؟

نظرت توتوتشن إليه متحيرة ما هى الحقيقة . إنه لون الأرض لهذا ربما يكون من البر ولكنها لم تتأكد فقالت :

ـ لا أعرف .

ثم سأل المدير جميع التلاميذ بصوت عال :

ـ هل هو شىء من البحر أم شىء من البر؟

ردوا بصوت عال :

ـ شىء من البحر !

ـ شىء من البر !

دون إدراك للحقيقة .

وعندما هدأ الأطفال قال المدير :

ـ إذن هو شىء من البحر .

سأل ولد ضخم الجثة :

ـ لماذا ؟

فوقف المدير فى وسط الدائرة وبدأ يشرح لهم :

ـ دينبو لحم سمك مفروم قد قلى ونشف .

ـ أوه . . .

حينذاك سأل المدير أحد الأطفال :

ـ يا أستاذ ! هل يمكن أن أرى دينبو توتوتشن ؟

وافق المدير فأتى كل التلاميذ فى المدرسة ليشاهدوا دينبو توتوتشن . بالتأكيد أن بعض التلاميذ قد عرفوا شيئا عن دينبو من قبل إلا أنهم قد أولعوا به بعد كلام المدير . ومنهم من يرغب فى معرفة هل يوجد فرق بين الدينبو فى بيوتهم ودينبو توتوتشن . لقد قلقت توتوتشن قليلاً لأن من المشاهدين من يشم رائحته وربما يطير شىء مع الريح من أنفه .

كانت توتوتشن عصبية قليلا فى اليوم الأول مع أنها قد تمتعت به خاصة فى التفكير فى شىء من البحر وشىء من البر . إذ كانت تشعر بالفرح والطرب لأنها عرفت أن الدينبو من الأسماك وأمها قد جهزت العلبة بشىء من البحر وشىء من البر . وشىء آخر أسعد توتوتشن هو أن الغذاء الذى جهزته أمها كان لذيذا جدا .

امضغ الطعام جيدا

نحن نبدأ الطعام عادة بقول «إيتاداكيمسو» وهذه الكلمة اصطلاح معناه : سأشترك معكم فى الأكل شاكرا . ولكن الشىء الآخر الذى كان مختلفا فى هذه المدرسة هو أن كل الأطفال غنوا أغنية . وكان المدير هو الموسيقار الذى وضع أغنية خاصة تغنى قبل تناول الغداء . طبعا هو الذى وضع كلماتها ولحنها على غرار أغنية مشهورة انجليزية اللحن معناها :

«جدف زورقك ... جدف زورقك»

وكانت كلمات المدير :

«امضغ ... امضغ .. امضغ ... امضغ جيدا كل شىء تأكله»

لم يكن الأطفال حتى انتهوا من هذه الأغنية قد بدأوا بتلك الكلمة المعتادة (إيتاداكيمسو) لقد كانت هذه الكلمات ملائمة لإيقاع الأغنية (جدف جدف زورقك) وقد اعتقد كثير من المتخرجين فى هذه المدرسة أن هذه الأغنية هى التى تغنى قبل تناول طعام الغذاء . لعل السيد المدير قد كتب كلمات هذه الأغنية لأنه قد فقد بعض أسنانه ولكنه دائما يخبر التلاميذ أن يأكلوا ببطء ويأخذوا وقتا طويلا على الأكل ويتحدثوا حديثا لطيفا فى أثنائه ، ولعله وضع هذه الأغنية ليذكرهم بذلك .

بعد أن نغنى هذه الأغنية بصوت عال نقول «إيتاداكيمسو» ثم نتناول الغذاء من شىء من البحر وشىء من البر ، وفى هذه اللحظات يسود الهدوء فى القاعة .

نزهة :

بعد تناول طعام الغذاء لعبت توتوتشن فى فناء المدرسة مع التلاميذ الآخرين قبل عودتهم إلى العربة التى فيها فصل الدراسة .

قالت المدرسة :

ـ لقد عملتم هذا الصباح عملا مرضيا ، فماذا تريدون أن تعملوا هذا المساء ؟ وقبل أن تفكر توتوتشن فيما تريد أجاب التلاميذ كلهم (نزهة) .

قالت المدرسة :

ـ وهو كذلك .

ثم وقفت فاندفع التلاميذ إلى أبواب العربة ففتحوها ثم لبسوا أحذيتهم وجروا نحو الخارج .

لقد اعتادت توتوتشن أن تخرج للنزهة مع أبيها والكلب روكى ولكن لا تعرف كيف تكون النزهة المدرسية ومع أنها قد دهشت فقد أسرعت ولبست حذاءها كما لبس الأطفال .

كما عرفت بعد ذلك ، أنه إذا اجتهد التلاميذ فى أعمال الصباح وأتموا كل أعمالهم التى سجلتها المدرسة على السبورة والمطلوب منهم إتمامها فإنه يسمح لهم بالنزهة بعد الظهر ، يتساوى فى هذا جميع تلاميذ المدرسة من الصف الأول إلى الصف السادس . لقد خرج كل تلاميذ الصف الأول وعددهم تسعة

وكانت المدرسة تتوسطهم وبدءوا يسيرون على حافة جدول قد صفت على حافتيه أشجار الكرز الكبيرة التى قد ازدهرت فعلا كما امتدت على الضفتين حقول زهور الخردل الصفراء على امتداد البصر.

هكذا كان حى جيوغاؤكا الذى اختفى نهره بعد ذلك وأقيمت عليه مساكن ومحلات وأصبح مزدحما بالسكان. لقد قالت ساكوتشن ـ تلك البنت ذات المريلة التى رسم عليها الأرنب والتى تجلس بجانب توتوتشن ـ نحن نذهب فى رحلتنا إلى كوهنبتسو (مكان)، لقد رأينا فى آخر مرة ذهبنا إليها ثعبانا بجانب البركة ويقال أن نيزكا كان يتألق فى السماء سقط فى بئر قديم فى أرض معبد كوهنبتسو.

وكان الأطفال فى أثناء سيرهم يتحدث بعضهم إلى بعض كل واحد بما يحب من الحديث وكانت السماء صافية والفراشات ترفرف جولهم هنا وهناك، وبعد سيرهم حوالى عشر دقائق وقفت المدرسة مشيرة إلى الزهر الأصفر وسألتهم :

ـ هل تعرفون لماذا تتفتح الزهور؟

ثم شرحت لهم كيف تتم عملية التلقيح فى الزهرة لكى تتفتح، وتحدثت عن أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث فى الزهرة [وعضو التذكير باللغة اليابانية اسمه (أوشيبى) وعضو التأنيث اسمه (ميشيبى)] وأخذ التلاميذ ينظرون إلى الزهور متتبعين ماتقوله المدرسة.

وقد ذكرت أن الفراشات من العوامل التى تساعد على تلقيح الزهور وحقا، كانت الفراشات تطير هنا وهناك وكأنها تقوم بهذا العمل.

بعد ذلك بدأت المعلمة تسير ويتبعها التلاميذ بعد أن صرفوا النظر عن مراقبة الأزهار . وهنا سأل تلميذ :

ـ هل الأوشيبي يختلف عن الأكمبي ؟

والـ(أكمبي باللغة اليابانية حركة يحدثها الأطفال بالأصابع والفم لإغاظة بعضهم بعضا) .

ـ أظن أنهما مختلفان . أليس كذلك ؟

(ولعل اتفاق الكلمتين في الحرف الأخير (بي) هو الذى أوحى إلى التلميذ بهذا السؤال ، كما تتداعى المعانى فى السجع العربى) .

كانت توتوتشن تشارك فى الحوار ، إنهما مختلفان ، مع أنها ليست متأكدة من ذلك ، ولكنها فهمت كما فهم بقية التلاميذ أن عملية التلقيح مهمة لتتفتح الزهور .

ثم ساروا جميعا بعد ذلك حوالى عشر دقائق أخرى حيث وقعت أنظارهم على غابة صغيرة مليئة بالأشجار . إنها تحيط بمعبد يدعى كوهنبتسو .

عندما دخل التلاميذ أرض المعبد انتشروا فى اتجاهات متعددة . سألت ساكو تشن :

ـ ألا نذهب لمشاهدة البئر الذى وقع فيه النيزك ؟

وافقت توتوتشن ـ طبعا ـ ثم جرت خلفها . لقد بدت البئر كأنها مصنوعة من الحجر وقد ارتفعت عن الأرض إلى نحو صدر الفتاتين وعليها غطاء من الخشب .

لقد رفعتا الغطاء لتنظرا بداخلها إلا أن الداخل كان مظلما وعندما أنعمتا

النظر لرؤية ما بداخلها رأتا كتلة من الأسمنت أو الحجر ولكنها لم تكن نيزكا لامعا كما توقعتا ، فلما رفعتا رأسيهما سألت توتوتشن ساكوتشن :

ـ هل شاهدت النجم ؟

فهزت رأسها .

ـ لا أبدا .

تعجبت توتوتشن لماذا لم يلمع النجم ؟ ولكن بعد التفكير فيه برهة قالت :

ـ ربما هو نائم .

ولكن ساكوتشن فتحت عينيها من التعجب قائلة :

ـ هل النجوم تنام ؟

فردت توتوتشن غير متأكدة :

ـ أظن أنها تنام نهارا ثم تستيقظ وتتألق ليلا .

ثم تجمع التلاميذ سويا وطافوا بأرض المعبد وقد ضحكوا عندما شاهدوا تمثالى «نيوسما» الكبيرين حارسى المعبد وقد وقفا على جانبى البوابة ولكل واحد منهما بطن ضخم عار ثم نظروا إلى تمثال « بوذا » فى الصالة الرئيسية التى تبدو مظلمة حيث شعروا بشىء من الرهبة والخوف ثم قاموا بوضع أرجلهم فى شكل قدمين لـ « تنغوا » قد نحتتا فى صخرة ـ وتنغوا هذا جنى فى خيال الناس له أنف ضخم طويلة يظنون أن فيه بعض الأسرار ـ محاولين معرفة الفرق بين أرجلهم وهذا الأثر . ثم داروا حول البركة وأهدوا التحية لركاب الزوارق ـ ثم أخذوا بعض الحجارة السوداء الملساء من المقبرة ولعبوا بها حول المقابر .

كل شىء كان جديدا بالنسبة لتوتوتشن وكانت تحيى كل شىء تراه بصيحة تعجب . وعندما قربت الشمس على المغيب قالت المدرسة :

ـ هذا وقت العودة .

فوقف التلاميذ مصطفين على طول الطريق بين أزهار الخردل وأشجار الكرز عائدين إلى المدرسة . وقد تحقق التلاميذ أن هذه النزهة التى ظنوها للعب والمرح كانت لدراسة بعض المواد مثل العلوم والتاريخ والأحياء لقد جعلت توتوتشن من جميع الأطفال أصدقاء وشعرت كأنها كانت تعرفهم كل حياتها . فصاحت إليهم فى طريق عودتهم :

ـ دعونا نذهب للنزهة مرة أخرى غدا .

فقفزوا جميعا صائحين آملين :

ـ نعم .

ما زالت الفراشات تطير هنا وهناك مزاولة نشاطها فى العمل ، وملأ تغريد الطيور جميع الأرجاء فكان قلب توتوتشن مليئا بالبهجة والفرح .

أغنيـة المدرسـة

مرت أيام فى مدرسة تومون كانت مليئة بالمفاجآت العجيبة
ومازالت تشعر بالشوق الحار للذهاب إليها مبكرة كل يوم ، وكا
تعود إلى المنزل من المدرسة لا تستطيع أن تتوقف عن الكلام لت
وأمها وأباها كل ما عملت فى المدرسة ذلك اليوم وكيف كان سارا
ولا تكف عن الكلام حتى تقول لها أمها :

ـ يكفى هذا يا عزيزتى ، توقفى عن الكلام وتناولى بعض ه
الخفيف .

ومع أن توتوتشن قد تعودت تماما على المدرسة الجديدة فإنها م
أشياء كثيرة تريد أن تتحدث عنها كل يوم .

وكانت الأم سعيدة بذلك لأنه يدل على مدى تعلق توتو
المدرسة .

وذات يوم وهى فى القطار ذاهبة إلى المدرسة خطر على بالها
ما كان للمدرسة أغنية ! !

وأرادت أن تعرف سريعا هذا الأمر ولكنها انتظرت على مضض
محطتان على الوصول إلى المدرسة ذهبت إلى باب عربة القطار مستعدة ل

وصوله إلى محطة المدرسة ، وكانت هناك عجوز تريد الركوب فى المحطة السابقة للمدرسة ، وعندما فتح الباب رأت توتوتشن فى هذا الوضع فظنت أنها ستنزل فانتظرت العجوز ولكن توتوتشن استمرت فى وضعها ولم تنزل مما جعلها تعجب وظنت أنه قد حدث لها شىء ، ثم ركبت العجوز القطار .

وعندما وصل القطار محطة المدرسة وقبل أن يتم المشرف الشاب اعلانه عن وصول القطار محطة جيوغاؤكا ويطلب النزول لمن يريد أسرعت بالنزول ثم اختفت عن الأنظار من باب الخروج .

بمجرد دخولها عربة القطار التى بها فصلها المدرسى سألت التلميذ الذى وصل قبلها وكان يدعى (تايتشن ياماؤتشى) قائلة :

ـ تايتشن ، هل لهذه المدرسة أغنية ؟

وأجاب هذا التلميذ وكان يحب دراسة العلوم ـ بعد تفكير :

ـ لا أظن ذلك .

قالت توتوتشن بأسف :

ـ أوه ، أظن أنه يجب أن تكون لها أغنية ، لقد كان لنا فى المدرسة السابقة أغنية محبوبة .

ثم شرعت تغنيها بصوت عال :

ـ مع أن مياه بركة سنزوكو ضحلة فإنها مصدر للتعليم العميق .

هذه كانت أغنية المدرسة السابقة . لقد مكثت توتوتشن فى المدرسة السابقة مدة قصيرة ولكن على الرغم من ذلك ومن صعوبة كلمات الأغنية فإنها حفظت هذا الجزء منها .

بدا تايتشن معجبا بهذه الأغنية وقد هز رأسه مرتين دليل أعجابه وفى هذا الوقت وصل التلاميذ الآخرون فأعجبوا أيضا بهذه الكلمات التى استخدمتها توتوتشن . وقالت توتوتشن :

ـ دعونا نطلب من السيد المدير أن يُعِدَّ لنا أغنية للمدرسة .

فوافق التلاميذ وذهبوا جميعا إلى حجرة السيد المدير . وبعد أن سمع السيد المدير إلى توتوتشن وهى تغنى هذه الأغنية استجاب لطلبهم ووعدهم بأن يعد الأغنية المطلوبة فى صباح الغد .

وبعد أخذهم العهد عليه بأن يعمل اصطفوا ليرجعوا إلى فصولهم الدراسية .

وفى صباح اليوم التالى كانت هناك توجيهات إلى تلاميذ كل الفصول ليجتمعوا وسط فناء المدرسة وكانت معهم بالطبع توتوتشن وكلهم فرحون متشوقون ، فحضر المدير إلى الفناء ومعه سبورة ثم قال :

ـ إذن ، الآن هذه أغنية توموى مدرستكم .

ثم رسم خمسة خطوط متوازية على السبورة ثم كتب النوتة الموسيقية على الخطوط ورفع يده إشارة للاستعداد فى الغناء مثل المايسترو وقال :

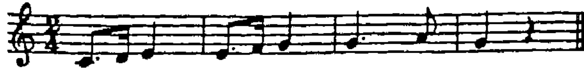
ـ هيا نغنى سويا .

ثم انزل يده وغنى معه خمسون تلميذا فى صوت واحد .

ـ توموى . توموى . تو ـ مو ـ ى .

سألت توتوتشن بعد لحظة وجيزة :

ـ أهذا كل ما هنالك ؟



توموى .　　　توموى .　　　تو ـ مو ـ ى

فأجاب المدير بفخر واعتزاز :

ـ نعم .

قالت توتوتشن بصوت مكتئب :

ـ لقد كان من الأفضل أن تكون أغنية بكلمات شاعرية تشبه «بركة سنزوكو ضحلة الماء ..»

فى خجل ابتسم السيد المدير قائلا :

ـ ألم تعجبكم هذه الأغنية ؟ لقد ظننت أنها جيدة نوعا ما .

وسرعان ما أعلن التلاميذ رفضهم لهذه الأغنية ، لقد بدا على وجوهم أنه كان من الأفضل ألّا تكون لهم أغنية مثل هذه الأغنية البسيطة . وقد بدا على السيد المدير علامات الأسف ولم يكن غاضبا ، ثم تقدم نحو السبورة ليمحو ما كتب عليها . وظنت توتوتشن أنهم كانوا غير مؤدبين إلى حد ما مع السيد المدير . ولكن بعد كل ذلك كله كانت ترغب فى عمل أغنية تؤثر فى عقلها ووجدانها ولو قليلا .

والحقيقة أنه لم يكن هناك شىء يعبر عن حب الأستاذ للتلاميذ وللمدرسة ويناسب عقول التلاميذ الصغار إلا هذه الأغنية .

ونسى التلاميذ أمر هذه الأغنية واعتقد المدير أنه لا حاجة للمدرسة إلى أغنية ومنذ محوها من السبورة فقد بقيت مدرسة توموى بدون أغنية .

أعيديها

لم تقم توتوتشن بعمل شاق جداً طول حياتها أىّ يوم ذلك الذى أسقطت فيه حافظة نقودها المحبوبة فى المرحاض ؟!

وبالرغم من أنها لا تحتوى نقودا فإن توتوتشن تحبها كثيرا وتأخذها معها كلما ذهبت إلى دورة المياه . لقد كانت حقا جميلة مصنوعة من الحرير الرقيق الصقيل مربعة السطح يتكون من مربعات حمراء وصفراء وخضراء ولها غطاء مثلث كاللسان لاغلاقها بواسطة قفل عليه تمثال كلب فضى اسكتلندى يشبه البروش .

منذ نعومة أظفار توتوتشن كانت عندها غريزة حب الاستطلاع ، فكلما ذهبت إلى المرحاض وقضت حاجتها كانت تنظر فى فوهته بعد ذلك فبسبب ذلك أسقطت فيه كثيراً من الأشياء مثل قبعات من القش أو القماش الأبيض ، ولم يكن المرحاض فى ذلك الوقت بنظام الغسل بالماء بعد قضاء الحاجة ، كما أن فوهة المرحاض كان تحتها خزان فالقبعات التى سقطت من توتوتشن كانت دائما عائمة فيه ، وكثيراً ما نهتها أمها عن النظر من فوهة المرحاض إلى أسفل بعد انتهائها من استخدامه .

فى ذلك اليوم ذهبت توتوتشن إلى التواليت قبل ابتداء الدروس فى

المدرسة ، وقد نسيت وصية أمها ، وتلقائيا وجدت نفسها تنظر فى فتحة المرحاض إلى أسفل . لقد فقدت فى هذه اللحظة سيطرتها على الامساك بحافظة النقود التى تحبها حبا جما ، ولهذا فقد سقطت من يدها فى فتحة المرحاض وقد سمعت صوت سقوطها فصرخت عندما اختفت الحافظة فى الظلام داخل المرحاض .

ولكنها لم تبك ولم تيئس من الحصول عليها مرة أخرى ، بل ذهبت إلى حجرة فراش المدرسة وأحضرت مغرفة ذات يد طويلة تكاد تكون فى طولها ضعف طول توتوتشن والتى تستعمل فى رى الحديقة ، ولم يمنعها طول هذه المغرفة من استخدامها فأخذتها ودارت بها حول المدرسة لتجد الفتحة التى يمكن منها تفريغ المخلفات من البالوعة . لقد تصورت أن هذه الفتحة خارج حائط التواليت وطال البحث عبثا . وأخير لاحظت غطاء مستديرا من الأسمنت على بعد قليل وكان هو غطاء البالوعة (حجرة التفتيش) فرفعته بصعوبة فاكتشفت فتحة كانت هى بلا شك الفتحة التى تبحث عنها فوضعت رأسها فى داخلها ، ولما رأت اتساعها صاحت :

ـ لماذا هى كبيرة تشبه فى اتساعها بركة كوهنبتسو ؟!

ثم شرعت فى البحث وبدأت تغرف محتويات الخزان وتخرجها إلى الخارج ، وقد اهتمت أولاً بالمنطقة التى سقطت فيها حافظة النقود ولكن الخزان كان مظلماً وواسعاً لأنه يتصل بثلاثة مراحيض منفصلة تفرغ فيه فضلاتها ، وعلاوة على ذلك فإنه كان خطرا عليها أن تقع فيه نفسها إذا أدخلت رأسها فيه لتسبر غوره ، ولهذا فإنها قررت أن تقوم بنزحه كله وترجو أن يكون عمل ذلك هو الأفضل .

وكانت تفرغ المغرفة على الأرض حول فتحة الخزان وتبحث فيها عن الحافظة

معتقدة أنها سوف تجدها ولكنها لم تجدها وكانت تحدث نفسها فى أثناء ذلك :

ــ أين ذهبت ؟ !.

ولم تكن تتوقع أن البحث سيأخذ وقتاً طويلاً ولكن لم تكن هناك إشارة لوجودها . وهى تحدث نفسها أيضاً :

ــ أين يمكن أن توجد ؟ !

ودق جرس ابتداء الحصة . فى هذه اللحظة فكرت توتوتشن ماذا تفعل ؟ فلقد غرفت كثيراً فقررت أن تظل تغرف . وبذلت جهداً لتغرف أكثر وأكثر .

فصنعت كومة كبيرة منها وعندما مر المدير بالطريق الخلفى من دورة المياه . ونظر إلى ما تفعل توتوتشن وسأل :

ــ ماذا تفعلين ؟

كانت توتوتشن لا تريد إضاعة الوقت فأجابت وهى تغرف :

ــ اسقطت محفظتى .

قال المدير :

ــ أوه ..

ثم ذهب إلى مكان ما وكان ممسكا يديه خلف ظهره كعادته فى المشى ثم مضت فترة . لم تعثر على المحفظة بعد . ارتفعت وعلت الكومة شيئا فشيئا ، وقتئذ مر المدير بها مرة أخرى وسأل :

ــ هل وجدتها ؟

أجابت توتوتشن وكانت تحيط بها الكومة بالإضافة إلى عرقها الغزير وخدها الذى احمر :

ـ لا .

اقترب المدير من توتوتشن قليلاً ثم قال بصوت حنون كأنه صديقها :

ـ أعيديها بعد أن تنهى الغرف .

فأجابت توتوتشن بصوت قوى مبتهج وهى مستمرة فى عملها :

ـ نعم . سأفعل .

وفجأة طرأت لها فكرة ، نظرت إلى الكومة ثم قالت :

ـ بعد أن أنتهى سأعيد الجزء المتجمد ولكن ماذا سأفعل بالنسبة للماء ؟ لقد تسرب الجزء السائل فى الأرض سريعاً ولم يبق منه شىء .

توقفت توتوتشن عن العمل وفكرت كيف تعيد المياه إلى الخزان لتفى بوعدها للمدير؟ وأخيراً قررت أن تعيد التراب المبلل بالماء إلى داخل الخزان .

لقد أصبحت الكومة عالية والحوض فارغاً تقريباً ولكن ليس هناك أى إشارة للمحفظة فلعلها كانت فى قاع الحوض أو فى أحد أطرافه . ولكن توتوتشن لم تبال ، وكانت مقتنعة أنها فعلت كل ما تستطيع أن تفعل وإن لم تجدها وكان اقتناعها بغير شك فى أن المدير جعلها تشعر باحترام نفسها ولم يؤنبها ووثق فيها . ولكن ذلك أيضا كان معقدا بالنسبة لتوتوتشن حيث لا تستطيع أن تدرك ذاك .

ولو أن كثيراً من الشبان رآها فى هذا الموقع ورأى ما تفعله لصاح بها :

ـ يا الله ، ماذا تفعلين؟ توقفى عن ذلك ، إنه خطر .

أو كان يعرض عليها التناوب فى العمل .

وعندما سمعت الأم بهذه القصة من توتوتشن وتصورت ماقاله المدير شعرت بعظمة المدير وكرمه عندما قال لها :

ـ أعيديها فقط .

بعد هذا الحادث لم تعد توتوتشن تنظر من فتحة البالوعة إلى أسفل كلما ذهبت لدورة المياه ، واعتقدت أن المدير رجل عطوف وزاد احترامها وحبها له .

لقد وفت توتوتشن بوعدها مع المدير وأعادت كل شيء من الكومة إلى الخزان .

لقد كان إخراج ما فى الخزان شيئا صعباً ولكن إدخاله كان أمراً سهلاً وسريعاً .

ثم استمرت تأخذ التراب الذى جف من الماء بالمغرفة لتعيده إلى الداخل حتى استوت الأرض فأعادت الغطاء إلى مكانه والمغرفة إلى المخزن .

ولئن تذكرت توتوتشن المحفظة الأنيقة التى سقطت فى الظلام وحزنت لفقدها ، فإن العمل الشاق فى هذا اليوم جعلها متعبة فلم تستغرق وقتاً طويلاً فى التفكير بل غلبها النعاس فنامت مبكرة .

ومازالت الحافظة الجميلة التى هامت بها توتوتشن مستقرة فى مكان هادىء فى ركن من أركان الخزان ولم تعبأ بكل هذه المجهودات ، كما ظل مشهد الأرض التى ما زالت مبتلة ببعض الماء والتى شقيت توتوتشن بالعمل فيها يتألق فى ضوء القمر كأنه شيء لامع جميل .

اسم توتوتشن

تيتسوكو هو الأسم الحقيق لتوتوتشن . ولكن ، كيف تغير الاسم إلى ذلك ؟ قبيل ولادتها كان الأهل والأصدقاء يعتقدون أن المولود سيكون ولدا . وأعتقد الوالدان اللذان ينجبان لأول مرة ما اعتقده الأهل والأصدقاء وقررا أن يكون اسم المولود (تورو) . ولكن سرعان ما خاب أملهما إذ كان المولود بنتا .

ولكنهما يحبان الحروف الصينية لكلمة* (تورو) التى تعنى (مستقيم) وهذه الحروف لها فى المنطوق اليابانى صوتان وأحد هذين الصوتين هو تيتسو فأخذ الوالدان هذا الصوت وأضافا إليه كلمة (كو) للدلالة على أنه اسم لبنت فى المنطوق اليابانى ، فصار اسم المولودة «تيتسوكو» ولهذا فكل واحد يناديها تيتسوكوتشن / وكلمة (تشن) مألوفة لكلمة (سان) التى تضاف بعد اسم أى شخص بمعنى (سيد) ولما كان الأطفال لا تستطيع السنتهم النطق السليم وإنما ينطقون الكلمات قريبة مما يسمعون ، فكانت تيتسوكو تشن إذا سألها أى واحد عن اسمها كان جوابها (توتوتشن) وكأنها ظنت أن كلمة تشن جزء من اسمها أيضا ولقد كان أبوها يناديها فى بعض الأحيان (توتوسكى) كأنها ولد فيقول :

ـ توتوسكى . تعالى ساعدينى فى نزع هذه الحشرات من الورود .

---

* (تورو) لها معان طيبة مثل (مستقيم ، صبور . نفاذ . واضح)

ولذلك كان كل الناس ينادونها (توتوتشن) إلا أباها والكلب روكى . ومع أنها كتبت اسمها فى دفاتر المدرسة (تيتسوكو) إلا أنها استمرت تفكر فى أنها (توتوتشن) .

التمثيليات الهزلية

أمس كانت توتوتشن منزعجة جداً بعد أن قالت لها أمها :

ـ يجب ألا تسمعي التمثيليات الهزلية من الراديو .

عندما كانت توتوتشن صغيرة كانت الراديوهات لطيفة وكبيرة . قد صنعت من الخشب قائم الزوايا مستديرة من أعلاها وكان فى مقدمة الراديو مكبر للصوت مغطى بغطاء من الحرير الوردى مزخرف بنقوش عربية وكان له مفتاحان لإدارته . وكانت توتوتشن حتى قبل أن تبدأ المدرسة تحب أن تسمع التمثيليات الهزلية وتضغط أذنها على غطاء المكبر الحريرى لأنها كانت تظن أنها سارة جدا ، ولم تعارضها أمها أبداً فى هذا حتى مساء أمس عندما جاء إلى منزلهم الفريق الموسيقى الذى يضم أباها للتدريب على الرباعى الوترى ونادتها أمها :

ـ السيد تسونيسادا تاتشيبانا عازف الفيونسيل قد أحضر لك موزاً .

فأجابت توتوتشن فى سعادة وانحنت برأسها شاكرة لتاتسيبانا وبالمثل صاحت لأمها لتشكرها فقالت :

ـ آه ، يا أمه ، إنه شيء لطيف .

(ويظهر أن طريقة الشكر لم تعجب والدتها وفهمت أنها تعلمت هذه الألفاظ غير المعتادلة من تلك التمثيليات الهزلية لهذا نهتها عن سماعها .)

ومنذ ذلك الحين لم تستطع أن تسمع هذه التمثيليات إلا فى غياب والديها .

عندما يتكلم الممثل بنكتة كانت توتوتشن تضحك بصوت عال ، وكان كبار السن إذا رأوها كذلك يندهشون كيف تضحك بنت صغيرة مثلها على نكتة صعبة كهذه ، ولكن ليس هناك شك أن الأطفال عندهم حاسة داخلية تدرك الفكاهة ، مهما كانوا صغارا فإنهم دائما يحسون عندما يكون الشىء حقيقة فكها .

قـدوم القطـار

فى أثناء وقت الغذاء قالت ميوتشن :

ـ هناك عربة قطار جديدة قادمة هذه الليلة .

ميوتشن هذه تلميذة فى فصل توتوتشن وهى ثالثة بنات السيد المدير.

كان هناك ست عربات مصطفة كفصول دراسية ولكن ستأتى عربة أخرى وستكون هذه العربة مكتبة المدرسة كما قالت ميوتشن فهاج التلاميذ جميعا وقال أحدهم :

ـ إننى أعجب ! ! أى طريق ستأخذه لتصل إلى المدرسة ؟!

لقد أثار هذا السؤال موضوعاً لابداء الآراء بين التلاميذ ، بعد برهة صمت قال آخر مقترحا :

ـ ربما ستأتى على خط سكة حديد أويماتشى ثم تنتحى إلى فرع آخر وتأتى إلى المدرسة .

فرد ثالث :

ـ إذن إنه يجب أن تخرج عن القضبان .

وقال رابع :

ـ ربما سيحضرون العربة على عربة كارو ! !



وأشار الخامس قائلا :

– ليس هناك عربة كارو كبيرة لدرجة أنها تحمل مثل هذه العربة – عربة القطار .

قالها سريعا وعقب :

– أنا لا أظن ذلك .

وبعد هذه الآراء تحقق التلاميذ أن عربة القطار لا تتناسب مع العربة الكارو أو عربة اليد أو حتى سيارة النقل الكبيرة لتحمل عليها .

وقالت توتوتشن بعد تفكير عميق :

– من المحتمل أن يضعوا خطاً يصل إلى المدرسة .

فسأل آخر :

– من أين ؟

فقالت توتوتشن :

ـ من أين ؟ من المكان الموجود فيه القطار الآن .

وبدأت تعتقد أن فكرتها غير موفقة ، ذلك لأنها لا تعرف المكان الذى ستحضر منه العربة وأنه لا يمكن هدم البيوت والأشياء الأخرى ليضعوا خطاً مستقيماً إلى المدرسة .

وبعد المناقشة غير المثمرة للوصول إلى طريقة مناسبة اتفقوا جميعاً على أنهم لن يرجعوا إلى منازلهم هذا المساء بل سينتظرون حتى يروا كيفية وصول العربة . وقد اختاروا ميوتشن نائبة عنهم لتستأذن من أبيها المدير أن يبقى التلاميذ فى المدرسة حتى المساء .

بعد قليل عادت ميوتشن قائلة :

ـ وصول القطار سوف يكون فى ساعة متأخرة من الليل بعد أن ينتهى من خدمته اليومية . فالذى يود أن يراه ، يعود إلى بيته أولاً وإذا وافق أهله يمكنه الحضور إلى المدرسة ومعه ملابس النوم وبطانية بعد تناول وجبة العشاء .

ـ أوه ... !

كانوا كلهم هائجين من الفرح أكثر من أى وقت آخر .

ـ ملابس النوم ، أليس كذلك ؟

ـ بطانية ... ؟

ولم يكن للتلاميذ أية رغبة فى الدراسة ذلك اليوم . فانطلقوا إلى بيوتهم بعد الدراسة كالسهام خرجت من قوسها مما يدل على شغفهم وسرعتهم .

وكل واحد منهم يرجو أن يستطيع الحضور إلى المدرسة ومعه بطانية وملابس النوم . وتوتوتشن فور وصولها إلى البيت قالت لأمها :

ـ سوف يأتى قطار اليوم إلى المدرسة . لا أعرف كيف يأتى بعد .

هل يمكننى الذهاب إلى المدرسة فى المساء ومعى ملابس النوم وبطانية لأرى كيف يأتى ؟!

لا أظن أن هناك واحدة من الأمهات تستطيع أن تفهم شيئا مع هذا الشرح ، وكذلك كانت أم توتوتشن غير أنها فهمت أن شيئاً هاماً سوف يحدث وذلك من الجدية التى بدت على وجه توتوتشن ، فسألتها كل أنواع الأسئلة وأخيرا فهمت الأم كل ما سيحدث وفكرت أنه يجب أن ترى توتوتشن ذلك لأنها لم تواتها كثير من الفرص مثل ذلك وحتى نفسها فكرت أن ترى وصول العربة فأعدت ملابس نوم توتوتشن وبطانية وبعد العشاء أوصلتها إلى المدرسة وكان هناك حوالى عشرة تلاميذ وفيهم تلاميذ كبار من الذين سمعوا هذا الخبر ، كما كان هناك بعض الأمهات أيضا حضرن مع أولادهن وقد بدا عليهن حب البقاء معهم ولكنهن رجعن بعد أن استوثقن من المدير رعاية أولادهن . قال المدير للتلاميذ :

ـ سوف أوقظكم عندما تصل العربة .

فنام التلاميذ داخل بطاطينهم فى قاعة الاجتماع بعد تأكدهم من وعد المدير .

لقد ظن التلاميذ أنهم سوف لا يستطيعون النوم حيث شغلهم التفكير فى كيفية وصول القطار ، ولكن بعد طول القلق والتعب ظهر عليهم الميل إلى النوم ، وشيئاً فشيئاً استغرقوا فى النوم ولسانهم يلهج بكلمة :

ـ أيقظنى .. لاتنس !

لقد استيقظوا على جلبة أصوات تصيح :

ـ أتى .. أتى ..

قفزت توتوتشن من نومها وجرت إلى فناء المدرسة ثم إلى خارج البوابة فظهرت لها عربة القطار كبيرة فى ضوء الصباح الخافت وكأنها فى الحلم .

إنه قطار قد أتى عبر الطريق بدون خط ولا صوت . إنه قد أتى على مقطورة قد شدت بجرار من مستودع سكة حديد أوْيماتشى .

لقد تعلمت توتوتشن والتلاميذ الآخرون شيئاً لم يعرفوه من قبل ، شيئا يسمى جرارا ذلك الذى يجر مقطورة وهو أكبر من عربة اليد وكانوا جميعا مندهشين . لقد كانت العربة محمولة على مقطورة يجرها جرار ليسير بطيئا فى الشارع الذى يبدو خاليا من المارة فجرا .

حالا ، كان هناك اضطراب وهرج كبير .

لم تكن فى تلك الأيام رافعة كبيرة لكى تنزل بها العربة وتوضع فى المكان المعد لها ، لذلك فإن هذا العمل عمل صعب وشاق . لقد قام العمال بوضع بعض الأخشاب الضخمة تحت العربة . لانزالها من المقطورة إلى فناء المدرسة بالتدريج . وقال المدير للتلاميذ :

ـ انظروا جيداً . إنهم يسمون (المدحرجون) قوة الدحرجة تستعمل لتحريك هذه العربة الكبيرة .

كان الأطفال ينظرون بانتباه . لقد كان العمال يترنمون وهم يدحرجون العربة بقولهم :

ـ هب .. هب ..

وبدأت الشمس نفسها ترتفع فى نفس الوقت الذى يترنمون فيه .

وهكذا أصبحت العربة التى حملت كثيراً من الناس وقد نزعت عجلاتها وانهت حياة سفرها مثل العربات الست الأخرى فى المدرسة وصارت من الآن مستعدة لتحمل ضحكات الأطفال وقهقهاتهم .

ولما كان الأولاد والبنات قد وقفوا فى الصباح عند شروق الشمس فى ملابس نومهم ، كانوا جميعا سعداء ولم يستطيعوا أن يخفوا سرورهم وظلوا يقفزون هنا وهناك كما كانوا يعانقون السيد المدير ويتعلقون فى ذراعيه .

وكان المدير يتمايل مع هجومهم ويبتسم بسعادة ويبتسم الأطفال ويسعدون بسعادته .

وسوف لا ينسى واحد منهم هذه السعادة ولا ذلك الفرح .

حمام السباحة

ما اسعده يوما لأجل توتوتشن . إنه كان أول يوم تسبح فى حياتها . عارية فى حمام سباحة . لقد حدث ذلك عندما قال السيد المدير فى هذا اليوم لجميع التلاميذ :

ـ لقد فاجأنا الحر ولهذا سأملأ الحمام بالماء .

فانشرح كل واحد من التلاميذ واخذوا يقفزون إلى أعلى وإلى أسفل ويقولون :

ـ يا سلام ! !

وبالطبع كانت كذلك توتوتشن وتلاميذ الفرقة الأولى : قفزوا إلى أعلى وإلى أسفل وكانوا أكثر صياحا من التلاميذ الكبار . ويصيحون جميعا :

ـ يا سلام ! !

لم يكن حمام سباحة مدرسة توموى مربعا كالحمامات الأخرى بل كان محدبا فى بعض جهاته يشبه الزورق وكان لطيفا ولعل موقعه قد أضفى عليه شيئا من الجمال إذ كان كبيرا وواسعا بين فصول الدراسة وصالة الاجتماع ، ولقد كانت توتوتشن والآخرون يختلسون النظر إليه من خلال النوافذ فى أثناء الدروس . وعندما يكون فارغا وتغطى الأوراق الساقطة سطحه كان يبدو كأنه جزء من الفناء ، ولكن الان بعد نظافته. وملئه بالماء بدا يشبه حمامات السباحة حقا .

وعندما حان وقت الغذاء وكان التلاميذ مجتمعين حول حوض السباحة .

قال السيد المدير :

ـ سنقوم ببعض التمرينات البدنية ثم نسبح بعد ذلك .

فكرت توتوتشن :

ألا تحتاج إلى ملابس سباحة لتسبح بها ؟

عندما ذهبت إلى كاما كورا على شاطىء البحر مع والديها أخذت ملابس السباحة والطوق المطاط وكل ما يلزم . لقد حاولت أن تتذكر هل طلب المدرس من التلاميذ إحضار ملابس للسباحة .

وكان المدير قد فهم ما يدور بخلدها فقال لها :

ـ لا تهتمى بملابس السباحة ، اذهبى إلى قاعة الاجتماع وانظرى فيها .

عندما جرت توتوتشن والآخرون فى الصف الأول إلى قاعة الاستماع كان التلاميذ فى الصفوف العليا يخلعون ملابسهم ويصرخون من الفرح .

وبعد خلع ملابسهم خرجوا عرايا واحدا تلو الآخر إلى فناء المدرسة كأنهم ذاهبون للاستحمام . فخلعت توتوتشن والآخرون ملابسهم بسرعة . وكانت الرياح تهب دافئة فأحسوا بشعور طيب وهم فى حالة العرى . لقد بدءوا الرياضة فى الفناء عندما خرجوا عرايا من قاعة الاجتماع ووقفوا على السلم . فنزلت توتوتشن والآخرون من السلم بسرعة دون أن يلبسوا الأحذية . كان مدرس السباحة أخا لميوتشن ، أى الابن الأكبر للمدير وكان خبيرا فى السباحة .

إلا أنه ليس مدرسا فى توموى بل هو لاعب فى منتخب السباحة فى إحدى الجامعات . اسمه توموى نفس اسم المدرسة .

وكان السيد تومورى يلبس ملابس السباحة .
بعد التمرين صرخ الأطفال بأصوات عالية عندما رشهم بالماء .
ثم قفزوا فى حمام السباحة .
لم تقفز توتوتشن إلى الداخل حتى رأت التلاميذ الآخرين قد استطاعوا الوقوف فى داخل الماء وأصبحت مطمئنة أنها تستطيع الوقوف مثلهم .

لم يكن ماء الحمام ساخنا كحمام المنزل بل كان مريحا وكان كبيرا وواسعا على قدر امتداد الذراعين وليس هناك سوى الماء شىء .

كل الأطفال ذكورا وأناثا نحافا وسمانا يضحكون ويلعبون ويصرخون ويسبحون ويغوصون ويرش بعضهم بعضا وهم عرايا كيوم ولدتهم أمهاتهم .

لقد كان شعور توتوتشن وإحساسها طيبا جدا وهى فى حوض السباحة ولم تكن اسفه على شىء إلا روكى الذى لم يستطع الحضور إلى المدرسة لو كان يعلم - روكى - أنه يستطيع الدخول فى الحوض من غير ملابس حمام لحضر أيضا .

ربما تتعجب كيف يسمح السيد المدير للتلاميذ بالسباحة وهم عرايا ؟
إنه لم تكن هناك قواعد ولا قوانين فى هذا الأمر . إذا أحضرت معك ملابس السباحة وأردت أن ترتديها فلا مانع . ومن ناحية أخرى فى مثل هذا اليوم عندما تقرر فجأة أن تسبح وليس معك ملابس السباحة فلا مانع أيضا .

ولماذا ترك المدير الأطفال يسبحون مجردين من الثياب ؟
ذلك لأن المدير فكر أنه ليس من الصواب أن يصير الأولاد والبنات مرضى بحب الاستطلاع نحو الاختلافات فى أجسامهم كما ظن أنه ليس من الطبيعى لأجل الناس أن يعانوا الآلام فى إخفاء أجسادهم بعضهم عن بعض .

لقد أراد المدير أن يعلم الأطفال أن كل الأجسام جميلة .

لقد كان من بين أطفال مدرسة توموى من عنده شلل أطفال مثل يا سو
تذن ومنهم قصار أو معوقون ، وقد أحس المدير أنهم إذا عروا أجسامهم ثم
معا فأن ذلك سوف يخلصهم من الشعور بالخجل وسوف يساعد على عد
مركب النقص فى أخلاقهم ، كما ساعد التلاميذ المعوقين الذين كانوا يخ
أولا على التخلص من الخجل وسريعا بدءوا يتمتعون بأنفسهم وأخيرا ه
خجلهم تماما .

لقد كان بعض الآباء والأمهات قلقين من هذه الفكرة وزودوا أولا
بملابس السباحة التى أصروا أن تلبس دائما ثم عرفوا أنه قلما تستعمل
الملابس وذلك بملاحظة الأطفال مثل توتوتشن التى قررت من الابتدا
تسبح عارية ، وهؤلاء الأطفال الذين قالوا أنهم نسوا أن يحضروا ملابسه
لقد كان معظمهم مقتنعا أنه من دواعى السرور السباحة بدون ملابس كغ
فسبحوا عرايا وعند عودتهم إلى منازلهم بللوا ملابسهم ليؤكدوا أنهم لبسو
وبناء على ذلك فإن معظم التلاميذ فى مدرسة توموى أصبحت أجسامهم
فى لون بنى كلون التوت ومن الصعب أن ترى جزءا أبيض فيهم متأثرا بار
ملابس السباحة .

كشـف الـدرجـات

بمجرد خروج توتوتشن من المدرسة أخذت تجرى من المحطة إلى بيتها لا تنظر يمينا ولا شمالا ، ولا يرى الرائى منها وهى تجرى سريعة .

إلا حقيبتها تهتز على ظهرها ، وقد يظن أن حادثا سيئا قد حدث لها لما هى فيه من السرعة

عندما وصلت إلى المنزل فتحت الباب الأمامى ونادت :

ـ لقد رجعت .

ثم ذهبت تبحث عن الكلب روكى . لقد كان يرقد فى الشرفة وبطنه على الأرض ليلتمس الهواء البارد ـ لم تقل توتوتشن شيئا وإنما جلست أمامه وخلعت حقيبتها من كتفيها ثم أخرجت بطاقة درجاتها ، وكان أول تقرير عنها ثم فتحته وكان روكى يستطيع أن يرى درجاتها بوضوح . وقالت له بعزة وافتخار :

ـ أنظر .

لقد كان فيها بعض الحروف (أ) ، (ب) وحروف أخرى ، وطبعا لم تكن توتوتشن تدرى أيهما أفضل (أ) أو (ب) كما لا يدرى الكلب روكى من باب أولى ولكنها تريد أن يطلع روكى على أول تقرير عنها قبل أى إنسان آخر وتظن

أنه سيكون مسرورا . وعندما رأى روكى الأوراق أمام وجهه شمها ثم تفرس فى وجه توتوتشن فقالت :

ـ إنه جيد ، أليس كذلك ؟

ولكنه مليء بالكلمات التى يصعب فهمها وفيه كثير من الحروف الصينية ، فحرك روكى رأسه كما لو كان ينظر مرة أخرى إلى الأوراق ثم لعق يد توتوتشن .

قالت توتوتشن فى طيب نفس :

ـ حسنا .

ثم قامت وقالت :

ـ الآن سأذهب لأريه أمى .

وبعد أن ذهبت توتوتشن ، قام روكى ليبحث عن مكان أكثر برودة من ذلك المكان ثم رقد فيه وأغمض عينيه ، ولقد بدا كما لو كان يفكر فى بطاقة الدرجات مرة أخرى .

بـدء العطلة الصيـفيـة

فى الرسالة التى سلمتها توتوتشن لأمها من المدرسة مكتوب «ستنصب غدا خيام للإقامة بها فالرجا الحضور إلى المدرسة فى المساء ومعكم بطاطين وملابس للنوم»

لقد بدأت العطلة الصيفية فى اليوم التالى .

سألت توتوتشن :

ـ ما معنى الإقامة فى الخيام ؟

وكانت الأم فى نفس اللحظة تفكر ثم أجابت :

ـ أليس معنى ذلك أنكم ربما تذهبون إلى مكان خارج المساكن وينصبون الخيام فى بعض الأماكن ثم تنامون فيها ؟ .

انكم عندما تنامون فى الخيام تستطيعون أن تشاهدوا النجوم والقمر ، أنا لست أدرى أين ستقيمون الخيام ؟

ليس هناك ذكر لأجرة الموصلات ، ولعله فى مكان قريب من المدرسة .

لم تستطع توتوتشن أن تنام تلك الليلة عندما ذهبت إلى فراشها وظلت تفكر فى هذا الأمر وقد شعرت بالخوف فربما تكون فيه مغامرة وأخذ قلبها يدق سريعا .

بمجرد أن استيقظت من نومها فى الصباح التالى بدأت تستعد بحزم ما يلزمها ووضعت ملابس نومها فى حقيبة ظهرها ثم وضعت بطانيها فوق هذه الحقيبة وفى مساء هذا اليوم ودعت والديها وحملت حقيبتها لتتوجه إلى المدرسة ولكنها أحست بالخوف وشعرت أن الحقيبة أكبر منها .

وعندما تجمع الأولاد فى المدرسة طلب المدير من التلاميذ أن يجتمعوا فى صالة الاجتماعات وبعد اجتماعهم صعد المدير إلى مكان القاء المحاضرات وكان معه خيمة خضراء ثم أخبرهم أنه سيقوم بنصبها أمامهم لكى يعرفوا طريقة تركيبها وطلب منهم أن يراقبوه بانتباه ثم شد بعض الحبال وأوقف بعض العمدان هنا وهناك وبسرعة أتم تركيبها فبدت بشكل جميل ثم قال :

ــ تعالوا الآن . أنتم ستقومون بنصب خيامكم فى صالة الاجتماعات للإقامة فيها .

تصورت الأم كما يتصور أى إنسان أن نصب هذه الخيام سيكون فى الخارج ولكن المدير له وجهة نظر أخرى وهى أن إقامة الأطفال فى قاعة الاجتماعات سيحمى الأطفال من البرد والمطر .

فرح الأطفال وأخذوا يصيحون :

ــ سنقوم بنصب الخيام لنقيم فيها .

ثم انقسم الأطفال إلى مجموعات وبمساعدة المدرسين تمكنوا من اقامة العدد المناسب من الخيام ، وكانت كل خيمة تكفى لنوم ثلاثة أطفال .

توتوتشن بسرعة لبست ملابس نومها ، وأخذت تزحف إلى الخيام تدخل هذه وتخرج منها إلى الأخرى وهكذا حتى أرضت نفسها برؤية الخيام جميعا ، وكذلك فعل جميع الأطفال فكانوا يزحفون بين الخيام سعداء فرحين ليزور

بعضهم بعضا . وبعد أن ارتدى كل واحد من الأطفال ملابس نوم جلس المدير في الوسط بين الخيام بحيث يراه كل الأطفال ثم تحدث إليهم حول رحلته في الخارج . وكان الأطفال في خيامهم بعضهم يطل برأسه من خيمته وبعضهم يجلس القرفصاء وبعضهم يضع رأسه على فخذ الآخر وكلهم يستمعون إلى حديثه عن الأقطار الأجنبية التي لم يروها أبدا وحتى لم يسمعوا عنها يوما ما .

لقد كانت قصص السيد المدير خلابة ، وكان الأطفال في بعض الأحيان يشعرون أن الأطفال بعض هذه الأماكن فيما وراء البحار أصدقاء لهم .

وهكذا كان هذا العمل البسيط : النوم في الخيام في صالة الاجتماعات سعادة وخبرة ذات قيمة للأطفال لا يمكن أن ينسوها .

السيد المدير يعرف جيدا كيف يجعل الأطفال سعداء . وبعد الانتهاء من حديثه أطفئت أنوار الصالة وذهب الأطفال إلى خيامهم وكان يسمع الضحك من بعض الخيام ومن بعضها يسمع صوت وسوسة ومن بعضها يسمع صوت مصارعة . وأخيرا هدأ الجميع حقا .

لم يكن هناك قمر ولا نجوم يتمتع الأطفال برؤيتها إلا أنهم تمتعوا جدا وهم في خيامهم التي بدت لهم في هذه الصالة الصغيرة كأنها خيام في أرض واسعة ، وقد غمرت ذكريات هذه الليلة الجميلة بأشعة القمر ولمعان النجوم إلى الأبد .

المغامرة الكبرى

بعد يومين من الإقامة بالخيام فى صالة اجتماع المدرسة ، جاء يوم المغامرة الكبرى لتوتوتشن . إنه كان يوم الاتفاقية التى عقدتها مع التلميذ يا سواكى تشن . وكانت هذه الاتفاقية سرا بينهما لا يعلم بها والدا كل منهما . لقد دعته إلى شجرتها .

لكل طالب فى مدرسة توموى شجرة فى فناء المدرسة تعتبر شجرته التى يتسلق عليها . وقد كانت شجرة توتوتشن فى طرف الفناء قريبة من السور بجوار المنعطف الذى يؤدى إلى كوهنبتسو . وقد كانت شجرة كبيرة ملساء صعبة التسلق ، وتحتاج إلى مهارة فائقة لترتفع عليها نحو ستة أقدام من الأرض إلى ملتقى فروع تتقابل لتكون مثل السرير المعلق يريح من يجلس عليه، ولقد اعتادت توتوتشن أن تذهب هناك فى أثناء الفسحة وبعد انتهاء الدروس تجلس عليها وتنظر إلى المسافات البعيدة أو إلى السماء أو ترى الناس يسيرون تحتها .

وكل تلميذ يعتبر شجرته ملكا له ، ولهذا فإن من يرد أن يتسلق شجرة الآخر فلابد أن يحصل بأدب على إذن منه فيقول له :

- اسمح لى ، هل أستطيع أن أصعد شجرتك ؟

ولأن ياسواكى تشن مريض بشلل الأطفال فإنه لم يتسلق شجرة من قبل ولا

يستطيع أن يتسلق شجرة كملك له ، وهذا هو السبب الذى دعا توتوتشن أن تدعوه إلى شجرتها ، وقد جعلا هذا الأمر سرا لأنهما ظنا أن الناس لو تأكدوا من ذلك فسيضحكون ويشرشرون .

ولما أرادت توتوتشن الخروج من منزلها أخبرت والدتها أنها ستذهب لزيارة ياسواكى تشن فى منزله فى دينيتشوف ، وكان ذلك كذبا . ولهذا فإنها لم تحاول النظر إلى أمها ولكن ركزت أنظارها خجلا على رباط حذائها . وتبعها الكلب روكى حتى المحطة وعندما انفردا سويا فى الطريق أخبرته الحقيقة وقالت له :

ـ أنا ذاهبة لاجعل ياسواكى تشن يصعد شجرتى .

عندما وصلت توتوتشن إلى المدرسة وكانت بطاقة الاشتراك فى القطار معلقة حول رقبتها وتهتز فى أثناء جريها وجدت يا سواكى تشن منتظرا بجانب أحواض الزهر المهجورة فى فناء المدرسة نظرا للعطلة الصيفية .

لقد كان يسواكى تشن يكبر توتوتشن بعام واحد فقط ولكنه كان عندما يتكلم تشعر أنه يكبرها بكثير . وعندما رآها أسرع إليها جارا رجليه ومادا ذراعيه إلى الأمام ليثبت نفسه . ولقد كانت توتوتشن مسرورة عندما تفكر انهما سيعملان عملا سريا فحيته بالضحك والابتسام ورد هو أيضا هذه التحية بالضحك والابتسام ، ثم قادته إلى شجرتها وحينئذ وتماما كما فكرت فى الليلة الماضية جرت إلى مخزن الأدوات المدرسية .. وجرت سلما إلى الشجرة ثم وضعته عكس الجذع وذلك ليصل إلى ملتقى الفروع ثم تسلقت سريعا ثم أمسكت برأس السلم ونادته :

ـ حسنا ، حاول أن تصعد .

ولكن يبدو أن يا سواكى ليس لديه القوة الكافية فى يديه وقدميه ليصعد حتى الدرجة الأولى من السلم من غير مساعدة .

ولهذا أسرعت توتوتشن إلى النزول على السلم وظهرها إلى الطريق وحاولت أن تدفع يا سواكى إلى أعلى من الخلف ، ولكنها صغيرة جدا ونحيفة ولم تستطع إلا أن تمسكه لينزل وقد استطاع يا سواكى أن يخرج قدميه من درجة السلم الأولى ثم وقف بجانب السلم مطأطئا رأسه ، وتأكدت توتوتشن لأول مرة أنه كان سيصير أكثر صعوبة مما كانت تعتقد ثم فكرت ماذا تفعل ؟

إنها ترغب رغبة شديدة فى أن تجعل يا سواكى تشن يصعد شجرتها ، وأصبح هو راغبا أيضا فى ذلك رغبة شديدة . ذهبت هنا وهناك ثم واجهته . لقد بدا حزينا لدرجة أنها أرادت أن تذهب عنه حزنه فنفخت خدودها لتظهر بوجه مضحك لتسرى عنه . ثم قالت له :

ـ انتظر ، لقد حضرت إلى فكرة .

جرت توتوتشن إلى حجرة الأدوات المدرسية مرة أخرى وأخذت تشد الأدوات لترى أيها يمكن أن يساعدها وأخيرا وجدت سلما ذا وجهين لا يتحرك ولهذا فإنها ليست فى حاجة إلى إمساكه . فجرت هذا السلم وسرها أنها استطاعت جذبه وزاد سرورها عندما وجدت أن هذا السلم يصل إلى ملتقى فروع الشجرة ثم قالت له فى صوت أخوى :

ـ الآن لا تخف ، هذا السلم لا يمكن أن يتأرجح

نظر يا سواكى تشن إلى السلم بعصبية ثم نظر إلى توتوتشن مبتلة بعرقها وكان هو أيضا غارقا فى عرقه . نظر إلى الشجرة وبتصميم وضع قدما على الدرجة

الأولى للسلم ، ولم يكن أحدهما يعرف المدة التى يمكن أن يأخذها حتى يصل إلى أعلى السلم .

شمس الصيف المحرقة بدأت تقل ولكن لا تفكير عندهما إلا فى وصول ياسواكى تشن إلى أعلى السلم . نزلت توتوتشن تحته ورفعت قدميه ثم وضعت رأسها أسفله لرفعه وهو أيضا حاول بكل قوته وأخيرا وصل إلى القمة الحمد لله .

ولكن مع وصوله إلى قمة السلم فإنه لم يستطع الانتقال إلى الشجرة إنه كان أملا ضائعا وجهدا مبذولا بلا جدوى . قفزت توتوتشن إلى ملتقى الفروع وحاولت ان تجذبه إلى الشجرة من فوق السلم ولكنها لم تستطع . نظر ياسواكى تشن إلى توتوتشن بينما كان قابضا على السلم وقد بدت كأنها تريد أن تصرخ ، لقد أرادت أن تدعوه إلى شجرتها لتريه كل أنواع الأشياء ، ولكنها لم تصرخ لأنها خافت إذا فعلت فربما يبدأ ياسواكى تشن الصراخ أيضا .

وبدلا من ذلك فإنها أمسكت يده ذات الأصابع الملتصقة من الشلل

لقد كانت يده أكبر من يدها وأصابعه أطول من أصابعها ، وقد ظلت قابضة على يده مدة طويلة ثم قالت له :

ـ استلق على بطنك وسأحاول أن أجذبك .

وعندما فعل ذلك بدأت تجذبه وهى واقفة بين فرعى الشجرة بأقصى قوة مخاطرة بحياتها . فلو رآها الناس الكبار واقفة بين فرعى الشجرة وياسواكى تشن يرقد ببطنه على السلم وهى تجذبه بكل قوتها إلى الشجرة لأرسلوا صيحات الخوف والإشفاق . إنه كان منظرا يثير القلق والاضطراب لأنهما كانا فى موقف

غير ثابت ومتأرجح . ولكن يا سواكي تشن اطمأن إلى توتونشن وكانت هى مخاطرة بحياتها لأجله ، ممسكة بيديها الضعيفتين يديه لتجذبه بكل قوتها ، ولقد كانت سحابة كبيرة تظللها بحنان ورحمة من وقت لآخر وتحميها من الشمس المحرقة .

وبعد انتهاء هذه المحاولة وقفا وجها لوجه على الشجرة .

ثم قالت توتونشن وهى تمسح شعرها المبلل وقد انحنت بأدب :

ـ مرحبا بك إلى شجرتى .

فانحنى يا سواكى تشن إلى جذع الشجرة مبتسما بخجل ثم قال :

ـ هل أستطيع أن أدخل ؟!

لقد كان يستطيع أن يرى مناظر لم يسبق له رؤيتها ، ثم قال بسعادة وسرور :

ـ لهذا السبب نحب أن نتسلق الشجرة .

لقد مكثا على الشجرة وقتا طويلا وتحدثا حول كل الأشياء .

وقال يا سواكى تشن بحماس :

ـ تقول أختى التى تعيش فى أمريكا أن عندهم شيئا يسمى تليفزيون .

إنها تقول : عندما يحضر هذا التليفزيون إلى اليابان فإنكم تستطيعون أن تجلسوا فى منازلكم وتروا مصارعة السومو .

وتقول : إنه يشبه الصندوق .

لم تفهم بعد ماذا يعنى يا سواكى تشن الذى لم يذهب أبعد من الحقل وكيف يستطيع أن يرى كل الأشياء وهو فى منزله ؟ ولقد دهشت كيف يستطيع المصارعون فى السومو أن يدخلوا فى صندوق فى المنزل ، وهم ضخام جدا .

ولقد اعتقدت أن هذه القصة غريبة جدا .

فى تلك الأيام لم يكن هناك أحد يعرف شيئا عن التليفزيون وكان ياسوا كى تشن هو أول من يخبر توتوتشن عنه .

كانت فراشات الحصاد تغنى وكان الاثنان سعيدين وكان هذا أول وآخر وقت يتسلق فيه ياسوا كى تشن شجرة .

اختبار الشجاعة

ـ ما هو الشيء المخيف والكريه الرائحة واللذيذ الطعام ؟

إنهم يحبون هذا اللغز كثيرا لدرجة أنهم مع معرفتهم الجواب فإن توتوتشن وأصدقاءها لا يملون أن يقول بعضهم بعض :

ـ اسألني عن لغز الشيء المخيف الكريه الرائحة ـ

جواب هذا اللغز :

ـ إنه شيطان فى تواليت يأكل كعكا .

لقد كانت نتيجة اختبار الشجاعة فى مدرسة تومودى مثل ذلك :

ـ ما هو الشيء الذى يخيفك ويشعرك بالهرش ويضحكك ؟

فى الليلة التى نصبوا فيها الخيام فى صالة المدرسة ثم أقاموا فيها أعلن السيد المدير :

ـ سنقوم بعمل اختبار للشجاعة ذات مساء فى معبد كوهنبتسو ومن يرد أن يمثل الشبح فليرفع يده .

حوالى سبعة أولاد رشحوا أنفسهم ، وعندما اجتمع الأطفال فى المدرسة فى المساء المحدد ذهب هؤلاء الأطفال إلى فناء المعبد ليخفوا أنفسهم وقد أحضروا الملابس التى صنعوها بأنفسهم لذلك ، وقد قالوا لزملائهم عندما خرجوا للمعبد :

ـ سنخيفكم حتى الموت من الخوف .

قسم الأطفال الباقون وكانوا حوالى ثلاثين ـ أنفسهم كل خمسة أطفال فى مجموعة ثم ذهبوا إلى كوهنبتسو على فترات .

لقد كان من المفروض السير حول فناء المعبد ثم المقبرة ثم يعودون إلى المدرسة . وقد شرح لهم المدير أنه مع أن ذلك اختبار للشجاعة فإنه لا مانع أبدا إذا خاف أحدهم ولم يستطع مقاومة الخوف أن يعود قبل انتهاء المباراة .

لقد استعارت توتوتشن من أمها كشافا لتأخذه معها ، وقد حذرتها أمها أن تضيعه بقولها : أحذرى أن تضيعيه .

بعض الأولاد قالوا إن لديهم شباكا لصيد الفراشات وسيحضرونها لإمساك الأشباح بها ، بينما قال الآخرون إنهم سيحضرون حبالا يربطون بها الأشباح.

لقد كان الظلام مخيما عندما كان المدير يشرح لهم ما سيعملون ، وقد أجروا القرعة لترتيب الأدوار ومن سيذهب أولا ، ومن بعده وهكذا . خرج تلاميذ المجموعة الأولى من المدرسة للذهاب إلى المعبد فرحين صائحين ، وأخيرا جاء دور مجموعة توتوتشن ، وقد أخبرهم المدير أن الأشباح سوف لا تظهر قبل أن يذهبوا إلى معبد كوهنبتسو ولكن الأطفال لم يكونوا متأكدين من ذلك وتقدموا وهم فى خوف حتى وصلوا إلى مدخل المعبد فرأوا تمثالى الحارسين وبدت أرض المعبد مظلمة بالرغم من سطوع ضوء القمر ، وضيقة مع أنها فى أثناء النهار واسعة ومبهجة ولكن الآن لا يعلمون متى يصطدمون بواحد من الأشباح ، فكانوا خائفين ولا يستطعون أن يتحملوا ذلك . فإذا اهتزت الأشجار من الرياح أو وطئت رجل أحدهم شيئا طريا صرخوا من الخوف وظنوا أن ذلك من الأشباح .

وإذا أمسكت يد أحدهم يد الآخر ظن أنه أمسك الاشباح .

قررت تونوتشن ألا تذهب كل الطريق إلى المقبرة حيث ينتظر هناك الاشباح وأحست أنها الآن قد عرفت كل ماحول اختبار الشجاعة وتستطيع العودة ، وفى نفس الوقت كان كل أعضاء مجموعتها قد قرروا ذلك الأمر الذى يؤكد أن الفكرة لم تكن لواحد ، وجرى الجميع عائدين بسرعة كبيرة .

وعند عودتهم بسرعة فائقة إلى المدرسة وجدوا أن المجموعة التى سبقتهم فى الذهاب قد سبقتهم أيضا فى العودة وقد ظهر أن كل واحد تقريبا لم يذهب إلى المقبرة من شدة الخوف .

وفى أثناء ذلك حضر ولد وقد غطى رأسه بقماش أبيض ودخل من الباب بصحبة مدرس وهو يبكى بكاء مرا . هذا الولد كان واحدا من الأشباح ، وكان قابعا فى المقبرة طول الوقت ولكن لم يأت إليه أحد وقد خاف خوفا شديدا وأخيرا خرج وهو يبكى فى الطريق فوجده المدرس الذى يتجول لحراسة التلاميذ فعاد به . وبينما كان الكل يحاول أن يسرى عن هذا الولد إذا بولد ثان كان من الأشباح أيضا حضر بصحبة ولد آخر وهما يبكيان . وكان الولد الذى من الأشباح مختبئا فى المقبرة وعندما سمع بعض الناس يجرى نحو المقبرة قفز أمامه محاولا إخافته فاصطدمت رأساهما فاشتد ألمها وخوفها وأخذا يجريان عائدين سويا . إنه كان شيئا مضحكا . ولقد كانت المسرة التى أحسوا بها بعد الخوف الشديد سببا فى ضحكهم حتى مالت رءوسهم من شدة الضحك . أما الأشباح فقد ضحكوا وبكوا فى آن واحد . ثم حضر واحد من فصل توتوتشن لقبه (ميغيتا) وكان لابسا قلنسوة شبح مصنوعة من ورق الصحف وكان ثائرا لأن أحدا لم يحضر إلى المقبرة وقال :

ـ لقد انتظرت طول الوقت هناك ، هذا شىء قاس .

وكان يهرش رجليه ويديه من عض الناموس . فقال بعضهم :

ـ كيف يعض الناموس شبحا ؟!

وبدا الجميع يضحكون ثانيا . وقال المدرس (ماروباما) مسئول الصف الخامس :

ـ حسنا ، سأذهب لأحضر بقية الأشباح .

وخرج يبحث عنهم فوجد بعضهم منتظرا تحت مصباح الشارع والأشباح التى كانت شديدة الخوف رجعوا إلى منازلهم ، فأحضرهم جميعا إلى المدرسة . بعد هذه الليلة لم يعد يخاف تلاميذ مدرسة تومرى من الأشباح لأنه حتى الأشباح أنفسهم كانوا خائفين .

ألم يخافوا ؟!

قاعة التدريب

مشت توتوتشن برزانة . الكلب روكى مشى برزانة أيضا ناظرا إلى توتوتشن من وقت لآخر . هذا يعنى شيئا واحدا فقط . لقد كانا فى طريقهما إلى قاعة تدريب والدها . ومن عادة توتوتشن أنها عندما تسير تجرى على قدر ما تستطيع أو تمشى هنا وهناك باحثة عن شىء قد فقدته أو تسير بجانب حدائق الناس واحدة تلو الأخرى . زاحفة تحت الأسوار . ولقد كانت المسافة بين منزلهم وصالة تدريب الوالد ، حوالى خمس دقائق سيرا على الأقدام وكان عمله مساعد القائد فرقة موسيقية يعنى عازف الكمان .

ولقد أثار إعجابها مرة أنها عندما أخذت إلى حفلة موسيقية أنه بعد أن انتهى الناس من التصفيق استدار المايسترو ــ الذى كان يتصبب عرقا ــ نحو المشاهدين ثم نزل من مكانه على المسرح ليسلم على والدها الذى كان يعزف الكمان فوقف الوالد ووقف جميع أعضاء الفرقة أيضا .

سألت توتوتشن أمها هامسة :

ــ لماذا يسلم بعضهم على بعض ؟

أجابت الأم :

ــ لقد أراد المايسترو أن يشكر أعضاء الفرقة على حسن أدائهم ، ولهذا سلم على الوالد وعلى نائب الفرقة على سبيل الشكر .

لقد كانت توتوتشن تحب الذهاب إلى قاعة تدريب والدها لأنها تخالف المدرسة حيث يحضر فى المدرسة فى الغالب أطفال بينما يحضر فى القاعة . كبار وهم يعزفون بكل أنواع الأدوات الموسيقية علاوة على أن المايسترو السيد روزنشتوك يتكلم اللغة اليابانية بطريقة ساخرة .

لقد أخبرها والدها أن السيد يوسف روزنشتوك مايسترو مشهور فى أوروبا ، ولما أراد هتلر أن يطهر أوروبا من اليهود هرب روزنشتوك إلى اليابان ليواصل رسالته الموسيقية .

ولم تكن تفهم توتوتشن معنى التطهير وسببه . حيث لم تك تعرف شيئا عن أخبار العالم حينذاك وعن هتلر الذى كان يطهر أوروبا من اليهود .

وإذا لم يحدث فانه كان من المستحيل أن يحضر روزنشتوك إلى اليابان ، وربما لم يستطع الاوركسترا الذى اسسه الملحن كوساكو يامادا أن يصنع مثل هذا التقدم فى مثل هذا الزمن القصير من خلال هذا المجهود الذى قام به هذا المايسترو العالمى .



لقد أراد روزنشتوك مستوى عاليا فى التقديم مثل الذى توقع من الاوركسترا الممتاز فى أوروبا ، وقد كان هذا هو السبب الذى جعله يبكى دائما بعد الانتهاء من كل تدريب ويقول :

ــ هذا قصارى جهدى ولكنكم لا تتجاوبون معى .

هديويوسايتو عازف الشيلو الذى كان يقوم بقيادة الفرقة فى غياب روزشتوك

ــ وكان يتكلم اللغة الألمانية جيدا ــ يجيب على ذلك :

ــ نحن نبذل قصارى جهدنا ولكن تعليمنا لايزال غير كاف

أنا أؤكد لك أن فشلنا ليس متعمدا ، وكان أحيانا يحمر وجهه حين يغضب وكأن البخار يخرج من رأسه ويصرخ باللغة الألمانية . فى مثل هذه الحالة تود توتوتشن أن تترك شباكها المحبب الذى تنظر منه وخدودها على كفيها وتقعد القرفصاء على الأرض مع كلبها روكى وتتنفس بصعوبة وتنظر استئناف الموسيقى . ولكن المايسترو روزينشتك فى العادة رجل لطيف ولغته اليابانية مسلّية ، وعندما يتقنون التدريب فإنه يسر ويقول :

ــ حسنا جدا ياسيد كورياناجى ، ممتاز .

لم تدخل توتوتشن قاعة التدريب مطلقا ، ولكنها تحب أن تستمع إلى الموسيقى وترى أعضاء الأوركسترا من خلال شباك صغير ولذلك كان والدها يراها هناك عندما تتوقف الموسيقى . ويخرج الموسيقيون ليدخنوا فيقول لها :

ــ أوه . أنت هناك يا توتوسكى ؟! .

وعندما يراها روزينشتوك يقول لها :

ــ صباح الخير ، نهارك سعيد ، فى لغته اليابانية المكسّرة ومع أنها لم تعد

صغيرة فإنه يحملها كما كان يعمل فى أثناء صغرها ثم يضع وجهه على وجهها . ومع أن هذا كان يضغط على وجهها ولكنها كانت تحب السيد روزينشتوك .
وقد كان يلبس نظارة ذات إطار فضى رفيع وله أنف كبير وكان متوسط الطول . ولكن وجهة لطيف تستطيع أن تعرف منه أنه وجه فنان .

لقد أحبت توتوتشن قاعة التدريب ، وقد كانت على الطراز الغربى نوعا ما ومهدمة قليلا ، وكانت الريح التى تهب من بركة (سنزوكو) تحمل صوت الموسيقى بعيدا وراء صالة التدريب ، وكان فى بعض الأحيان يختلط صوت الموسيقى بصوت بائع السمك الذهبى الذى يباع للزينة .

رحلة إلى العين الساخنة :

أوشكت عطلة الصيف على الانتهاء ، وأقبل يوم الرحلة إلى العين الساخنة ، ولقد كان تلاميذ مدرسة توموى يعتبرونه الحدث الرئيسى . وعندما عادت توتوتشن من المدرسة ذات يوم وطلبت من أمها السماح لها بالاشتراك فى رحلة إلى العين الساخنة دهشت الأم التى لا تندهش غالبا من أشياء كثيرة لقد سمعت قبل ذلك أن الناس المسنين هم الذين يزورون العيون الساخنة فى مجموعات وليس التلاميذ الذين هم فى الصف الأول فى المدرسة ، ولكنها بعد أن قرأت خطاب السيد المدير بعناية فكرت أن هذه فكرة جيدة وامتلأت بالإعجاب بهذه الخطة . ولقد كانت الرحلة ستكون فى مدرسة بجانب البحر بمكان يسمى توى بمحافظة (شيزوكا) بشبة جزيرة (إزو) . كانت هناك عين ساخنة كائنة فى البحر حيث يستطيع التلاميذ الاستحمام والسباحة وستستغرق الرحلة ثلاثة أيام بليلتين وسيبقى التلاميذ من الصف الأول إلى الصف السادس فى منزل استراحة يملكه والد تلميذ من تلاميذ المدرسة . فوافقت الأم طبعا ، فاجتمع تلاميذ توموى فى اليوم المحدد فى المدرسة قبل أن يذهبوا وقال المدير بعد اجتماعهم :

ـ إذن ، الآن نحن مسافرون بالقطار والسفينة ، ولا أريد أن يضل أحدكم . هل تفهمون ؟ حسنا ، لنذهب .

كانت هذه فقط هى التعليمات التى أعطاها المدير للتلاميذ ولكنهم عندما ركبوا قطار خط طويوكو من محطة جيوغاؤكا لم يحدث أحد منهم ما يخالف بالرغم من أنه ليس هناك أحد علمهم أن يسيروا فى صف واحد وأن يكونوا مؤدبين وألا يلقوا بفضلات الطعام فى القطار إلى آخر هذه المخالفات وكان الحديث هادئا بين هؤلاء الجالسين بجانب بعضهم . لقد علمتهم حياتهم اليومية فى المدرسة ألا يدفعوا الناس الصغار أو الضعاف ، فضلا عن بعضهم البعض تلك الأشياء التى تدعو إلى الخجل ، وأن يرفعوا الأوراق من الأرض وألا يحاولوا عمل شىء يضايق الآخرين أو يزعجهم .

وأغرب شىء أن توتوتشن التى لم تدخل مدرسة توموى إلا منذ أشهر قليلة والتى كانت قبل ذلك عاملا من عوامل الإزعاج بالحديث إلى الموسيقيين فى الشارع من الشباك الذى كان فى وسط الفصل أصبحت تجلس على مقعدها وتعمل دروسها بنظام من أول يوم قد بدأت فى توموى . ولو رآها أى مدرس من المدرسة السابقة الآن جالسة بنظام مع الآخرين فى القطار فإنه سيقول إنها أصبحت شيئا آخر .

من نوماز ركب الجميع سفينة .

لقد كانت هذه السفينة تشبه تماما ما رأوه فى أحلامهم . إنها لم تكن سفينة كبيرة ولكنهم كانوا فى حالة هياج عندما رأوا كل ركن من سطحها ، يلمسون هذا ويتعلقون فى ذاك وعندما أقلعت السفينة أخذ الجميع يلوحون للناس الموجودين على الرصيف ولم يبعدوا إلا قليلا حتى بدأت السماء تمطر . على أى الحالات كان عليهم أن يدخلوا السفينة ، وسريعا صار البحر هائجا ، وبدأت توتوتشن تشعر بدوار البحر كما حدث لبعض الآخرين ، وفى نفس

الوقت وقف ولد من الأولاد الكبار ووقف فى وسط السفينة وهى تهتز محاولا أن يثبت نفسه ولكنه كان يصرخ ويميل يمينا وشمالا حسب اهتزاز السفينة . والأطفال يضحكون ومع شعورهم بدوار البحر فقد استمروا فى الضحك حتى وصلت السفينة توى ، وبعد أن نزلوا كان من الغريب أن الولد الذى كان يتظاهر بالثبات على سطح السفينة صار يشكو من دوار البحر بينما شفى الجميع من هذا الألم . عين توى الساخنة كانت فى قرية هادئة جميلة على البحر محاطة بتلال عليها غابات كثيفة ، وبعد فترة راحة قصيرة اصطحب المدرسون الأطفال إلى البحر. وقالوا لهم : إذا جلست القرفصاء فى المكان الذى تعرف أنه العين الساخنة فإن الماء الساخن يصل إلى رقبتك وتشعر بالراحة تماما كما تكون فى حمام ساخن . وإذا أردت أن تذهب من العين الساخنة إلى البحر فما عليك إلا أن تتحرك خمسة عشر قدما فى أى جانب فسوف تحس بالماء البارد بالتدريج وإذا تحركت مسافة أكثر فسوف تحس بالماء أكثر برودة ، وكل ما تعمله هو أن ترجع سريعا إلى العين الساخنة ثم تأخذ حماما ساخنا يعلو فيه الماء إلى رقبتك فتشعر شعورا طيبا كما لو كنت فى حمام المنزل ويبدو ذلك عجيبا . وبينما كان الأطفال الذين يرتدون قبعات البحر يسبحون فى البحر كالمعتاد كان الآخرون الذى هم فى العين الساخنة مسترخين فى دائرة مغنين كما لو كانوا تماما فى حمام حتى من يراهم يسأل :

ـ لماذا حتى الأطفال الصغار يعملون تماما كالناس الكبار عندما يدخلون حمام العين الساخنة ؟

فى هذه الأيام كانت شواطئ البحر مهجورة فلم يكن هناك زوار كثيرون ولذلك فإن الشواطئ كانت تبدو وكأنها البلاج الخاص واستطاع الأطفال أن

يتمتعوا بالسباحة والعين الساخنة إلى درجة كبيرة ، وعندما رجعوا إلى مكان الاستراحة فى المساء بعد مكثهم الطويل فى الماء كانت أصابعهم كتلة من شدة الانكماش . وفى كل ليلة حين يلتفون بأغطيتهم يعود التلاميذ إلى الحديث عن قصص الأشباح . توتوتشن وأطفال الصف الأول يخافون ويصرخون ولكن بالرغم من دموعهم يسألون :

ـ وحينئذ ماذا حدث ؟!

لقد كانت هذه الأيام الثلاثة التى قضاها التلاميذ فى عين توى الساخنة تجربة فى حياتهم تختلف عن حياة الخيام فى المدرسة وعن تجربة أختبار الشجاعة . فمثلا عندما كانوا يرسلون بدورهم ليشتروا خضروات وسمكا للعشاء ، وعندما كانوا يسألون من بعض الناس عن مدرستهم التى هم فيها ، ومن أين هم؟ كان عليهم أن يجيبوا بأدب . بعض التلاميذ تاهوا بين الأشجار ، وبعضهم سبح إلى مسافات بعيدة ولم يستطيعوا العودة وأصبح كل واحد قلقا عليهم ، وبعض آخر جرحت أقدامهم بزجاج مكسّر على الشاطئ ، فى مثل هذه الأحوال كان من الواجب على كل واحد منهم أن يفعل ما يستطيع للمساعدة . ولكن فى الغالب كان هذا شيئا سارا لقد كانت هناك غابة مملوءة بالفراشات ، ودكان لبيع الآيس كريم ، وقابلوا هناك على الشاطئ رجلا يصنع زورقا خشبيا كبيرا بنفسه وقد أخذ فعلا شكل الزورق . وفى كل صباح كان أول شىء يعملون أنهم يجرون إلى البلاج ليروا ما أنجز منه الرجل ، وقد أعطى الرجل توتوتشن بعض نشارة الخشب الطويلة الملتفة كهدية .

وقال السيد المدير فى اليوم الذى كانوا سيرجعون فيه :

ـ مارأيكم فى التقاط بعض الصور التذكارية ؟

كان التلاميذ فرحين لأنه لم يسبق أن التقطت لهم صورة جماعية وعندما كانت المدرسة مستعدة للتصوير ذهب بعض التلاميذ للتواليت وآخر قد لبس حذاءه معكوسا وكان عليه أن يعدل لبس الحذاء. وعندما قالت المدرسة أخيرا :

ـ هل كلكم مستعدون ؟

رقد على الأرض واحد أو اثنان من التعب حيث طال وقت استعدادهم للصورة . لقد أخذت هذه العملية ـ أخذ الصورة ـ وقتا طويلا جدا .

ولكن هذه الصورة مع البحر من خلفهم وكل تلميذ يقف لأخذ الصورة فى الوضع الذى يريده أويتخيله صارت ملكا عزيزا لكل منهم كالكنز : واحد ينظر إليها فيتذكر كثيرا من الحوادث : رحلة الزورق ، العين الساخنة ، قصص الأشباح والولد الذى كان يهتز فى السفينة .

وهكذا كانت هذه أول عطلة صيفية سعيدة لتوتوتشن بحيث لايمكن أن تنساها مطلقا .

لقد كانت فى تلك الأيام تجد سمك الاستاكوزا فى البركة القريبة من منزلهم فى طوكيو ، وعربة القمامة كانت تجر بوساطة ثور كبير .

فن الايقاع :

بعد انتهاء العطلة الصيفية ، بدأ الفصل الدراسى الثانى حيث يبدأ العام الدراسى فى اليابان فى إبريل بالإضافة إلى أن توتوتشن أصبحت صديقة لتلاميذ فصلها كما أصبحت صديقة لكل الأولاد والبنات الكبار وذلك من خلال الاجتماعات المختلفة فى عطلة الصيف وازداد حبها لمدرسة تومو ى . بجانب ذلك ، فإنه حقا قد اختلفت مدرسة تومو ى عن المدارس الأخرى : كان فيها وقت أطول للموسيقى وكان فيها دروس لكل أنواع الموسيقى متضمنة مدة يومية للفن الايقاعى ـ نوع خاص من تعليم فن الايقاع أو الرقص التوقيعى اخترع بوساطة دالكروز المدرس والملحن السويسرى . الذى عرفت بحوثه أولا فى سنة ١٩٠٤ وأصبح نظامه مطبقا سريعا فى أوروبا وأمريكا وانتشرت بعد ذلك معاهد التدريب والبحث فى كل مكان .

هنا قصة كيف جاء فن الإيقاع الذى أنشأه دالكروز ليطبق فى مدرسة تومو ى .

قبل بدء مدرسة تومو ى ، ذهب السيد المدير سوساكو كوباياشى إلى أوروبا ليرى كيف كان الأطفال يتعلمون فى الخارج . وزار كثيرا من المدارس الإبتدائية وتحدث مع كثير من المعلمين . وفى باريس قابل دالكروز وهو معلم وملحن ماهر .

لقد صرف دالكروز وقتا طويلا يفكر كيف يسمع الأطفال الموسيقى ويشعرون بها بعقولهم لابآذانهم ، وكيف يجعلهم يحسون الموسيقى كشىء متحرك لا كشىء بطىء لاحياة فيه ، وكيف يوقظ إحساس الطفل بشكل أفضل .

وأخير اكتشف الفكرة عندما رأى الأطفال يقفزون ويمرحون ويهرجون بحرية ثم أنشأ تمرينات الإيقاع التى سماها (فن الإيقاع) لقد مكث الأستاذ كوباياشى فى باريس أكثر من عام وحضر مدرسة دالكروز وتعلم هذا النظام بدرجة جيدة .

لقد تأثر كثير من اليابانيين بدالكروز : الملحن كوساكوريامادا ، ومبدع الرقص الحديث فى اليابان باكو إيشىء ، وممثل الكابوكى سادانجى إيتشيكاوا ، رائد الدراما الحديثة وكاؤروا أوساناى ، والراقص ميتشيؤإتوكل هؤلاء فكروا أن تعاليم دالكروز كانت هى أساس جميع الفنون ولكن كان سوساكوكوباياشى أول من استعملها فى التعليم الابتدائى فى اليابان .

ولو سألت السيد كوباياشى عن ماهية فن الإيقاع لأجاب .

ـ إنه رياضة بدنية تهذب حركات الجسم وتعلم العقل كيف يستعمل الجسم ويتحكم فيه ، وتجعل الجسم والعقل قادرين على فهم الإيقاع ، وممارسة فن الإيقاع يجعل الشخصية إيقاعية . والشخصية الإيقاعية جميلة وقوية ومطيعة ومتفقة مع قوانين الطبيعة .

توتوتشن وزملاؤها بدءوا تدريب أجسامهم على فهم الإيقاع . يعزف السيد المدير على البيانو فى المسرح الصغير فى صالة الاجتماعات والتلاميذ فى أى مكان يقفون :

وعند سماع الموسيقى يسيرون على الإيقاع حيثما وكيفما يريدون إلا أن يصادم بعضهم بعضا ولهذا فإنهم كانوا يميلون للسير فى اتجاه مستدير. وإن تصوروا أن الموسيقى ضربتان فى الوقت الواحد فإنهم يحركون إذرعهم أعلى وأسفل فى سيرهم كما يفعل المايسترو ولا يضغطون على أقدامهم فى السير ولكن ليس كما يسير راقصو الباليه على أطراف أصابعهم أى يسيرون سيرا مريحا يجررون أصابعهم. المهم أن يكونوا طبيعيين ولهذا يستطيعون أن يسيروا بأى طريقة تريحهم. وإذا تغيرت دقات الموسيقى إلى ثلاث دقات فإنهم يحركون أذرعهم طبقا لدقات الموسيقى وينظمون خطواتهم طبقا للإيقاع مسرعين أو مبطئين كما هو مطلوب ، وكان عليهم أن يتعلموا رفع أذرعهم أو خفضها ليناسب الإيقاع حتى ست ضربات فى المرة ، وكانت أربع ضربات بسيطة للغاية :

ـ أسفل ، مستدير ، جانبيا ، أعلى

وحين تكون خمس ضربات تكون هكذا :

ـ أسفل ـ مستدير ـ أمام ـ جانبا ـ أعلى

وحين تكون ست ضربات تكون هكذا :

ـ أسفل ـ مستدير ـ أمام ـ مستدير ـ جانبا ـ أعلى .

وعندما تكون الضربات متغيرة فإنها تكون تقريبا صعبة .

وتكون أكثر صعوبة عندما يعلن المدير :

ـ حتى إذا غيرت الإيقاع على البيانو فلا تغير حتى أخبرك أن تغير. على فرض أنهم كانوا يسيرون على دقتين فى المرة ثم تغيرت الموسيقى إلى ثلاث دقات فإن عليهم أن يستمروا فى المشى على دقتين مادام الإيقاع ثلاثيا . إنه يكون صعبا جدا ولكن المدير يريد أن يزرع قدرة فى التلاميذ على التدرج .

أخيرا هو يصيح :

ـ تستطيع أن تغير الآن .

بهدوء سيغير التلاميذ إلى إيقاع ثلاثى ولكن يكون هذا بعد أن ينبه عليهم بهذا الخصوص فينسوا الايقاع بدقتين . وفى أثناء ذلك يأمر المدير فجأة بتغير الإيقاع إلى خمس دقات فيرتبك الأطفال ثم ينادون على الأستاذ :

ـ يا استاذ انتظر . انتظر .

ولكن حينما يتعودون عليه فإنهم يحسون بالسعادة ويفكرون فى عمل أشياء مختلفة ويتمتعون . عاده يتحرك كل واحد بنفسه ولكن فى بعض الأحيان يقرر اثنان أن يتحركا سويا وقد أمسك كل واحد بيد الآخر عندما يكون الإيقاع دقتين أو يحاولان أن يسير وأعينهما مغمضة . الشيء الوحيد الممنوع هو الحديث سويا .

فى بعض الأحيان عندما يكون هناك اجتماع مجلس الآباء والمدرسين فإن الأمهات ينظرن من النوافذ . إنه كان محببا أن ينظروا إلى كل تلميذ يحرك ذراعيه ورجليه بسهولة ويقفز هنا وهناك فرحا موافقا لدقات إيقاع الموسيقى .

هكذا كان الغرض من فن الايقاع هو تدريب العقل والجسم أن يكونا متيقظين للإيقاع ، وحينئذ يستطيعون انسجام العقل مع الجسم وأخيرا بتنبه الخيال فى الإبداع .

عندما وصلت توتوتشن إلى المدرسة لأول مرة ونظرت إلى اسمها على البوابة سألت أمها :

ـ مامعنى توموى ؟!

توموى تعنى فاصلتين أحداهما مقلوبة ولونها أسود والأخرى لونها أبيض فى دائرة ترمز إلى أمنية المدير أن بتواءم جسم الأطفال وعقولهم فى النماء .



وقد ضمن السيد المدير من الإيقاع برامج الدراسة فى مدرسته لأن هذا يؤدى إلى نتيجة حسنة ويساعد شخصية الأطفال أن تنمو طبيعيا من غير أن يتأثروا بتدخل طبيعة المراهقة التى تفسد الشباب .

لقد كان المدير ناقما على طريقة التعليم المعاصر التى تؤكد فقط على الكلمة المكتوبة التى تجنح إلى ضمور الإدراك الحسى الشهوانى للطبيعة والتفتح الوجدانى للصوت الذى لايزال صغيرا وهو الوحى الإلهى . هذا هو شعر باشو الذى كتبه :

ـ استمع هذه ضفدعة .
تقفز فى الصمت .
من بركة قديمة .

ومع ذلك فإن مشهد الضفدعة التى تقفز فى البركة لابد وأن يكون قد شاهده كثير من الناس غير باشو على مر العصور ، وفى كل العالم ليس وات ونيوتن فقط هما اللذان رأيا البخار يخرج من الإبريق عند غليان الماء والتفاح يسقط من الشجرة

لهم عيون ولكن لاترى الجمال ، ولهم آذان ولكن لاتسمع الموسيقى ، لهم عقول ولكن لاتدرك الحقيقة ، ولهم قلوب ولكن لاتتحرك وحينئذ تحترق أبدا . هذه هى الأشياء التى يخاف منها .

هذا قول السيد المدير .

مثل توتوتشن لقد قفزت ثم جرت هنا وهناك عارية القدمين ، تشبه أسادورادنكن ، كانت سعيدة جدا ، ولا تعتقد أن هذا كان جزءا من الذهاب إلى المدرسة إلا بصعوبة .



طلب واحد فى حياتى :

إنها كانت أول مرة فى حياة توتوتشن لتذهب إلى السوق السنوى الذى يقام فى معبد (بنتين) . فى وسط بركة سنزوكو قريبا من مدرستها السابقة كان يوجد جزيرة صغيرة بها معبد موقوف على (بنتين) إلاهة الجمال والموسيقى . فى ليلة هذا السوق السنوى عندما كانت تسير توتوتشن مع والديها فى شارع خافت الضوء توهج الليل فجأة بأنوار شديدة بمجرد وصولهم إلى السوق . إنها كانت أضواء السوق فانبهرت بهذا الضوء وبدأت تدخل رأسها فى كل كشك واحدا تلو الآخر وكانت هناك أصوات غريبة فى كل مكان : صرير ، صوت طهى طعام ، فرقعات وكل أنواع الروائح العطرية المغرية . لقد كان كل شىء جديدا وغريبا . وكان هناك أشياء مثل غليون التدخين تخرج منه رائحة النعناع عند شمه وكانت مزينة بصور كلب أو قط أو (بتى بوب) وبعض الحلوى مثل الكاندى وغزل البنات ومسدسات مصنوعة من الغاب تطلق صوتا عندما تدخل فيها شيئا معينا من جذوع النباتات .

وعلى جانب الطريق كان يوجد رجل يدخل السيف فى فمه ، ويأكل آخر قطع الزجاج أو رجل يبيع نوعا من المساحيق إذا دعك به حافة الطبق فإنه يحدث صوتا . وكان هناك حلقات ذهبية تخفى النقود إذا وضعت عليها وصور تزداد عندما تعرضها لضوء الشمس وأوراق أزهار تتفتح إذا وضعت فى كوب

به ماء . وكانت توتوتشن على طول الطريق تنظر هنا وهناك وفجأة توقفت وصرخت عندما رأت صندوقا مملوء بكتاكيت صفراء صغيرة كلها تصيح . وقالت :

ـ أريدها !

جذبت توتوتشن يدى أمها وأبيها .

ـ من فضلك ، اشتريها لى !

التفتت الكتاكيت إلى توتوتشن وهزت ذيولها ورفعت مناقيرها أعلى وشقشقت بصوت عال : فقالت توتوتشن :

ـ أليست لطيفة ؟ !

لقد فكرت توتوتشن أنها لم يسبق لها رؤية شىء أعجبها فى حياتها مثل هذا ثم جلست القرفصاء بجانب الكتاكيت : ثم رفعت نظرها إلى والديها راجية :

ـ من فضلكما . ولشد ما كانت دهشتها عندما حاولا أن يجراها بعيدا فقالت لهما :

ـ ولكنكما قلتما لى إنكما ستشتريان شيئا لى وهذا هو الشىء الذى أريده فقط . فقالت والدتها :

ـ لا ياعزيزتى ، هذه الكتاكيت المسكينة ستموت حالا .

فقالت توتوتشن :

ـ لماذا ؟

ثم بدأت تبكى . فأخذها والدها جانبا حتى لايسمع البائع ثم شرح لها :

ـ إنها ظريفة الآن ياتوتوسكى ولكنها ضعيفة بدرجة فظيعة وسوف لا تعيش طويلا . وأنت سوف تبكين فقط عندما تموت . هذا هو السبب الذى يمنعنا من شراء واحد لك .

ولكن توتوتشن صممت على الحصول على واحد ، ولم تسمع ما قال أبوها وقالت :

ـ سوف لا أتركه يموت ، أنا سوف أرعاه وأحافظ عليه .

ولكن ظل والدها يجرانها بعيدا من الصندوق وهى تنظر بشوق شديد إلى الكتاكيت والكتاكيت تنظر إليها باشتياق مشقشقة بصوت أعلى . ولكن توتوتشن قد قررت فى عقلها أن الشىء الوحيد الذى تريده هو واحد من الكتاكيت فأخذت تتوسل إلى والديها :

ـ من فضلكما من فضلكما اشتريا لى واحدا . ولكنهما تشددا أيضا فى رفض الطلب وقالا :

ـ لانريد أن نشترى لك واحدا لأنه سيجعلك فقط تبكين فى النهاية ولكن توتوتشن انفجرت باكية وبدأت تسير نحو المنزل ودموعها تسيل على خدودها وفى أثناء سيرهم فى طريق مظلم قالت بصوت متشنج :

ـ إننى لم أطلب فى حياتى شيئا كثيرا وسوف لا أسألكم شراء شىء لى مرة أخرى فمن فضلكما اشتريا لى واحدا من هذه الكتاكيت .

وأخيرا رضخ الوالدان لطلبها . إنه كان شبيها بسطوع الشمس بعد المطر فلقد أخذت توتوتشن تبتسم على طول الطريق إلى المنزل حاملة صندوقا صغيرا يحتوى كتكوتين فى راحتيها . وفى اليوم التالى طلبت أمها من النجار أن يصنع صندوقا

خاصا من شرايح الخشب مزودا بلمبة كهربية لتحافظ على دفء الكتكوتين . وظلت توتوتشن تراقبهما بعناية طول اليوم وقد كان الكتكوتان الأصفران قليلا ظريفين . ولكن ـ لشدة الأسف ـ فى اليوم الرابع توقف أحدهما عن الحركة وفى اليوم الخامس توقف الآخر عن الحركة أيضا فحاولت تحريكهما ونادت عليهما ولكنهما لم يعطيا شقشقة واحدة فانتظرت ثم انتظرت ولكنهما لم يفتحا أعينهما . لقد كان الأمر كما قال الوالد والأم بكت توتوتشن ثم حفرت حفرة فى الحديقة ثم دفنتهما ووضعت فوقهما زهرة صغيرة جدا .

لقد أصبح الصندوق الذى كان فيه الفرخان يبدو كبيرا ومخيفا وفارغا وعندما رأت فى زاوية من زواياه ريشا أصفر صغيرا تذكرت كيف شقشقت هذه الكتاكيت الصغيرة عندما رأتها فى السوق . ثم كزت على أسنانها وبكت بصوت خافت وحزن شديد . إنها لم تطلب شيئا بالحاح هكذا فى حياتها وهاهو قد ذهب سريعا .

لقد كانت هذه أول تجربة فى حياتها لفقدان شيء ثم مفارقته .

الملابس الرثة :

لقد كان المدير ينبه على أولياء الأمور أن يرسلوا أولادهم إلى المدرسة دائما فى الملابس الرثة ، وقد أراد بذلك ألا يكون هناك أهمية إذا ما أصاب ملابسهم اتساخ أو تمزيق ، ولقد فكر أنه سيكون مخجلا للتلاميذ أن يخافوا أن يلاموا إذا ماتمزقت ملابسهم أو أن يترددوا فى اشتراكهم فى بعض التمرينات الرياضية . ولقد كان هناك بعض المدارس الإبتدائية القريبة من توموى حيث تلبس التلميذات ملابس على الطراز البحرى ويلبس الأولاد بدلا بياقات عالية وبنطلونات قصيرة ولكن تلاميذ مدرسة توموى كانوا يحضرون إلى المدرسة بملابسهم العادية وكان الأساتذة يسمحون لهم أن يلعبوا بما يريح قلوبهم من غير أن يهتموا بأمر ملابسهم . لم تكن البنطلونات فى تلك الأيام مصنوعة من قماش متين مثل الجينز فى هذه الأيام ولهذا كانت بنطلونات الأولاد تحتوى رقعا وكانت ملابس البنات عبارة عن جونلات أو ملابس صنعت من أقوى الأقمشة الموجودة .

لقد كان أحب تسلية لتوتوتشن أن تزحف تحت أسوار حدائق الناس فى وقت الفراغ الطويل ولهذا فقد ألبستها أمها ملابس جيدة ولم تفكر فى أمر ملابسها . لقد كان هناك فى تلك الأيام أسوار من أسلاك شائكة وبعض هذه الأسوار أسلاك إلى مستوى الأرض ولأجل أن تزحف تحت واحد من هذه

فإنه يجب عليك أن تحفر حفرة مثل الكلب . لم تكن تهتم توتوتشن وكانت تتمكن من امساك ملابسها على الأسلاك الشائكة ثم تمزقها . وفى مرة من المرات وكانت تلبس ملابس من قماش قطنى رفيق رث قديم ، مزقت كل ثيابها من أعلى إلى أسفل ومع أنها كانت قديمة فإن أمها كانت تحبها حبا جما ولذلك فان توتوتشن فكرت ـ لئلا تغضب أمها ـ أن تخلق سببا . انها لا تجرؤ أن تخبر والدتها أنها زحفت تحت سلك شائك ، وعلى ذلك فكرت فى كذبة تكون مخرجا من هذا المأزق ويمكن أن تصدق أنها لم تكن تستطيع أن تتجنب تمزيق ملابسها .

وأخيرا استقرت فى ذهنها هذه القصة الكاذبة :

ـ بينما كنت أسير فى الطريق للعودة إلى المنزل إذ بكثير من أطفال لا أعرفهم ألقوا بسكاكينهم إلى ظهرى . هذا هو السبب فى تمزيق ملابسى هكذا. ولكنها فى أثناء حديثها كانت تخشى أن تسألها أمها أسئلة أخرى لاتستطيع الإجابة عليها . ولكن لمحاسن الصدف لم تقل أمها سوى :

ـ إنه شىء مرعب .

تنفست الصعداء توتوتشن . لقد تحققت الأم بوضوح أنه تحت هذه الظروف لاتستطيع توتوتشن أن تمنع تمزيق الملابس المحببة لأمها . طبعا ، لم تصدق الأم قصة توتوتشن عن السكاكين فلو أن هذه السكاكين قذفت إلى ظهرها فلا شك أن تجرحها كما مزقت ملابسها ولكن لم يظهر على توتوتشن أى خوف من هذا الحادث ولذلك فإن الأم فكرت أن هذا هو من صنع ابنتها .

على أى الحالات ، إنه لم يكن من المعتاد لتوتوتشن أن تذهب إلى هذا المدى لتخلق عذرا . ولكن تحققت أن توتوتشن قد أحست إحساسا سيئا لتمزيق

الملبس وهذا قد أرضاها ، ولكن كان هناك شيء أرادت الأم أن تعرفه أحيانا وقد بدت هذه كأحسن فرصة لتكشفه فقالت لها :

ـ أستطيع أن أفهم كيف مزقت ملابسك بوساطة السكاكين وأشياء مثل ذلك ولكن كيف تمكنت من تمزيق سراويلك أيضا يوما بعد يوم ؟!

لم تستطع الأم أن تفهم كيف أن سراويل توتوتشن المزركشة بأشرطة منتظمة تكون ممزقة كل يوم فى مؤخرتها .

إنها تستطيع أن تفهم كيف تلطخ سراويلها بالطين أو تمزق تمزيقا رفيعا بوساطة نزولها من المنحدرات أو سقوطها على إليتيها ولكن كيف تأتى ممزقة إلى نسالات .

فكرت توتوتشن لحظة ثم قالت :

ـ ترين ، عندما تختفين تحت سور فإنك لاتستطيعين أن تمنعى إمساك جونلتك عندما تدخلين ، وسراويلك عندما تعودين ويجب أن تقدمى اعتذارا : هل أستطيع أن أدخل ؟!

ثم الوداع من نهاية سور إلى آخر ، ولهذا فإن سراويلك والاشياء الأخرى لابد من تمزيقها . ومع أن الأم لم تفهم حقيقة ولكنها قالت متسائلة :

ـ أهذه فزورة ؟!

ـ هل هى فزورة ؟

فقالت توتوتشن مندهشة من سؤال أمها :

ـ لماذا لاتحاولى ذلك ؟ إنها شيء مضحك وستمزقين سراويلك أيضا .

اللعبة التى أحبتها توتوتشن حبا شديدا ووجدتها مثيرة شرحتها لأمها مثل هذا :

ـ أولا : أن تجدى أرضا واسعة خالية محاطة بسور من السلك الشائك ، ثم الاستئذان بالدخول بقول : هل تسمح لى بالدخول ؟ ثم رفع طرف السلك ثم حفر حفرة ثم الزحف تحت السلك للدخول ومن الداخل يرفع السلك الشائك المجاور ثم حفر حفرة أخرى ثم الخروج مع الوداع بقول « أراكم بخير » وهكذا الاستمرار فى الدخول والخروج .

أصبح ظاهرا للأم كيف تتمزق سراويل وجونلات توتوتشن بتعلقها فى السلك الشائك وتكرار الدخول والخروج ، وبين الاستئذان لقول « هل تسمح لى بالدخول ؟ » والوداع « أراكم بخير » فإن توتوتشن بسرور قد صنعت خطا متعرجا زاحفة تحت الأسلاك الشائكة فلا عجب أن تمزق جونلاتها وسراويلها .

مثل هذه الرياضة التى تتعب الكبار ولاتسرهم مطلقا تكون سارة ومسلية للأطفال . ولقد أحست الأم بالغيرة عندما تصورت مراقبة توتوتشن فى شعرها وأظفارها وآذانها القذرة فى أثناء هذه الرياضة ، ولم تستطع أن تخفى إعجابها بالمدير الذى يفهم الأطفال فهما حقيقيا والذى اقترح أن يلبس الأطفال الملابس التى لايهتمون بها إذا اتسخت أو تمزقت وكان هذا مثلا آخر على فهمه طبيعة الأطفال جيدا .

تاكاهاشى :

فى الصباح بينما كان الأطفال يجرون فى فناء المدرسة قال السيد المدير :

ـ هنا صديق جديد لكم واسمه الأخير «تاكاهاشى» وسيكون تلميذا فى الصف الأول فى القطار . فنظرت توتوتشن وبقية الأطفال إلى تاكاهاشى فخلع قبعته وانحنى محييا خجلا :

ـ إننى سعيد برؤيتكم .

وعلى الرغم من أن توتوتشن وزملاءها كانوا لايزالون صغارا لأنهم فى الصف الأول فإن تاكاهاشى كان أصغر منهم ـ مع أنه ولد ـ وكانت ذراعاه قصيرتين ورجلاه كذلك . وكانت يده التى أمسك بها قبعته صغيرة أيضا . ولكن كتفاه عريضتان . وقد وقف وعليه سيماء اليأس فقالت توتوتشن لميوتشن وساكوتشن :

ـ دعونا نتكلم معه .

فذهبن إليه ، فلما اقترين منه ابتسم لهن بلطف وابتسمن له بدورهن . لقد كانت عيناه كبيرتين وبدا كأنه أراد أن يقول شيئا .

فقالت له توتوتشن :

ـ ألا تريد أن تشاهد فصل الدراسة فى القطار ؟ !

فأجاب تاكاهاشي وقد وضع قبعته على مؤخر رأسه :

ـ نعم .

فأسرعت توتوتشن لتريه فصل الدراسة ثم قفزت إلى القطار ونادته من الباب :

ـ تعال بسرعة .

ولقد بدا أنه يمشي بسرعة ولكن لايزال بعيدا لأن خطواته قصيرة ثم قال وهو يحاول الجرى :

ـ أنا آسف . أنا آت إليك .

تحققت توتوتشن أنه بينما لايجر تاكاهاشي رجله مثل ياسواكى تشن المريض بشلل الأطفال فإنه يأخذ نفس الوقت الذى يأخذه ياسواكى تش للوصول إلى القطار . فانتظرته بهدوء من غير أن تطلب منه السرعة مادام يبذل جهدا فى الوصول إلى القطار . لقد كانت رجلاه قصيرتين وكان معوج الساقين ، ويعلم المدرسون والناس الكبار أن نموه قد توقف . ولما رأى توتوتشن تنتظره حاول أن يجرى بسرعة أكثر مطوحا ذراعيه ، وعندما وصل إلى الباب قال :

ـ أنت تجرين بسرعة . أنا من أوساكا .

فقالت بصوت عال مضطربة :

ـ أوساكا ؟! !

لقد كانت أوساكا مدينة الأحلام التى لم يسبق لها رؤيتها .

وكان الأخ الأصغر لأمها ـ خالها ـ الذى يدرس فى الجامعة معتادا عندما

يحضر إلى المنزل أن يأخذ رأسها بين يديه ويرفعها على قدر مايستطيع ويقول :

ـ سأريك أوساكا ، هل تستطيعين أن تشاهديها ؟!

أنها الطريقه التى يداعب بها الكبار الأطفال الصغار فكان قوله مجرد مداعبة ولكنها صدقته وفى أثناء ذلك مط جلد وجهها بطريقة مرعبة وشد عينيها وآلم أذنيها وهى تنظر بجنون إلى مسافات محاولة رؤية أوساكا ، ولكنها لم تستطع ولكنها تعتقد على أى الحالات أنها فى يوم من الأيام ستكون قادرة على رؤيتها ، ولهذا فكلما جاء خالها سألته :

ـ أرنى أوساكا .

وهكذا أصبحت أوساكا مدينة الأحلام ، وقد أتى منها تاكاهاشى . فقالت له :

ـ أخبرنى عن أوساكا .

فقال مبتسما سعيدا :

ـ عن أوساكا ؟!

وكان صوته واضحا وناضجا كصوت الكبار : وحينئذ دق ناقوس الحصة الأولى فقالت توتوتشن :

ـ ياخسارة .

ذهب تاكاهاشى فى سرور وابتهاج مطوحا جسمه الصغير الذى لايكاد يرى من حقيبته وجلس فى الصف الأول ، وجلست توتوتشن سريعا بجانبه ، وكانت مسرورة حيث كان فى استطاعتها الجلوس فى أى مكان تحب . فلم ترد أن تتركه وهكذا صار تاكاهاشى واحدا من أصدقائها .

انظرى قبل أن تقفزى :

فى طريق عودة توتوتشن من المدرسة وقد أصبحت قريبة من البيت اكتشفت شيئا مغريا بجانب الطريق . إنه كان كومة كبيرة من الرمل . كيف يوجد على غير العادة هناك رمل والمكان بعيد عن البحر ؟ هل كانت تحلم ؟ لقد كانت مسرورة . بعد استعداد القفزة جرت بسرعة نحو كومة الرمل وقفزت فوق قمتها ولكنها لم تكن رملا وانما كانت كومة فى داخلها جبس رمادى معدّ للبياض وهو مخلوط بالماء فكان لينا فغرقت فيه ووجدت نفسها مغطاة بالمخلوط حتى صدرها كالتمثال بحقيبة ظهرها وحقيبة حذائها ، وكلما حاولت الخروج كلما غطست فى المعجون ، وكان لابد أن تأخذ حذرها حتى لاتفقد حذاءها فظلت واقفة وبيدها كيس نعليها ، وكلما مرت عليها بعض الأمهات اللاتى لاتعرفهن نادت عليهن :

– من فضلك ،

بصوت منخفض .

إلا أنهن جميعا اعتقدن أنها تلعب ثم ابتسمن وسرن فى طريقهن فظلت على هذا الوضع حتى أدركها المساء ولم تعد ، فخرجت أمها لتبحث عنها ، ولشد ما كانت دهشتها عندما رأت رأس توتوتشن خارجا عن الكومة وجسمها فى الداخل ورأت أنها لو مدت لها يدها لتخرجها فربما تدخل رجلها أيضا

ويصعب خروجها فبحثت عن عصا ثم مدتها لتوتوتشن فأمسكت بطرفها وشدتها الأم بالطرف الآخر . لقد كانت توتوتشن مغطاة بالمعجون الرمادى مثل الحائط . قالت لها الأم :

ـ لقد أخبرتك مرة قبل ذلك إذا وجدت شيئا يبدو جذابا لاتقفزى عليه مباشرة . لابد أن تنظرى قبل أن تقفزى .

ذكرت الأم تلك المرة مشيرة إلى ما حصل فى خلال ساعة الغداء فى المدرسة لقد كانت توتوتشن تتجول على الطريق خلف صالة الاجتماعات فرأت ورقة جريدة فى وسط الطريق ، فظنت أنه سيكون عملا سارا إذا استطاعت أن تقفز على الورقة فرجعت إلى الوراء واستعدت للجرى ثم جرت بسرعة وقفزت على الورقة .

ولكنها لم تكن سوى غطاء مؤقت للبالوعة التى أسقطت توتوتشن فيها حافظتها من قبل ، وضعها فراش المدرسة كغطاء مؤقت للبالوعة التى فقد غطاؤها وحتى لاتنبعث رائحتها الكريهة فسقطت توتوتشن فى البالوعة ، ولكن لحسن حظها فقد استطاعوا أن يجعلوا من توتوتشن ابنة نظيفة مرة أخرى . هذا كان الوقت الذى تحدثت عنه أم توتوتشن . فقالت توتوتشن بهدوء :

ـ لا ـ سوف لا أقفز على شىء مرة أخرى

فارتاحت الأم لذلك ولكن ما قالته توتوتشن ثانيا جعل الأم تظن أن ارتياحها كان شيئا مبتسرا سابقا لأوانه .

ـ أنا سوف لا أقفز على ورق الجرائد ولا كومات الرمل مرة أخرى .

لقد كانت الأم متأكدة أن توتوتشن ستأخذ الأمر بسهولة ثم تقفز على بعض الأشياء الأخرى مرة أخرى .

كان طول النهار آنذاك آخذا فى القصر وصارت الدنيا ظلاما عندما وصلتا إلى المنزل .

وبعد ذلك :

لقد كان وقت تناول طعام الغداء فى تومئ وقت لهو ولذلك كان الأطفال يحبونه . ولكن أضيف إليه شىء جديد مهم .

لايزال المدير يقوم بالتفتيش على صناديق الطعام (البنتو) لخمسين طفلا ليرى هل تحتوى شيئا من البحر وشيئا من البر ، وتحمل زوجته كسرولتين فى واحدة منها شىء من البحر وفى الأخرى شىء من البر لتكمل النقص إذا وجد فى صندوق أحدهم . وبعد ذلك يغنى الأطفال « أمضغ أمضغ . أمضغ جيدا ، كل شىء تأكله » ثم يتبعون ذلك بـ « أنا اشترك فى الطعام شاكرا » ولكن من الآن بعد ذلك سيعطى بعض واحد حديثا قصيرا .

لقد قال المدير ذات يوم :

ـ أظن أننا جميعا يجب أن نتعلم كيف نتكلم . فماذا تظنون ؟

بعد ذلك ، بينما نحن نأكل طعام الغداء دعونا نشاهد واحدا مختلفا كل يوم يقف فى وسط الدائرة ويخبرنا عن بعض الأشياء .

ما رأيكم فى هذا ؟!

بعض الأطفال فكروا أنهم لا يحسنون الكلام ولكن سيكون شيئا سارا أن

يستمعوا إلى الآخرين . وفكر البعض الآخر أنه سيكون من نافلة القول أن يخبروا الناس عن شيء هم يعرفونه .

لم تكن توتوتشن تدرى ماذا ستقول ولكنها كانت ترغب فى محاولة ذلك . وكثير من الأطفال أحبوا هذه الفكرة ولهذا قرروا أن يتكلموا فى اليوم التالى . والأطفال اليابانيون تعلموا فى البيت أنهم لايتكلمون فى أثناء الطعام ولكن نتيجة لتجربة المدير فى الخارج فإنه اعتاد أن يشجع تلامذته أن يأخذوا وقتا طويلا على الأكل ويتمتعوا بالحديث .

وبجانب ذلك فكر أنه من الضرورى أن يتعلم التلاميذ كيف يقفون أمام الجماهير ويعبرون عن آرائهم بوضوح وبحرية تامة من غير خجل ، ولهذا قرر أن هذا هو الوقت المناسب لوضع هذه النظرية موضع التنفيذ . وبعد أن وافق التلاميذ على هذه الفكرة قال لهم ـ وكانت توتوتشن تسمع كلامه بانتباه :

ـ لستم فى حاجة أن تكونوا متحدثين ممتازين ويستطيع كل واحد منكم أن يتكلم فى أى شيء يحبه تستطيعون أن تتكلموا عن الأشياء التى تحبون أن تعملوها . أى شيء بأى كلام .

دعونا نحاول .

لقد حدد دور كل متكلم كما حدد أيضا أن الشخص الذى سيتكلم هذا اليوم سيتناول طعام الغداء سريعا ويتوجه مباشرة بعد انتهاء الأغنية . ولكن التلاميذ اكتشفوا أن الحديث إلى المجموعة لايشبه الحديث إلى اثنين أو ثلاثة من الأصدقاء فى أثناء ساعة الغداء . فإن الوقوف فى وسط صالة المدرسة يحتاج إلى كثير من الشجاعة وهو من الأمور الصعبة . بعض التلاميذ كان خجلا أولا لدرجة أنهم ابتسموا بفتور فقط وبعضهم اجتهد فى إعداد الحديث اجتهاد

كبيرا ولكنه نسى كل شىء عندما وقف ولم يزد على أن كرر مرات عدة اسم الموضوع « لماذا تقفز الضفادع بجانب الطرق؟ ثم بدأ راجعا وهو يقول : عندما تمطر ...» ولكنه لم يقل أكثر من ذلك وأخيرا قال :

« هذا كل ماعندى » ثم احنى رأسه وذهب راجعا إلى مكانه . لم يأت دور توتوتشن بعد ولكنها قررت أنها ستحدثهم عن أحب القصص إليها « الأمير والأميرة » كل واحد يعرف هذه القصة فقد قصتها عليهم كثيرا فى أثناء الطعام حتى إنها عندما تريد أن تقصها يقولون « لقد تعبنا من هذه القصة » ولكن كلها نفس الحكاية لقد قررت أنها ستكون القصة التى ستخبرهم بها وهكذا تعود التلاميذ هذه العادة أن يتحدث واحد تلو الآخر أمامهم كل يوم . وهناك طفل رفض الكلام عندما جاء دوره وأعلن قائلا :

ـ ليس عندى شىء أقوله .



فتعجبت توتوتشن أن يكون هناك شخص ليس لديه مايقوله ولكنه قال هكذا . فذهب المدير إلى مكتب الطفل وكان عليه صندوق الطعام فارغا . فقال له :

ـ ولهذا ليس لديك شيء تقوله .

ـ لاشيء .

لم يحاول التلميذ أن يكون شجاعا أو شيئا مثل ذلك

فضحك المدير حتى مالت رأسه إلى وراء غير مكترث بما بين أسنانه .

من فراغات وقال :

ـ دعنا نحاول لنجد شيئا نقوله .

بدأ التلميذ وكأنه مذعور وقال :

ـ نبحث ؟ !

أخذ المدير الولد ليقف فى مركز الدائرة وجلس هو على كرسيه وقال :

ـ حاول أن تتذكر ، ماذا فعلت هذا الصباح بعد أن استيقظت وقبل أن تحضر إلى المدرسة ، ماذا فعلت أولا ؟

قال التلميذ :

ـ حسنا ... ...

وهو يهرش فى رأسه كمن يتذكر . فقال المدير :

ـ إنك قلت : حسنا . هناك شيء يمكن أن تقوله ، ماذا فعلت بعد ذلك ؟

ـ حسنا ... ... وهرش رأسه أكثر ، بينما كانت توتوتش والتلاميذ الآخرون متعجبين ومستمعين بانتباه .

واستمر الطفل . وقال :

ـ ثم .. أوه ..

وهرش رأسه مرة ثالثة

وجلس المدير مراقبا له بصبر وابتسام ويداه متشابكتان على المكتب ثم قال :

ـ هذا ممتاز ، وممكن ، أنت استيقظت هذا الصباح ، أنت استطعت أن تجعل كل واحد يفهم ذلك . لاداعى لأن تسلى الناس أو تجعلهم يضحكون حتى تكون متحدثا جيدا .

إن أهم شيء أنك قلت ليس عندك أى شيء تتحدث عنه ثم وجدت شيئا تحدثت فيه . ولكن الطفل لم يجلس وقال فى صوت مرتفع جدا :

ـ وحينئذ ... أوه

فانحنى التلاميذ جميعا إلى الأمام . ثم تنفس الطفل نفسا عميقا ثم استمر :

ـ وحينئذ .... أوه أمى .. أوه ...

قالت :

ـ فرش أسنانك ... أوه ولهذا فرشت أسنانى .



فصفق المدير وصفق كل التلاميذ أيضا ثم صاح بصوت أعلى من ذى قبل ثم استمر مرة أخرى .

ـ وحينئذ ... أوه .

فتوقف الجميع عن التصفيق واستمعوا إليه بأنفاس لاهثة منحنين إلى الأمام أكثر من ذى قبل . وأخيرا قال الولد مزهوا بالنصر :

ـ وحينئذ ..... أوه حضرت إلى المدرسة .

واحد من التلاميذ الكبار انحنى إلى الأمام لدرجة أنه فقد توازنه ثم ضرب وجهه فى صندوق الطعام (البنتو) ، ولكن كان كل واحد مسرورا بدرجة عظيمة لأن التلميذ قد وجد بعض الأشياء ليتحدث عنها .

صفق المدير بشدة وكذلك توتوتشن والآخرون أيضا حتى (وحينئذ ....

أوه ...) الذى كان لايزال واقفا فى وسطهم صفق مثلهم . فكانت صالة الاجتماعات مليئة بصوت التصفيق .

وحتى عندما يكبر هذا التلميذ فمن المحتمل أنه سوف لاينسى أبدا صوت هذا التصفيق .

كنا نلعب فقط :

لقد حدث اليوم لتوتوتشن حدث رهيب . وكان ذلك بعد رجوعها إلى البيت من المدرسة عندما كانت تلعب مع روكى لعبة (الذئب) فى حجرتها قبل العشاء .

لقد بدأ بلعبة يتدحرج كل واحد منهما إلى الآخر من جانب مقابل للجانب الآخر من الحجرة وتنتهى بعراك شديد عندما يصطدم كل بالآخر. لقد لعبا هذه اللعبة مرات عديدة ثم قررا أن يحاولا شيئا صعبا قليلا مع أن توتوتشن ـ طبعا ـ هى التى أشارت بذلك . فكرة هذه اللعبة الأخرى : عندما يتقابلان فى وسط الحجرة بعد التدحرج نحو بعضهما فالذى يستطيع أن يقلد وجه الذئب المفترس إلى الآخر هو الذى يكسب الجولة . الكلب روكى كان راعى غنم ألمانى ولهذا لم يكن من الصعب عليه أن يشبه الذئب . كل ما عليه أن ينصب أذنيه ويفتح فمه ويظهر كل أسنانه ويستطيع أن يجعل عينيه أيضا كعيون الوحش فيكون منظره مخيفا ، ولكن هذا كان صعبا على توتوتشن . إنها تستطيع أن ترفع يديها على جانبى رأسها لتشبه الأذنين وتفتح عينيها على قدر ما تستطيع لتكون واسعة وتعمل صوتا مزمجرا وتتظاهر بأنها ستعض روكى .

لعب روكى أولا مع توتوتشن كأنه كلب صغير فكان جيدا جدا ولكن بعد لحظة نسى أنها لعبة وفجأة عض توتوتشن عضة شديدة . ومع أن روكى

لايزال صغيرا فقد كان حجمه ضعف حجم توتوتشن علاوة على أسنانه المدببة الحادة . ولهذا قبل أن يتحقق مما حدث كانت أذنها اليمنى قد استرخت من رأسها ونزف الدم منها بشدة فلما سمعت أمها صراخها جاءت مهرولة من المطبخ فوجدتها فى ركن من الغرفة مع روكى وقد أمسكت أذنها اليمنى بكلتى يديها وكانت ملابسها ملطخة بالدم وحضر والدها مهزولا وكان يجرى بعض التمرينات على الكمان فى حجرة الجلوس أما روكى فقد تحقق أنه عمل شيئا مرعبا فتعلق ذيله بين رجليه خوفا وأخذ ينظر إلى توتوتشن بعطف وحنان .

الشىء الوحيد الذى فكرت فيه توتوتشن هو أنه إذا غضب والداها على روكى طرداه من المنزل أو أعطياه لشخص ما وهذا هو الشىء المحزن والمروع كما أن لها دخلا فى وقع هذا الحادث . ولهذا فإنها جلست القرفصاء بجانب روكى ممسكة بأذنها اليمنى صائحة مرددة :

ـ لاتغضبا على روكى ! لاتغضبا على روكى .

لقد كان والداها يريدان أن يعرفا ما حصل لأذنها وحاولا أن يبعدا يديها عن أذنها ، فلم تترك أذنها وصاحت :

ـ إنها لا تؤلمنى ، لا تغضبا على روكى ، لا تغضبا .

حقيقة لم تكن توتوتشن تحس بالألم من ذاك الوقت ، وكل الذى كانت تفكر فيه هو روكى .

استمر الدم ينزف من أذن توتوتشن وقد تحقق الوالدان أن روكى قد عضها ولكنهما أكدا لها أنهما سوف لايغضبان على روكى وأخيرا أزاحت توتوتشن يديها عن أذنها .

عندما رأت الأم أذن توتوتشن متدلية صرخت وحملها أبوها إلى دكتور بمصاحبة أمها التى أرشدت إلى الطريق وكانت تعرفه ، ولأنها عولجت بسرعة استطاع الدكتور أن يربط أذنها كما كانت قبل ذلك فارتاح الوالدان لعمل الدكتور ، وكان الشىء الوحيد الذى تهتم به توتوتشن هو : هل الوالدان سيحافظان على الوعد بألا يغضبا من روكى ؟

وعادت توتوتشن إلى المنزل وقد ربطت من أعلى رأسها إلى ذقنها مثل الأرنب الأبيض . وبالرغم من الوعد بألا يغضبا من روكى فإن الوالد شعر بميل شديد إلى عزل روكى ببعض الطرق ولكن الأم نظرت إليه نظرة كأنها تقول له :

– من فضلك حافظ على وعدك .

فأطاع هذا الرجاء مع التردد .

أسرعت توتوتشن وهرولت إلى المنزل مشتاقة لتخبر روكى فى أقرب وقت ممكن أن كل شىء على مايرام وأنه لا أحد غاضب بعد ذلك .

ولكنها لم تجد روكى فى أى مكان . ولأول مرة صرخت توتوتشن إنها لم تصرخ فى عيادة الدكتور لأنها كانت خائفة إذا هى صرخت فإن ذلك سيزيد غضب الوالدين على روكى . ولكن الأن ليس هناك مايوقف دموعها ، وكانت وهى تصرخ تنادى :

– روكى .. روكى .. أين أنت ؟

بعد ندائها مرات عديدة رفعت وجهها الذى لطخته الدموع فى ابتسامة عندما بدأ ظهر رمادى مألوف ببطء من وراء الأريكة . وعندما ذهب إلى

توتوتشن لعق الأذن السليمة التى كانت طاهرة من الرباط . فوضعت توتوتشن ذراعيها حول عنق روكى وشمت داخل أذنيه . لقد كان أبواها يقولان أن أذنيه دائما لهما رائحة كريهة إلا أنها بالنسبة لها رائحة مألوفة .

روكى وتوتوتشن كانا متعبين ومياليين إلى النوم لقد كانت نهاية الصيف والقمر ينظر من السماء إلى الحديقة وإلى البنت الصغيرة معصوبة الرأس وإلى الكلب الذى لايريد مطلقا أن يلعب لعبة (الذئب) مرة أخرى. وحتى مع ذلك لقد أصبح الأثنان الآن أشد صداقة مما كانا عليه من قبل .

يوم الرياضة :

لقد كان يعقد يوم الرياضة فى توموى فى اليوم الثالث من نوفمبر من كل عام كما قرر السيد المدير بعد بحث طويل اكتشف منه أن اليوم الثالث من نوفمبر كان هو يوم فصل الخريف الذى فيه تمطر السماء مطرا قليلا . ربما كان هذا طبقا لمهارته فى جمع بيانات الجو ، أو ربما لأن الشمس والسحب قد استجابت لأمنيته فى عدم نزول المطر حتى لايشوّه يوم الرياضة وكذلك توقع التلاميذ الذين زينوا أفنية المدرسة فى اليوم السابق وعملوا كل أنواع الاستعدادات . على أى الحالات كان هذا . لقد كان تقريبا خارقا للطبيعة أن المطر لم ينزل فى ذلك اليوم مما أحدث نوعا من الغرابة عند الجميع .

وكما أن كل أنواع الأشياء كانت تجرى فى توموى بطريقة مختلفة عنها فى أى مكان فكذلك كان يوم الرياضة فيها عديم النظير. وكانت الأشياء التى نتفق فيها مع المدارس الابتدائية الأخرى هى لعبة شد الحبل وسباق الثلاثة أرجل ، وكل الباقى قد اخترع بوساطة المدير لايحتاجون إلى أدوات خاصة أو متقنه فقد استخدموا أشياء المدرسة المألوفة كل يوم .

فمثلا كان هناك سباق الشبوط (نوع من السمك) : يعنى (يصنع كيس كبير من القماش على شكل سمكة الشبوط ويطلى بشكل السمكة) وهو كالبيارق التى تنشرها الناس على خشب فى أعياد الأطفال ـ ويبدأ السباق

بالجرى قليلا من نقطة الانطلاق بعد سماع إشارة البدء . ثم يدخل الأطفال فى الشبابيط المقامة فى وسط الفناء ــ من فتحة الفم إلى نهاية الذيل ثم يعودون إلى نقطة الابتداء وفى هذه المسابقة يوجد ثلاثة ألوان من الشبابيط أثنان باللون الأزرق والثالث باللون الأحمر . وعند البدء يخرج الثلاثة فى وقت واحد . وهذه اللعبة وإن كانت تبدو سهلة إلا أنها فى الحقيقة صعبة إذ يدخل الطفل فى الشبوط وهو مظلم فى الداخل ثم إن الشبوط طويل فمن السهل أن يفقد الطفل الاتجاه الذى يوصله إلى الوسط مرة أخرى .

فتوتوتشن مثلا أخرجت رأسها من فم الشبوط ثم ادخلتها مرة أخرى بسرعة وتكرر هذا مرات . وهذا العمل كان يسر المشاهدين من الأطفال ثم تأتى لعبة البحث عن الأم بعد ذلك .

وتبدأ اللعبة بالانطلاق جريا عند سماع إشارة البدء نحو سلم من الخشب مرتكز على جانبه ثم يزحفون فى خلاله بين درجاته ثم يأخذون ظرف خطاب من سلة ويفتحون الظرف ويقرءون ما فى الخطاب الداخلى ومعيّن فى هذه الورقة اسم والدة أحد التلاميذ فمثلا يكون مكتوبا اسم والدة سأكوتشن فعلى التلميذ أن يبحث عن هذا الاسم بين المشاهدين ثم يأخذ يدها ثم يذهبان سويا إلى خط الانتهاء وعلى التلميذ أن يسهل حركة نفسه خلال السلم بطريقة رشيقة كالقط حتى لا يعلق ردفه بالسلم . وبجانب ذلك . ربما يعرف أحد الأولاد أم سأكوتشن جيدا ولكن إذا كان المكتوب فى الورقة الآنسة أخت الأستاذ أوكوا أو أم الأستاذ شوى ، أو ابن الأستاذ كونينورى ولايعرف هؤلاء الأشخاص فلابد أن يذهب إلى المشاهدين وينادى بصوت عال :

ــ أخت الأستاذ أوكو ! وهذا يحتاج إلى شجاعة . فالأولاد المحظوظون الذين

وجدوا أمهاتهم سيقفزون هنا وهناك صائحين :

ـ أمى . أمى . تعالى بسرعة .

والمشاهدون أيضا يجب أن يكونوا متيقظين لهذه الحركة فليس عندهم معرفة متى ينادى عليهم وسيكون النداء عليهم فجأة فيجب أن يكونوا مستعدين أن يقفوا من مقاعدهم أو من الحصير الذى يجلسون عليه ثم يعتذرون ثم يأخذون طريقهم سريعا إلى المكان الذى ينتظر فيه الطفل وتأخذ يده ويجريان سويا . ولهذا عندما يأتى طفل أمام الكبار حتى الآباء فإنهم يحبسون أنفاسهم متطلعين إلى من سينادى عليه . لاوقت للكلام ولا للأكل فكأنهم يشتركون مع الأطفال فى اللعبة .

وفى لعبة شد الحبل يشترك المدير والمدرسون مع التلاميذ عندما ينقسمون فريقين ثم يشد كل فريق صائحين بينما الأطفال المعوقون مثل ماسوا كى تشن . الذين لايستطيعون شد الحبل عليهم أن يراقبوا فقط المنديل المربوط فى وسط الحبل ليروا الفائز فى اللعبة مثل حكام المباراة .

واللعبة الأخيرة كانت لعبة سباق التناوب وهى تختلف فى توموى عنها فى المدارس الأخرى يشترك فيها جميع المدرسة .

لايجب أن يجرى أحد بعيدا جدا ، بل كل مايجب عليه أن يجرى أعلى وأسفل فى دوران نصف دائرى ليصعد درجات سلم المدرسة المبنى من الأسمنت والذى يوصل إلى صالة الاجتماعات . لأول وهلة يبدو أن ذلك سهل ، ولكن درجات السلم كانت على غير العادة منخفضة وملتصقة بجانب بعضها ولم يكن مسموحا لواحد أن يصعد أكثر من درجة واحدة ولذلك كان هذا صعبا جدا وخصوصا إذا كان الواحد طويلا وأقدامه كبيره . ومع العلم فأن

هذه الدرجات أصبحت مألوفة للتلاميذ كل يوم يصعدون عليها وقت الغداء ولكنها فى يوم الرياضة كانت شيئا جديدا ومضحكا ، وجرى الأطفال أعلى وأسفل هذه الدرجات صائحين مسرورين .

ويبدو المشهد منظرا جميلا لأى إنسان ينظر من بعيد وعدد درجات السلم ثمانى درجات .

وكان هذا اليوم الرياضى هو الأول من نوعه لتوتوتشن وزملائها وكان الجو لطيفا تماما كما تمنى السيد المدير ، وقد بدا اليوم كأنه عيد لما قام به التلاميذ فى اليوم السابق من تزيين المدرسة بالسلاسل الورقية والنجوم الذهبية وتسجيلات الفنوغراف للمارشات الموسيقية التى توقظ انتباه الناس .

ولقد كانت توتوتشن تلبس سروالا بحريا أزرق وبلوزة بيضاء مع أنها كانت تفضل أن تلبس سراويل خاصة بالألعاب الرياضية لأنها أصبحت طويلة ويمكن أن تلبسها . فى يوم من الأيام بعد المدرسة كان المدير يعطى درسا فى فن الإيقاع لبعض مدرسى رياض الأطفال ، وقد رأت توتوتشن بعض النساء يلبسن هذه الملابس الخاصة بالألعاب الرياضية فأعجبتها والذى جذب توتوتشن لهذه الملابس هو أن النساء عندما ضربن بأقدامهن على الأرض اهتزت أفخاذهن تحت هذه الملابس مثل طريقة الكبار المحبوبة .

جرت توتوتشن إلى المنزل وأخرجت سراويلها ثم لبستها ثم ضربت على الأرض ولكن أفخاذها الرفيعة لم تهتز مطلقا ، وبعد المحاولة مرات عديدة توصلت توتوتشن إلى السبب . إنه كان بسبب ارتداء هؤلاء النسوة هذه الملابس . فسألت أمها عن ذلك فقالت لها :

لأن هذه الملابس ملابس الألعاب الرياضية ، فأخبرت أمها أنها كانت

تريد أن تلبس هذه الملابس فى يوم الرياضة فأخبرتها أنهم لم يجدوا أيا من هذه الملابس فى حجم صغير ، وهذا هو السبب فى أنها ذهبت إلى الحفل بهذه الملابس القصيرة التى لاتنتج هز الأفخاذ للأسف .

لقد حدث شىء عجيب فى يوم الرياضة . لم يكن من المعتقد أبدا أن الطفل تاكاهاشى ذا الذراعين القصيرتين والرجلين الصغيرتين وأصغر التلاميذ فى المدرسة يكون الأول فى كل شىء .

فبينما كان التلاميذ الآخرون لايزالون يتسللون إلى داخل الشبوط كان تاكاهاشى فى داخله فى لحظة ، وعندما كانت رءوس الآخرين فى خلال السلم فقط كان هو فعلا خارجا عنه ومتقدما كثيرا من الباردات إلى الأمام ، وبخصوص الصعود على درجات السلم إلى صالة الاجتماعات ، بينما كان الآخرون يتفاوضون بغلظة على درجة واحدة فى المرة كانت رجلا تاكاهاشى القصيرتين تتحركان مثل مكبس الطلمبة وكان فى أعلاها فى دفعة واحدة ثم أسفلها مرة أخرى مثل الصور المتحركة بسرعة . لقد قالوا جميعا :

ـ لقد حاولنا أن نهزم تاكاهاشى . لقد صمموا أن يهزموه وقاموا بكل مافى وسعهم ولكن تاكاهاشى فاز فى كل مرة . لقد حاولت توتوتشن أيضا ولكنها لم تتمكن أبدا أن تهزمه .

إنهم يستطيعون أن يسبقوه على الطريق جريا ولكنهم خسروا فى الأشياء الصعبة لقد ذهب تاكاهاشى ليجمع جوائزه سعيدا مفتخرا ، ولقد كان الأول فى كل شىء ولهذا فإنه تسلم جائزة بعد جائزة وجميعهم ينظرون إليه حسدا وقال كل واحد :

ـ أنا سأهزم تاكاهاشى فى السنة القادمة .

ولكن تاكاهاشى كان الفائز كل عام وصار نجم الرياضة .

وكانت الجوائز طبق الأصل من جوائز المدير . الأولى فجلة كبيرة ، والثانية جذور أرقطيون (نبات شائك) ، والثالثة حزمة من الاسفاناخ ، ودائما كانت الجوائز أشياء مثل ذلك ، حتى إلى أن كبرت توتوتشن كانت تظن أن كل جوائز المدارس من الخضروات . فى تلك الأيام كان كثير من المدارس يعطى كراسات وأقلام وأساتيك جوائزا للفائزين ولم يكن يعرف أطفال توموى ذلك ولكنهم كانوا غير سعداء بالخضروات . فمثلا كانت توتوتشن حائرة كيف تحمل فى القطار جوائزها من جذور الأرقطيون وبعضا من البصل وكل تلاميذ توموى أعطوا جوائز للمهارات المختلفة ولهذا فى نهاية اليوم الرياضى كان كل الأطفال محتارين كيف يذهبون إلى البيوت بالخضروات ولايتذكر واحد منهم أن أمه أرسلته ليشترى خضروات أبدا وقد أحسوا على ما يبدو أن منظرهم سيكون شاذا وهم يحملون الخضروات إلى المنزل من المدرسة . لقد احتار تلميذ بدين ماذا يفعل بالكرنبة التى فاز بها وقال :

ــ لا أحب أن يرانى الناس حاملا هذه وأظن أنه من الأفضل أن أرميها .

ويظهر أن المدير قد سمع شكاتهم عندما ذهب إليهم بجوائزهم من الجزر والفجل والأشياء الأخرى ، فسألهم :

ــ ماهى الحكاية ، ألا تريدونها ؟

ثم استمر :

اطلبوا من أمهاتكم أن يطبخنها لعشائكم بالليل . إنها خضروات قد اكتسبتموها بأنفسكم . لقد أحضرتم طعاما لأسرتكم بجهدكم . كيف ذلك ؟ أنا أراهن أن طعمها جيد .

بالطبع ، كان صحيحا ، إنه كان أول مره فى حياة توتوتشن مثلا لتحضر أى شىء للعشاء . ولذلك فقد أخبرت المدير :

ـ سأطلب من أمى أن تعمل أرقطيون عطرى ، ولم أقرر بعد ما سأطلب منها أن تعمل بالبصل . وقال الآخرون نحن نفكر فى ألوان الطعام أيضا وأخذوا يصفونها للمدير .

قال المدير بسعادة وقد احمرت خدوده :

ـ حسنا ، لقد فهمتم الفكرة .

ربما كان يفكر أن هذا سيكون لطيفا عندما يأكل الأطفال وعائلاتهم الخضروات بينما يتحدثون عن حوادث يوم الرياضة . بلا شك إنه كان يفكر خصوصا فى تاكاهاشى الذى ستزدحم مائدة عشائهم بالجوائز الأولى ومتمنيا أن الطفل سيتذكر عزة نفسه وسعادته بفوزه بالجوائز الأولى قبل أن تنمو غريزة مركب النقص فى نفسه بينما الحقيقة أن جسمه سوف لايكبر .

وربما ـ من يدرى ـ أن المدير قد فكر أن تاكاهاشى سوف يكون الأول دائما فى لُعَب نظام توموى الفريدة .

إسّا كوباياشي الشاعر :

لقد كان الأطفال يحبون أن يطلقوا على السيد المدير بعض الأسماء مثل :

ـ إسّا كوباياشي .

وحتى قد ألّف البعض الشعر العاطفى نحوه مثل :

ـ إسّا كوباياشي .

شيخنا الكبير.

برأسه الصلعاء

وكان هذا لأن اسم عائلة المدير كان «كوباياشي» نفس اسم الشاعر المشهور فى القرن التاسع عشر «إسّا كوباياشي» صاحب الشعر المسمى (هايكو) والذى كان يحبه السيد المدير ويقتبس منه غالباً ، وقد أحس الأطفال كما لو كان (إسّا كوباياشي) صديقا لهم مثل مديرهم السيد سوساكو كوباياشي .

وكان السيد المدير يحب نظام شعر إسّا كوباياشي لأن هذه الطريقة كانت حقا تتفق مع واقع الحياة ، وعندما يكون هناك آلاف من أشعار (الهايكو) فإن إسّا يخلق عالما من تأليفه بحث لايستطيع إنسان أن يقلده . ولقد أعجب المدير بأشعاره ذات الأسلوب البسيط الذى يتفق مع الأطفال ، ولهذا كان فى

كل مناسبة يعلم تلاميذه أشعارا من شعر إسّا يمكن أن يتعلموها بقلوبهم وشعورهم مثل :

ـ أيها الضفدع الهزيل ، لاتستسلم ، هنا إسًّا معك .

ـ يافراخ العصافير ، افسحى الطريق ، لمرور الحصان .

ـ لاتضرب الذباب ، يلوح بيديه وقدميه ، يلتمس رحمتك .

وقد لحن المدير مرة لحنا لأغنية وقد غناها الجميع .

ـ تعال العب معى ، أيها العصفور اليتيم .

ومع أن درس الهايكو ـ هذا النظم من الشعر ـ لم يكن ضمن بروجرام المدرسة الرسمى فإن المدير كان كثيرا ما يدرسه للتلاميذ . أوالهايكو عبارة عن قالت شعرى يابانى تتألف القصيدة فيه من سبعة عشر مقطعا ويبدأ بخمسة مقاطع ثم سبعة ثم خمسة وكان إسًّا هو أبرز الشعراء فى هذا القالب .

وأول مجهود لتوتوتشن عندما أرادت أن تقرض شعر الهايكو وصفت (نواراكورو) صاحب السجية الضاحكة المحبوبة لها وهو كلب أسود ضال من أبطال إحدى قصص الأطفال انضم إلى الجيش من نفسه وبالتدريج اكتسب ترقية بالرغم من العلو والانخفاض فى سجيته ، ولكنه ترك الجيش وهاجر بعيدا عن القارة .

لقد قال المدير للتلاميذ :

ـ حاولوا أن تقرضوا شعرا من الهايكو رفيعا ومستقيما عن أى شىء يكون فى تفكيركم . إنكم لا تستطيعون أن تحسبوا أن ما قالت توتوتشن من الهايكو

المنتظم ولكنه يعبر عن نوعْ الشيء الذى أثر فيها فى تلك الأيام . إن شعرها (الهايكو) لا يتفق تماما مع المطلوب ٥ ـ ٧ ـ ٥ بل إنه ٥ ـ ٧ ـ ٧ ، وقد كان واحد من شعر إسّا عن فراخ العصافير باللغة اليابانية ٥ ـ ٨ ـ ٧ ولهذا توتوتش فكرت أنه يمكن أن يكون هكذا . فى أثناء سير الأطفال إلى معبد كوهنبتسو أو عندما تمطر السماء ولايستطيعون اللعب خارج الأبواب ويجتمعون فى صالة الاجتماع يقوم توموى إسًّا كوباياشى بالحديث عن الهايكو ، وكان يستخدم فى تصوير أفكاره عن الحياة والطبيعة . بعض أشعار إسّا ربما كتبت خصوصا لأجل توموى .

ـ يذوب الثلج ، وفجأة تمتلئ القرية بالأطفال (إسًّا) .

شيء غامض :

لقد وجدت توتوتشن بعض النقود لأول مرة فى حياتها عند ركوبها القطار راجعة إلى المنزل من المدرسة . لقد ركبت قطار أويماتشى من جيوغاؤكا ، وقبل أن يصل القطار المحطة التالية (ميدوريغاؤكا) كان هناك فى طريق القطار منحنى عنيف يجعله ينحنى بدرجة عنيفة وبصوت شديد ، وكان عليها أن تشد قدميها حتى لاتفقد توازنها ، وكانت دائما تقف بجانب الباب الأيمن فى مؤخرة القطار متوجهة نحو الجهة التى يسير فيها القطار ، وكان وقوفها فى هذا المكان لأن الرصيف عند المحطة التى ستنزل فيها كان على ناحية اليد اليمنى وكان هذا الباب أقرب إلى سلم الخروج وأيضا تستطيع النزول فورا عند وصول القطار ووقوفه فى المحطة ولأنه يفتح إلى اليمين . فى ذلك اليوم عندما كان القطار ينحنى فى المنحنى السالف الذكر توتوتشن لاحظت شيئا يشبه النقود قرب قدميها ، وكانت قد التقطت قبل ذلك شيئا ظنته نقودا ولكنها وجدته زرا ، ففكرت فى هذه المرة أن تدقق النظر لتتأكد من هذا الشيء ، وعندما سار القطار مستقيما بعد هذا المنحنى خفضت رأسها ثم نظرت بعناية وكان هذا الشيء قطعة نقود من فئة الخمسة سنات فظنت أن هناك بعض الناس قد وقعت منه هذه القطعة ثم تدحرجت إليها عند انحناء القطار ، ولكن لم يكن هناك أحد قريبا من توتوتشن فتعجبت وقالت :

ـ ماذا أفعل ؟

وفى الحال تذاكرت أنها سمعت بعض الناس يقول :

ـ إذا وجدت نقودا فإنه يجب عليك أن تسلمها إلى رجل البوليس ولكن لم يكن فى القطار رجل البوليس . هل هو هناك ؟!

وفى نفس الوقت فتح كمسارى القطار العربة التى تركب فيها توتوتشن ودخل ولم تدر ماذا حملها على أن تضع رجلها اليمنى على قطعة النقود ـ الخمس سنات ـ ولأن الكمسارى يعرفها ابتسم لها ، ولكنها لم تستطع أن ترد له الابتسامة من قلبها لأنها كانت تشعر بإثم وضع قدمها على قطعة النقود ، وكل ما استطاعته كان تقطيبة فاترة .

فى هذه اللحظة وصل القطار إلى محطة أوكاياما وهى التى قبل محطتها التى ستنزل فيها ، ثم فتحت الأبواب التى على الجانب الأيسر فاندفع للركوب عدد كبير من الناس ودفعوا توتوتشن وانحشرت بينهم ولم يكن عندها استعداد أن تحرك قدمها اليمنى ولكنها بقوة استطاعت أن تثبتها ، وفى أثناء ذلك فكرت فى خطة :

ـ عندما تنزل من القطار ستأخذ هذه القطعة وتعطيها للبوليس ، وهناك خطة أخرى طرأت لها : لورآها أحد الناس الكبار وهى تأخذ قطعة النقود من تحت قدمها فربما يظنون أنها سارقة . فى تلك الأيام تستطيع أن تشترى بخمسة سنات باكو صغيرا من الكراملة أو إصبعا من الشكولاته ، ولهذا فبينما لايعتبر هذا المبلغ ـ الخمسة سنات كبيرا بالنسبة للكبار فإنه يعتبر مبلغا كبيرا بالنسبة لتوتوتشن ولذا فإنها صارت قلقة لأجل هذا الأمر . وقالت فى نفسها :

ـ يمكن أن أقول بهدوء : آه ، لقد سقطت منى بعض النقود ، يجب أن

آخذها وحينئذ يعتقد كل واحد أنها ملكى .

ولكن فى الحال خطرت لها فكرة أخرى :

ـ ماذا أفعل إذا قلت ذاك ثم نظر الناس إلى وانبرى واحد منهم ليقول : إنها ملكى أنا ؟ ماذا أفعل ؟

وبعد أن ادارت أوجه الرأى قررت أن تجلس القرفصاء عندما يقترب القطار من محطتها وتتظاهر أنها تربط حذاءها ثم تأخذ قطعة النقود سرا . وفعلت ذلك ، وعندما نزلت إلى الرصيف شعرت بالتعب والانهاك وتصببت عرقا ، وفكرت لو ذهبت إلى كشك البوليس فإنها ستتأخر فى رجوعها إلى أمها وستقلق عليها حيث أن كشك البوليس بعيد . ولكنها بعد تفكير كثير فى أثناء نزولها سلم المحطة قررت أن تضع هذه القطعة من النقود فى مكان خفى ثم تأخذها فى غد إلى المدرسة وتسأل كل واحد عن رأيه فيها ، ويجب أن تعرضها عليهم بأى طريقة لأنه ليس هناك واحد آخر قد وجد نقودا قبل ذلك .

لقد تحيرت أين تخفى هذه النقود ؟ إذا أخذتها إلى المنزل فربما تسألها أمها عنها . ولهذا فإنه يجب أن تخفى فى مكان آخر . تسلقت توتوتشن داخل غابة كثيفة قريبة من المحطة . لايمكن أن يراها أحد هناك ولايبدو أن أحدا يدخل فيها ، ولهذا فإن هذا المكان يبدو لطيفا وآمنا ، فحفرت حفرة صغيرة بعصا ثم أسقطت هذه القطعة الثمينة من النقود فيها وغطتها بالتراب ثم وضعت حجرا غريب الشكل عليها كعلامة ثم جرت بسرعة كبيرة إلى البيت .

فى أغلب الليالى كانت تبقى مدة طويلة تتكلم عن المدرسة حتى تعلن أمها :

ـ إنه وقت النوم فادهبى إلى سريرك .

ولكن فى تلك الليلة لم تتكلم كثيرا وذهبت للنوم مبكرة . وفى الصباح التالى استيقظت وهى تشعر أن هناك شيئا مهما بدرجة عظيمة يجب أن تقوم به ، وكانت سعيده عندما تذكرت فجأة كنزها المختفى . فتركت البيت مبكرة أكثر من المعتاد وسابقت روكى ـ الكلب ـ إلى الغابة ثم زحفت إلى الداخل :

ـ إنها هنا !.. إنها هنا !

لقد كان الحجر الذى وضعته علامة كما تركته تماما .

قالت لروكى :

ـ إنى سأريك شيئا ظريفا .

ثم حركت الحجر وحفرت بعناية ، ولكن لشدة الغرابة لم تظهر قطعة النقود . إنها لم تكن هكذا مندهشة . هل رآها أحد وهى تخفيها أو تحرك الحجر؟ ثم حفرت مساحة كبيرة ولكن لم تجد القطعة أبدا . لقد كانت مكتئبة لأنها لم تكن قادرة على أن تريها لأصدقائها فى المدرسة ولكن الأكثر من ذلك أنها لم تستطع أن تكتشف السر فى ذلك . وكانت كلما مرت فى هذا المكان دخلت تلك الغابة وحفرت ولكنها لم تعثر عليها أبدا . طالما فكرت :

ـ ربما أخذتها الفأرة العمياء

أو :

ـ ربما كنت أحلم .

أو :

ـ ربما رآني الله وأنا أخفيها .

ولكن مهما يكن تفكيرها فإنه كان غريبا جدا حقا . إنه كان أمرا غامضا لا يمكن أن تنساه .

محادثة بالأيـدى :

فى مساء يوم قريبا من بوابة الغابة فى محطة جيوغاؤكا كان يقف سويا ولدان يكبران قليلا عن توتوتشن وبنت واحدة ويبدو أنهم كانوا يلعبون لعبة يابانية (الحجر والورق والمقص) وهذه اللعبة تؤدى بالأيدى . وقد لاحظت توتوتشن أنهم كانوا يعملون إشارات كثيرة بأصابعهم أكثر من المعتاد . لقد بدا هذا غريبا . ذهبت توتوتشن قريبا منهم لتنظر بدقة ماذا يفعلون :

لقد بدا أنهم يتحدثون من غير صوت . واحد يعمل إشارات كثيرة بيديه ويقوم شخص آخر كان مراقبا لهما فى الحال بعمل إشارات مختلفة أكثر ويعمل الثالث إشارات أقل ثم ينفجر الجميع ضاحكين من غير صوت كبير وكان يبدو أنهم يمتعون أنفسهم بالحديث ، وبعد مراقبتهم بعض الوقت تأكدت توتوتشن أنهم كانوا يتحدثون بأيديهم . فحسدتهم على ذلك وقالت :

ـ أنا أود لو أستطيع الكلام بيدىّ أيضا .

أرادت توتوتشن أن تذهب وتنضم إليهم ولكن لاتعلم كيف تسألهم بيديها ، وعلاوة على ذلك فإنهم ليسوا تلاميذ تومورى ولهذا ربما يكون ذلك من الوقاحة ، ولكنها ذهبت لمراقبتهم فقط حتى صعدوا إلى رصيف قطار تويوكو . فقررت فى نفسها :

ـ فى بعض الأيام سأذهب لأتعلم كيف أتحدث إلى الناس بيدى .

ولكنها لم تكن تعلم بعد عن الناس الصم أو أن هؤلاء الأطفال قد ذهبوا إلى مدرسة الصم البكم فى أويماتشى فى المحطة الأخيرة للقطار الذى تركبه كل يوم .

لقد فكرت توتوتشن فقط أنه كان هناك شىء جميل فى الطريقة التى كان الأطفال ينظرون بها إلى أصابع أيديهم بعيون لامعة ثم أرادت أن تصادقهم يوما ما .

معبد سنغاكوجي :

لقد كان نظام كوباياشي فى التعليم نظاما فريدا ولكنه كان متأثرا إلى حد كبير بالأفكار الأوربية والبلاد الأجنبية الأخرى كما نرى من فن الإيقاع فى تومو والعادات عند الأكل والسهر فى المدرسة والغناء عند تناول الغداء الذى كان ينشده التلاميذ على طراز جدف وجدف . جدف زورقك الذى اقتبس من الإنجليزية والأشياء الأخرى من هذا القبيل ـ وقد كان الأستاذ مارو ياما وكيلا للأستاذ كوباياشي كالوكيل فى المدارس العادية . وكان نقيضا للأستاذ كوباياشي فى طرق كثيرة مثل اسمه الذى يعنى باليابانية (التل الدائرى) فقد كان رأسه مستديرا تماما وليس فيه شعر إلا خصلا بيضاء فى مستوى أذنيه ، ويلبس نظارة مستديرة وكانت خدوده حمراء لامعة ، وكان لايختلف تماما عن الأستاذ كوباياشي فى ذلك فقط بل فى اعتياده ترتيل الشعر الصينى القديم الذى كان يرتله بصوت جليل وقور حتى كانت قراءته لهذا الشعر مشهورة بين التلاميذ وإن كانوا يسمعونه محرفا ويفهمونه بطريق الخطأ فمثلا كلمة (بينسى معناها فى أغنيته : صوت الضرب) والأغنية : بينسى يعبر النهر فى الليل ساكنا .

يحرفها الأطفال مثل توتوتشن فيقولون :

بينكى يعبر النهر فى الليل باكيا .

وبينكى هذا قسيس مشهور والأغنية بوصفها المحرف توحى بالحزن وفى صبيحة اليوم الرابع عشر من ديسمبر عندما اجتمع التلاميذ فى صالة المدرسة أعلن السيد ماروياما الاعلان التالى :

ـ فى هذا اليوم ، تقريبا منذ قرنين ونصف انتقم سبع وأربعون ساموراى من العدو وقتلوه ثم انتحروا ودفنوا فى معبد سنغاكوجى ، ولذا سنزور هذا المعبد على الأقدام لنقدم احتراماتنا لقبورهم . ولقد أخبرت أمهاتكم بذلك . ولم يعترض المدير على خطة السيد ماروياما ، ولم يعرف الآباء ماذا كان تفكير السيد كوباياشى فى ذلك ولكنهم عرفوا أنه مادام لم يعترض فكأنه موافق عليه وأن البحث فى زيارة أطفال توموى لمقابر السبعة والأربعين ساموراى يعتبر دسيسة . وقبل أن يذهب الأطفال أخبرهم السيد مارويياما قصة هؤلاء السبعة والأربعين ساموراى المشهورين وكيف أن رجال اللورد أسانوا الشجعان المخلصين ال ٤٧ تآمروا حوالى سنتين ليثأروا لشرف رئيسهم الذى مات .

وكيف أنه ظلم بدرجة محزنة .

وعلاوة على هؤلاء السبعة والأربعين ساموراى كان هناك تاجر شجاع أمدهم بالسلاح اسمه (ريهى أمانويا) وعندما قبض عليه موظفوا الملك (شوجون) أعلن :

ـ أنا ريهى أمانويا ، أنا رجل .

ورفض أن يعترف أو يعطى سرا واحدا . لم يفهم الأطفال كثيرا من هذه القصة ولكنهم كانوا متضايقين من فوت دروسهم والذهاب مشيا على الأقدام إلى مكان بعيد كثيرا عن معبد كوهنبتسو ومعهم طعام الغداء .



وبعد الاستئذان من المدير والاساتذة الآخرين بدأ الأطفال الخمسون الرحلة يقودهم السيد مارویاما وهم فى صف واحد . وكان صوتهم يسمع هنا وهناك محتجين ، أنا ، ريهى أمانويا ، أنا رجل) وكذلك البنات احتججن مما دعا المارة إلى أن يديروا رءوسهم ويضحكوا . لقد كانت المسافة إلى سنفاكوجى حوالى سبعة أميال ولكن السيارات نادرة ، والسماء صافية فى ديسمبر ، واستمرار الأطفال فى تكرار القول (أنا ريهى أمانويا رجل) كل ذلك جعل الطريق لايبدو طويلا .

وعندما وصل الأطفال إلى سنغاكوجى أعطى الأستاذ مارویاما . لكل تلميذ عودا من البخور وقليلا من الزهور . هذا المعبد أصغر من معبد كوهنبتسو ولكن هناك كثير من القبور فى صف واحد .

وعندما عرفت توتوتشن أن هذا المكان مقدس لذكرى السبعة والأربعين

ساموراى أحست بالخشوع ثم قدمت أعواد البخور والزهور ، ثم انتشر الهدوء والخشوع بين الأطفال ولم يكن ذلك من عادة أطفال تومو‌ى وارتفع دخان أعواد البخور التى وضعت أمام القبور ورسمت صورا فى السماء لوقت طويل جدا .

ومنذ ذلك اليوم أصبحت رائحة أعواد البخور تذكر توتوتشن بماروياما وريهي أمانويا وبينكى ورائحة الهدوء العطرية .

ربما لم تفهم الأطفال كل ما قيل عن السبعة والأربعين ساموراى .

ـ لكن لأن الأستاذ ماروياما تكلم عنهم بحماس قوى فإن الأطفال شعروا باحترامه وحبه مثل الأستاذ كوباياشى على ما بينهما من اختلاف . وقد أحبت توتوتشن عينيه الصغيرتين اللتين تنظران من خلف عدسات نظارته السميكة وصوته الحنون الذى بدا كأنه لايتلاءم مع هذا الجسم الكبير .

هذا وقد قربت إجازة رأس السنة .

مساؤتشآن :

لقد تعودت توتوتشن فى طريق ذهابها وعودتها من المحطة أن تمر بمنزل يقطن فيه كوريون وبالطبع هى لاتدرى أنهم كوريون ، والشىء الوحيد الذى تعرفه عنهم أنه كان هناك امرأة تفرق شعرها من الوسط وتربطه من الخلف على شكل كعكة وكانت ممتلئة قليلاً وتلبس حذاء أبيض من المطاط رفيعا من الأمام مثل الزورق كانت تلبس جونلة طويلة بشريط معقود على صدرها فوق البلوزة القصيرة ، وكانت دائما تبدو باحثة عن ولدها بصوت مرتفع « ماساؤتشآن » وكانت دائما منادية باسمه ولكن بطريقة تخالف طريقة اليابانيين وكان صوتها يوحى بالحزن لتوتوتشن .

لقد كان هذا المنزل يقع على جسر مطل على خط حديد أو يماثلى وكانت توتوتشن تعرف هذا الطفل ماساؤتشن وكان أكبر قليلا منها ويحتمل أن يكون فى الصف الثانى فى المدرسة ولكنها لم تكن تعرف فى أى مدرسة هو ، وكان له شعر غير مرتب ، ودائما يرافقه كلب . وذات يوم كانت توتوتشن تسير إلى المنزل فمرت بهذا الجسر وكان ماساؤتشن يقف على قمة الجسر وقدمه على جنب ويداه فى وسطه فى وضع كوضع المتكبرين وكأنه قاطع طريق فصاح إلى توتوتشن « كورية » وكان صوته حادا ومملوءاً بالكراهية . فخافت منه ودهشت لأنها لم تفعل أى شىء له ولم تتكلم معه ولهذا كانت مذعورة عندما نزل إليها

من فوق الجسر بمثل هذه الطريقة الحقودة .

وعندما ذهبت إلى المنزل أخبرت أمها بذلك وقالت لها إن ماساؤتشن نادانى كورية . فلما سمعت الأم ذلك وضعت يدها على فمها ورأت توتوتشن عينيها وقد ذرفت منها الدموع فاضطربت توتوتشن وظنت أنه لابد أن يكون هناك شيء سيء بينما الأم لم تكفكف من دمعها واستمرت فى بكائها حتى احمرت أرنبة أنفها ثم قالت دون أن تمسح دموعها :

ـ ولد مسكين يدعوه الناس دائما كورى كورى حتى ظن أنها كلمة رديئة ربما هو لم يعرف معنى هذه الكلمة لأنه لايزال صغيرا . هو يظن أنها تشبه كلمة مغفل تلك التى يقولها الناس عندما يريدون أن يقولوا : أنت مغفل .

ربما كان هناك من قال له : كورى فظن أنها شتمة ولابد أن يرد ببعض الكلمات الرديئة عليه أيضا ، ولهذا هو ناداك كورية . لماذا يكون الناس قاسين هكذا .

جففت الأم دموعها ثم قالت لتوتوتشن ببطء شديد

ـ أنت يابانية وماسؤتشآن أتى من بلد آخر يدعى كوريا ولكنه طفل مثلك تماما . ولهذا توتوتشن ياعزيزتى ، لاتظنى أبدا أن الناس مختلفون ، لاتظنى أن هذا يابانى وهذا كورى . كونى لطيفة مع ماساؤتشن .

إنه من المحزن أن يظن بعض الناس أن الآخرين ليسوا ظرفاء فقط لأنهم كوريون لقد كان هذا صعبا على توتوتشن أن تفهمه ، ولكن مافهمته هو أن ماساؤتشن ولد صغير يتكلم الناس إليه كلاما رديئا من غير أى سبب ، ولعل هذا هو السبب الذى جعل أمه دائما تبحث عنه وتقلق عليه . ولهذا فى صباح اليوم

التالى عندما مرت بالمنزل الذى يقطن فيه الكوريون وسمعت أمه تنادى عليه بصوت مرتفع (ماساؤتشان) بصوتها الحاد تعجبت أين يكون ؟ وفكرت أنها ولو لم تكن كورية فإنها سترد عليه إذا ناداها كورية بقولها :

ـ نحن كلنا أولاد ، نحن كلنا متساوون . وستحاول أن تتصادق معه .

على كل حال فإن صوت أم ماساؤتشن بمافيه من انفعال وقلق وصفات أخرى خاصة به يبدو وقد أبطأ فى الهواء لمدة طويلة حتى يغطى عليه صوت القطار الجارى .

(ماساؤتشان)

إذا سمعت هذا الصوت الباكى مرة فسوف لاتنساه أبدا .

ضفيرتا الشعر الطويلتان :

فى ذلك الوقت كانت توتوتشن تطمح إلى شيئين ، أولهما أن تلبس سروالاً نسائيا خاصا بالرياضة وهو الذى رأته فى يوم الرياضة ، والثانى أن تضفر شعرها . وقد قررت ذلك عندما رأت تلميذات المدارس الكبيرات فى القطار وقد ضفرن شعورهن ، بينما كانت شعور البنات الصغيرات فى فصلها قصيرة بقصة مستقيمة فوق جبينهن فإن توتوتشن كان شعرها طويلا مصفدا إلى جانب الرأس ومربوطا بشريط حسب ما أحبت أمها وعلاوة على ذلك فإن توتوتشن أرادت أن ينمو هكذا لتعمل ضفيرتين .

وأخيرا فى يوم من الأيام جاءت إلى أمها لتضفر لها شعرها فى ضفيرتين صغيرتين محكمتين فى نهايتهما بعصابتين من المطاط ومربوطتين بشريطين رشيقين وأحست كأنها تلميذة أكبر . وعندما نظرت إلى نفسها فى المرآة تحققت أنها مخالفة للبنات فى القطار لأن ضفيرتيها رفيعتان وقصيرتان وتشبه حقيقة الضفائر الطويلة ولكنها جرت إلى الكلب روكى ثم رفعتهما أمام عينيه بفخر واعتزاز ليراهما فرمش روكى مرة بعينيه أو مرتين . فقالت :

ـ أود لو استطعت أن أضفر شعرك أيضا .

وعندما ركبت القطار أمسكت برأسها على قدر ما تستطيع ليظل هادئا

ساكنا خوفا على ضفيرتيها أن يتلفا وفكرت :

كيف يكون الأمر لطيفا إذا لاحظها واحد من الناس فى القطار ثم قال : ما أجمل ضفيرتيها . إلا أن أحدا لم يقل ذلك كيفما كان الأمر فإنها عندما وصلت إلى المدرسة ميوتشن وساكوتشن وكيكوتشن ، وكن فى فصلها . صحن وقلن فى نفس واحد :

ـ أوه صفيرتان ! !

فكانت مسرورة جدا وتركتها للبنات يلمسنها .

لم يبد أحد من الأولاد أى تأثر بذلك ولكنهم جميعا فوجئوا بعد الغداء بعد أن أعلن ولد اسمه أوى من فصلها بصوت عال قائلا :

ـ واو ، توتوتشن جاءت اليوم بتسريحة جديدة .

سرت توتوتشن لترى واحدا من الأولاد لاحظ ذلك ثم قالت بافتخار :

ـ إنها ضفيرة .

اقترب الطفل أوى منها ثم أمسك بضفائرها بكلتا يديه ثم قال :

ـ أنا متعب ، أظن أننى سأتعلق بهذه الضفائر ، لأنها أفضل بكثير من علاقات القطار .

ولكن لم يكن هذا هو نهاية مضايقاتها فلقد كان أوى فى حجم ضعف حجم توتوتشن الهزيلة وفى الحقيقة إنه كان أكبر وأضخم تلميذ فى الفصل ، ولهذا فإنه عندما جذب ضفائرها تمايلت ثم وقعت وارتطم ردفاها بالأرض ،

وقد كان يكفيها ألما لو أن أوى جذبها من يديها ليساعدها على الوقوف من غير ان يجرها على الأرض ولكنه عندما حاول أن يوقفها شدها من ضفائرها بقوله (هب) هو مثل يوم الرياضة فانفجرت توتوتشن بالبكاء. ولقد كانت ضفيرتاها رمز البنت أكبر ولذلك توقعت أن يكون كل واحد مؤدبا معها بسببهما. جرت توتوتشن باكية إلى مكتب المدير وعندما سمعها تدق على الباب منتحبة فتح الباب ثم انحنى كالمعتاد حتى كان وجهه فى مستوى وجهها ، ثم سألها :

ـ ماذا حدث ؟

بعد أن تأكدت توتوتشن أن ضفيرتيها لاتزالان كما كانتا منتظمتين قالت :

ـ لقد جذبهما أوى وقال هب هو.

فنظر المدير إلى شعرها ـ بالمقارنة إلى وجهها الباكى ـ فكانت ضفيرتاها كأنهما ترقصان من الفرح

جلس المدير وأجلس توتوتشن أيضا أمامه وكالمعتاد غير عابئ بأسنانه الساقطة قال لها :

ـ لاتبكى ، إن شعرك يبدو جميلاً.

رفعت توتوتشن وجهها المبلل بالدموع وقالت باستحياء :

ـ هل تحبه ؟

قال :

ـ إنه هائل.

كفكفت توتوتشن دموعها ثم نزلت من كرسيها قائلة :

ـ سوف لا أبكى مرة أخرى حتى ولو أوى قال لى : هب هو .

فهز المدير رأسه موافقا مبتسما وابتسمت توتوتشن أيضا فتناسب وجهها الضاحك مع ضفيرتيها ، ثم انحنت تحية للمدير وجرت راجعة تلعب مع الأطفال الآخرين. ولقد نسيت بكاءها عندما رأت أوى واقفا أمامها يحك رأسه ويقول فى صوت عال صريح :

ـ أنا آسف ، لقد جذبتها ، لقد لامنى المدير وقال لى يجب أن تكون لطيفا مع البنات وأن تكون دمث الأخلاق معهن وتحافظ عليهن .

فكانت توتوتشن مندهشة قليلاً لأنها لم تسمع أبدا من يقول : يجب أن تكون لطيفا مع البنات . الأولاد دائما هم الأهم ، وفى العائلات تعرف هى أنه فى أى مكان يخدم الأولاد أولا عند الأكل وعندما يتكلم البنات تقول أمهاتهن : البنات الصغار يرون ولايسمعن وبالرغم من كل ذلك فإن المدير أخبر أوى أن البنات يجب أن يحافظ عليهن .

وبالنسبة لـ أوى فإنها كانت صدمة وكان غريبا أن يؤمر أن يعامل البنات بلطف وأكثر من ذلك أنها أول وآخر مرة يؤنبه فيها المدير فى تومواى وأنه سوف لاينسى ذلك اليوم أبدا .

شكرا :

اقتربت إجازة السنة الجديدة التى لاتشبه إجازة الصيف حيث لايجتمع التلاميذ فى المدرسة مطلقا ولكنهم يقضون الوقت كله مع ذويهم .

لقد قال ميغيتا مخبرا كل واحد :

ـ سوف أذهب لأقضى إجازة السنة الجديدة مع جدى فى كيوشو .

بينما قال تايتشن الذى يميل دائما إلى تجارب العلوم :

ـ أنا سأذهب مع أخى الأكبر لزيارة معمل الطبيعيات الذى انتظر رؤيته منذ زمن .

وكان الأطفال يتحدثون عن خططهم التى سيعملها كل واحد منهم ثم تفرقوا محييا كل منهم الآخر ... إلى اللقاء .

أما توتوتشن فقد ذهبت للانزلاق على الجليد مع أبيها وأمها . فى هضبة شيقا حيث يملك صديق والدها السيد هديو سايتو ـ عازف الشيللو وقائد الأوكسترا ـ منزلا جميلا هناك . فقد اعتادوا أن يبقوا معه كل شتاء ، وكانت توتوتشن قد بدأت تعليم الانزلاق على الجليد منذ كانت فى روضة الأطفال عندما تأخذ مركبا يجرها حصان من المحطة إلى منطقة الانزلاق على الجليد فإنك ترى قمة عالية من الثلوج البيضاء لم تحطمها مصاعد أو أى شىء آخر

ولكن هنا وهناك قد وضعت قطع من جذوع الأشجار ، ولأجل الناس الذين يذهبون إلى هناك وليس لهم بيوت مثل السيد هديوسايتو فقد قالت الأم إن هناك فندقا واحدا على الطراز اليابانى وواحدا آخر على النظام الغربى ، ولكن يهتم كثير من الأجانب بالذهاب إلى هناك .

ولقد كانت هذه السنة مختلفة عن السنة الماضية بالنسبة لتوتوتشن فلقد أصبحت الآن تلميذة فى الصف الأول بالمدرسة الابتدائية ولاتعرف إلا كلمة واحدة إنجليزية علمها لها أبوها وهى (شكرا Thank You) ولقد كان الأجانب الذين يمرون عليها وهى فى مركبة الانزلاق يقولون شيئا من المحتمل أن تكون كلمة :

ـ أليست جميلة ؟!

أو شيئا مثل ذلك ولكنها لاتفهم .

إنها لم تكن قادرة على أن ترد طوال هذه السنة ولكنها من الآن بدأت تحاول أن تحني رأسها وتقول (شكرا Thank You) وكلما مر بها الأجانب وسمعوا منها هذا الشكر كانوا يبتسمون لها ويتحدثون معها وكان بعضهم يقبلها وبعضهم يحتضنها حنانا وإعجابا ، وبوساطة كلمة « شكرا » استطاعت أن تعمل صداقات مع الناس وفى يوم من الأيام اقترب منها شاب لطيف وأشار إليها إشارة يدل معناها على :

ـ هل تحبين أن تركبى أمامى على مركبتى ؟

وأخبرها والدها بالموافقة فقالت :

شكرا .

فأخذها الشاب وأجلسها القرفصاء عند قدميه على مركبته وأمسك بها ثم انحدرت بها المركبة فى منحدر سهل طويل انحدار الريح وكانت الرياح تحدث صفيرا فى أذنيها من شدة اندفاعها . وكانت توتوتشن تضم ركبتيها بقوة حذرا من الوقوع إلى الأمام . وإن كان فى ذلك قليل من الازعاج والخجل فإنها كانت سعيدة جدا . ولقد صفق الناس الذين شاهدوهما عندما وصلا إلى محطة الوقوف فوقفت توتوتشن من المركبة ثم أحنت رأسها قليلا لهم ثم قالت :

شكرا .

فصفقوا أكثر من ذى قبل .

وبعد فترة طويلة من الزمن عرفت أن ذلك الشاب اسمه شونايدا وهو لاعب مشهور فى التزحلق على مستوى العالم كان يستخدم عصاتين من الفضة فى أثناء تزحلقه . ولقد أحبت منه فى هذا اليوم أنهما عندما انحدرا من المنحدر إلى أسفل وصفق الناس لهما جلس القرفصاء بجانبها ثم أخذ رأسها ونظر إليها نظرة اهتمام ثم قال :

ـ شكرا .

ولم يعاملها كطفلة بل كسيدة كبيرة ، وعندما انحنى لها شعرت من قلبها بالسليقة أنه رجل لطيف وكانت الطبيعة بثلوجها البيضاء تبدو وراءه ممتدة إلى ما لا نهاية .

المكتبـة :

بعد أن رجع الأطفال إلى المدرسة بعد أنتهاء إجازة الشتاء اكتشفوا شيئا جديدا ولطيفا وحبوا هذا الاكتشاف بهتافات الفرح والسرور ـ فى الجهة المقابلة لفصول الدراسة وقفت عربة جديدة بجانب أحواض الزهور عند صالة الاجتماعات . لقد صارت هذه العربة فى أثناء الإجازة مكتبة ، وقد بذل فى إعدادها جهدا كبيرا عامل النظافة المسمى ريوتشن الذى يحترم كل واحد والذى يستطيع أن يعمل كثيرا من الأعمال ، ولقد وضع كثيرا من الأرفف فى العربة ورتب فيها صفوفا من الكتب من جميع الأنواع والألوان ، كما وضع فيها المكاتب والكراسى حيث يستطيع الطالب أن يجلس ويقرأ .

قال المدير :

ـ هذه هى مكتبتكم ، وأى كتاب من هذه الكتب ربما يقرأ بوساطة أى واحد ، لاتهتموا إذا كانت بعض هذه الكتب مخصصة لبعض الصفوف أو أى شىء مثل هذا ، وتستطيعون أن تحضروا هنا فى أى وقت تحبون ، وإذا أردتم أن تستعيروا كتابا ثم تأخذوه إلى المنزل فلا مانع ، ولكن بعد قراءته لابد من إرجاعه إلى المكتبة ، وعندما تأخذون كتابا إلى منزلكم فيجب أن تفكروا أن هناك من يحب أن يقرأه ، وسأكون مسرورا عندما تردونه إلى هنا ، وبأى طريقة من فضلكم اقرءوا على قدر ما تستطيعون . فصاح التلاميذ فى صوت واحد :

ـ فلتكن الحصة الأولى فى المكتبة اليوم .

فقال المدير وقد ابتسم وسعد لرؤية هذا منهم :

ـ حسنا . ولماذا لا أوافق ؟!

وحينئذ احتشد كل تلاميذ توموى ـ وكلهم خمسون ـ فى عربة المكتبة باهتياج شديد وأخذ كل واحد الكتاب الذى يريده وحاولوا أن يجلسوا ولكن نصفهم لم يجد مقاعد فجلس نصفهم واستمر الباقون واقفين .

فبدأ المنظر تماما كزحام القطار والناس واقفون يقرءون فى الكتب ، وكان هذا منظرا مضحكا تماما . وكان الأطفال فى منتهى السعادة . ولما كانت توتوتشن لم تستطع القراءة بعد فقد اختارت كتابا يبدو أن فيه صورا مسلية . وعندما أصبح فى يد كل واحد كتاب وبدأ الجميع يقلبون الصفحات ، بدأت العربة فجأة فى هدوء ولكن سرعان ما انقلب هذا الهدوء إلى خليط من الأصوات : كان بعض التلاميذ يقرأ فى الممرات بصوت مرتفع ، بينما كان البعض الآخر يسأل الآخرين على معنى بعض الحروف التى لايعرفونها ، ومن يريد أن يستبدل كتابا بآخر ، وامتلأت عربة القطار بالضحك .

وكان هناك تلميذ قد بدأ فعلا فى قراءة كتاب يسمى (الصور المغنية) وكان يرسم وجها وهو يقرأ بصوت مرتفع يصاحبه جلجلة عالية معبرة عن الرسم .

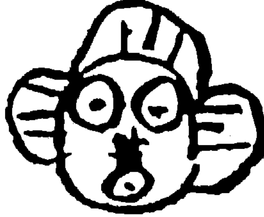
ـ دائرة ونقطة ... دائرة ونقطة .

علامة صليب لأجل الأنف وآخر مدور ونقطة ثلاث شعرات ... ثلاث شعرات ... ثلاث شعرات ثم واو سريع كالريح ، هناك مدام بدينة .

يجب أن يكون الوجه قد استدار عند كلمة واو وثلاث شبه دوائر ترسم

عندما يغنى (سريع مثل الريح) .

إذا رسمت هذه الخطوط الفاصلة حقا فسوف تكون النتيجة وجه أمرأة سمينة بتسريحة يابانية ذات طراز قديم .



فى توموى حيث يسمح للتلاميذ أن يدرسوا موضوعاتهم بأى طريقة تسرهم فإنه سيكون محرجا أن يترك الأطفال أنفسهم يتضايقون من عمل أى إنسان آخر ، ولقد كانوا مدربين على أن لايهتموا بما يدور حولهم ، ولهذا لم يهتم أحد بهذا الطفل الذى كان يغنى بصوت مرتفع عند رسمه للسيدة السمينة بل إن واحدا أو اثنين قد انضما إليه ولكن الآخرين كانوا يتذوقون ما فى كتبهم .

وكان كتاب توتوتشن حول قصة شعبية . وكان عن ابنة رجل غنى لم تتزوج لأنها كانت دائما تخرج رائحة كريهة ، وأخيرا تمكن والدها من العثور على زوج لها ، ولكنها كانت مضطربة فى ليلة زفافها لدرجة أنها أخرجت ريحا قويا أزاح الزوج عن سريره وجعله يلف سبع مرات ونصف حول السرير ثم دفعه دفعة أطاحت بعقله . وكانت الصورة التى كانت أكثر تسلية ولهوا تلك التى عرضته طائرا خلال الغرفة . وبعد ذلك كثر الطلب على هذا الكتاب بدرجة كبيرة .

كل تلاميذ المدرسة الذين ازدحموا فى عربة القطار كالسردين التهموا الكتب بشغف من الصباح عندما انتشر ضوء الشمس ودخل من خلال النوافذ

بدرجة ـ أنهم أهدوا منظرا جميلا يسر قلب مدير المدرسة . وقد قضوا طوال هذا اليوم فى المكتبة وبعد ذلك ، إذا لم يستطع التلاميذ أن يخرجوا بسبب المطر أو فى أى وقت آخر فإن المكتبة تصبح أفضل مكان لاجتماعهم . ولذلك قال المدير يوماما :

ـ أظن أنه من الأفضل بناء دورة مياة قريبة من المكتبة وذلك لأن الأطفال سيستغرقون فى كتبهم حتى آخر لحظة ثم يندفعون إلى دورة المياه وراء صالة الاجتماعات وأجسامهم فى حالات تقلصات غريبة .

ذيل :

كان الوقت بعد الظهر وقد انتهى اليوم الدراسى وكانت توتوتشن تستعد للعودة إلى المنزل عندما أتى أوى جريا إليها وهمس لها :

ـ المدير غاضب مع بعض الناس . فسألته توتوتشن :

ـ أين ؟

لقد اندهشت لأنها لم تسمع أبدا أن المدير غضبان ، وكان واضحا أيضا اندهاش أوى من الطريقة التى جاء بها يجرى مسرعا ليخبرها .

ـ إنهم فى المطبخ .

قال ذلك أوى وقد فتحت عيناه الواسعتان بطبيعتها الطيبة واتسعت فتحتا أنفه الخارجيتان قليلا .

ـ هيا نذهب .

أمسكت توتوتشن يد أوى وجريا نحو بيت المدير ، وكان ملاصقا لصالة الاجتماعات وكان المطبخ يمينا بالقرب من المدخل الخلفى إلى فناء المدرسة وهذا المطبخ هو الذى أخذت إليه توتوتشن عندما وقعت فى البالوعة وأدخلت دورة المياه للاستحمام وتنظيف ماعلق بها من الأقذار . وفى هذا المطبخ أيضا كان

يطبخ الشيء الذى من البحر والشيء الذى من البر ليقدم عند تناول طعام الغداء .

وعندما تقدما على أطراف أصابعهما نحو المطبخ سمعا صوت المدير العاضب من خلال الباب المغلق :

ـ ما الذى جعلك تقولين بغير تعقل تاكاهاشى أن له ذيلا ؟!

فسمعا المدرسة تقول :

ـ أنا لم أقصد هذا المعنى بجدية ، وإنما الذى حدث أنى لاحظته فى هذا الوقت ، وقد بدا ذكياً جداً .

ـ لكن ألا ترين مدى جدية ما قلت ؟ ماذا أستطيع أن أفعل لأجعلك تفهمين مدى العناية التى أعملها خاصة مع تاكاهاشى ؟

فتذكرت توتوتشن ماذا حدث فى الفصل هذا الصباح . لقد أخبرتهم مدرسة الفصل أن الناس أصلا كانت لهم ذيول ، فظن الأطفال أن هذه فكاهة عظيمة ، والكبار ربما يسمون قولها هذا مدخلا إلى نظرية النشوء والارتقاء. لقد أعجبت الأطفال إعجابا عظيما ، وعندما أخبرتهم المدرسة أن كل واحد عنده أثر هذا الذيل ويسمى العصعص بدأ كل واحد متعجبا يبحث : أين هذا الأثر عنده ، وسريعا أصبح الفصل فى ضجيج . وأخيرا قالت المدرسة مازحة :

ـ ربما يوجد هنا .. واحد لايزال له ذيل ! ! ماذا بخصوصك يا تاكاهاشى ؟

وقف تاكاهاشى سريعا وهز رأسه بشدة وقال فى غبرة مهلكة :

ـ أنا ليس عندى ذيل .

تحققت توتوتشن أن المدير كان يتحدث عن هذا وقد تحول صوته من الغضب إلى الحزن . يقول :

ـ هل خطر لك أن تفكرى ماذا يكون شعور تاكاهاشى إذا سئل هل له ذيل ؟ ولم يسمع الطفلان ماذا كان جواب المدرسة لم تفهم توتوتشن لماذا كان المدير غاضبا هكذا من الذيل !

ولقد أحبت أن يسألها السيد المدير إذا كان لها ذيل .

بالطبع إنها ليس عندها عيب فى جسمها ولهذا فلا بأس أن تسأل مثل هذا السؤال ولكن جسم تاكاهاشى قد توقف عن النمو وهو يعرف ذلك ، وكان هذا السبب الذى حدا بالمدير أن يفكر يوم الرياضة فى ألعاب يمكن لتاكاهاشى أن يؤديها بطريقة حسنة فمثلا تركهم يسبحون فى حمام السباحة من غير أن يلبسوا المايوهات حتى يمكن أن يفقد الأطفال مثل تاكاهاشى ـ شعورهم بالخجل لقد عمل المدير كل جهده ليساعد الأطفال المعوقين مثل تاكاهاشى وياسواكى تش أن يتخلصوا من مركب النقص والشعور الداخلى نحو الآخرين .

لقد كان كل هذا وراء مفهوم المدير كيف يمكن لكل واحد أن يكون غير مكترث ليسأل أمثال تاكاهاشى ـ بالرغم من ذكائه ـ هل له ذيل ؟.

لقد حدث أن زار المدير هذا الفصل ووقف فى مؤخرته عندما قالت المدرسة باكية وكانت توتوتشن تسمع ماتقول :

ـ إنها كانت غلطة فظيعة منى . ماذا أستطيع أن أعمل لاعتذار إلى تاكاهاشى ؟

قال المدير :

لاشيء .

ولم تستطع توتوتشن أن تراه من خلال الباب الزجاجى ولكنها ودت لو كانت معه . ومع أنها لاتدرى ماذا كان بعد ذلك ولكنها عرفت أكثر من ذى قبل أن المدير صديق لهم . أوى يجب أن يكون قد أحس كذلك أيضا . ولا يمكن أن تنسى توتوتشن كيف أن المدير وبخ مدرسة الفصل فى مطبخه وليس فى حجرة المدرسين حيث يجتمع جميع المدرسين وهذا يدل على أنه كان معلما بكل ماتحتوى هذه الكلمة من معنى ، ومع أن توتوتشن لم تعرف ذلك فى هذا الوقت فإن جرس صوته وكلماته بقيت فى قلبها إلى الأبد .

إنه كان وقت الربيع الثانى لتوتوتشن فى تومووى وابتداء السنة الجديدة بالمدرسة .

الربيع الثانى لها فى تومووى :

كانت الأوراق الخضراء اللينة نابتة على جميع الأشجار فى فناء المدرسة وكانت الأزهار فى الأحواض كثيرة حركات التفتح : الزعفران والنرجس الأصفر وزهرة الثالوث أطلت من رءوسها بدورها لتقول لأطفال تومووى (كيف حالكم ؟) وأزهار الخزامى أطالت سيقانها كأنها تمد نفسها وبراعم الساكورا تهتز فى النسيم العليل كلها مستعدة ومنتظرة الإشارة لتنطلق فى التفتح . الأسماك السوداء جاحظة العينين تتبعها الباقى من الأسماك الذهبية اللون التى تعيش فى حوض صغير مستدير من الأسمنت لغسل أقدام التلاميذ بجانب حمام السباحة ، كل هذه الأسماك اهتزت بنفسها ثم بدأت تعوم سعيدة فرحة .

لم يكن هناك حاجة لأن تقول : « إنه الربيع » الفصل الذى يبدو فيه كل شىء زاهيا وجديدا وحيالا يحتاج إلى الإعلان . كل واحد يعلم أنه الربيع .

إنها كانت سنة تماما منذ الصباح التى وصلت فيه توتوتشن وأمها إلى مدرسة تومووى وكانت مندهشة حينما وجدت بوابة خارجة من الأرض وكانت مضطربة حينما رأت فصول الدراسة فى قطار لدرجة أنها قفزت أعلى وأسفل ، وكانت متأكدة أن المدير سوساكو كوباياشى كان صديقها .

الآن سرت توتوتشن وزملاؤها فى موقعهم الجديد كتلاميذ فى السنة الثانية بينما

حضر تلاميذ السنة الأولى ينظرون حولهم بحب استطلاع كما فعلت توتوتشن وزملاؤها تماما . لقد كانت هذه السنة بالنسبة لتوتوتشن مليئة بالأحداث وكانت تنظر بشغف إلى كل صباح منها . إنها لا تزال تحب موسيقى الشارع ولكنها تعلمت كثيرا وكثيرا من الأشياء المحيطة بها والبنت الصغيرة التى طردت لأنها كانت مزعجة كبرت وصارت تلميذة تستحق الالتحاق بمدرسة توموى .

بعض الآباء خالجهم الشك فى طريقة التعليم فى توموى . وكانوا فى بعض الأوقات حتى والدى توتوتشن ـ يفكرون : ياهل ترى هم قد فعلوا الشىء الصحيح ؟ ومن بين الآباء الذين اعتبروا نظام تعليم كوباياشى مشكوكا فيه وحكموا عليه أنه ظاهرى تماما بما رأوه وبعضهم كان منزعجا من ترك أولادهم فى هذه المدرسة لدرجة أنهم أعدوا لنقل أولادهم إلى مكان آخر ، ولكن الأطفال أنفسهم لم يريدوا أن يتركوا توموى وبكوا . ولحسن الحظ لم يكن هناك أحد من فصل توتوتشن سيترك المدرسة ، ولكن طفلا فى فصل أعلى من فصل توتوتشن ـ وقد جرت دموعه على خدوده ـ أظهر يأسه بدقه على ظهر المدير بقبضة يده وقد قشرت ركبته المجروحة وتدلت القشرة طول الوقت بينما كانت عينا المدير محمرتين من البكاء وأخيرا سحب الوالدان ولدهما من المدرسة ، وكان وهو ذاهب ، يتلفت حوله ثم يلوح بيديه مرة بعد مرة ولم يكن هناك كثير من المناسبات المحزنة مثل ذلك والآن أصبحت توتوتشن تلميذة فى الصف الثانى ومعها توقعاتها لأمور يومية أعجب وأسرّ . وفى هذا الوقت كانت حقيبة توتوتشن وظهرها قد أصبحا على معرفة تامة وصارا أليفين لايحب أحدهما أن يفارق الآخر .

بحيرة البجع :

أخذت توتوتشن إلى صالة هببيا لترى باليه بحيرة البجع ، وكان أبوها يعزف بالكمان عزفا منفردا وكانت هناك فرقة باليه لطيفة للأداء . وكانت هذه أول مرة لتوتوتشن لتحضر الباليه . وقد لبست ملكة البجع تاجا صغيرا لامعا على رأسها وكانت تقفز فى الهواء بخفة مثل البجعة الحقيقية أو هكذا بدت لتوتوتشن ، وقد وقع الأمير فى حب ملكة البجع ورفض كل الأخريات ، وأخير رقص الاثنان معا برقة وحنان كأنهما عاشقان ، وقد أثرت الموسيقى أيضا تأثيرا كبيرا فى توتوتشن وعندما عادت إلى المنزل لم تستطع أن توقف تفكيرها فى ذلك ، وفى اليوم التالى عندما استيقظت من النوم ذهبت فورا إلى أمها فى المطبخ من غير أن تمشط شعرها وقالت :

ـ لم أعد أريد أن أكون جاسوسة أو موسيقية فى الشارع أو بائعة تذاكر ، أنا سأكون راقصة باليه وأرقص فى بحيرة البجع .

لم يبد على الأم دهشة وقالت :

ـ أوه .

لقد كانت أول مرة لتوتوتشن لتشاهد الباليه وكانت قد سمعت كثيرا من المدير عن (إسادورا دنكن) السيدة الأمريكية التى رقصت رقصا جميلا. لقد تأثرت

السيدة الأمريكية كما تأثر كوباياشي بدالكروز ، ومادام كوباياشي الذى تُعجب به قد أحب إسادورا دنكن فإن هذا يكفى لتوتوتشن وان كانت لم ترها ترقص فإنها تشعر كأنها تعرفها ، لهذا فإنه ليس أمرا غريبا لتوتوتشن أن تكون راقصة باليه .

ولحسن الحظ كان هناك صديق للأستاذ كوباياشي وهو معلم لفن الإيقاع فى مدرسة وله قاعة للتدريب على رقص الباليه بالقرب من المدرسة . فرتبت الأم لتوتوتشن إن تأخذ دروسا عنده بعد خروجها من المدرسة . ولم تكن الأم لتأمر توتوتشن بهذا أو بذاك ولكن توتوتشن إذا أرادت شيئا فإن الأم توافق ومن غير أن تسأل أى سؤال فإنها تذهب وتعمل كل الإجراءات .

بدأت توتوتشن دروس رقص الباليه فى الاستديو متشوقة إلى اليوم الذى تكون فيه قادرة على أداء رقصة بحيرة البجع ، ولكن الأستاذ له طريقته الخاصة بجانب فن الإيقاع الذى يدرسونه فى توموى . إنه يترك الأطفال يسيرون سيرا خفيفا على البيانو أو موسيقى الفوتوغراف ويكرر لهم بعض الجمل مثل « ومضة فوق الجبل » من الصلاة « طهر روحى أوه ومضة فوق الجبل » التى ينشدها الحجاج عندما يتسلقون جبل فوجى . وفجأة يصيح المدرس « وضْعْ » وحينئذ يقف الأطفال كل عند وضع قد اتخذه كل منهم وهو أيضا يتخذ لنفسه وضعا بصرخة انفعالية مثل (آتش) ثم ينظر عاليا إلى وضع السماء أو فى بعض الأوقات وضع شخص يتألم أو يموت جالسا القرفصاء ويمسك رأسه بكلتا يديه ، خيال حفظته توتوتشن فى عقلها ، وعلى أى الحالات ، ذلك وضع بجعة تلبس تاجا زاهيا وثوبا أبيض ذا أهداب . وقد كان ذلك ليس بومضة فوق الجبل ولا بآتش التى كان يقولها قبل ذلك .

وفى يوم من الأيام استجمعت توتوتشن شجاعتها ثم ذهبت إلى المدرس . ومع أنه رجل فقد كان له شعر مجعد وقصة شعر مستقيمة فوق جبينه . فمدت توتوتشن ذراعيها إلى جانبيها ورفرفت بهما مثل جناحى البجعة وسألته :

ـ هل سنستطيع أن نفعل شيئا مثل هذا ؟

لقد كان المدرس رجلا وجيها بعينين مستديرتين كبيرتين وأنف أقنى . أجابها :

ـ نحن لانعمل هذا النوع من الرقص هنا . وبعد ذلك توقفت توتوتشن من الذهاب إلى هذا الاستديو .

والحقيقة أن توتوتشن كانت تحب القفز بدون حذاء ولاتلبس حذاء الباليه وترقص بالأوضاع التى تبتكرها بنفسها وبعد كل ذلك فإنها كانت تود أن تلبس واحدا من هذه التيجان المتألقة . قال الأستاذ لتوتوتشن قبل وداعها :

رقصة بحيرة البجع حسن ، ولكن أود أن تكونى قد أحببت الرقص حسب ماكنت تتخيلين .

لقد اكتشفت توتوتشن بعد سنوات أن اسمه كان (باكوإيشى) وأنه هو الذى أدخل البالية الحر إلى اليابان ، وهو الذى أعطى للمنطقة اسم جيوغاؤكا (تل الحرية) بالاضافة إلى أنه كان فى الخمسين من عمره ، وهذا الرجل هو الذى حاول أن يعلم توتوتشن الرقص بحرية ويدخل على قلبها الفرح والسرور .

أستاذ التربية الزراعية :

قدم المدير مدرسا جديدا اليوم إلى التلاميذ بهذه الكلمات :

ـ « هذا هو مدرسكم اليوم ، إنه سيريكم كل أنواع الأشياء » .

فنظرت توتوتشن إليه نظرة فاحصة . أولا ، إنه لايلبس كما يلبس المدرسون مطلقا ، فقد كان يرتدى بدلة تتكون من جاكتة عمل مخططه قصيرة من القطن تحتها قميص وقد لف فوطة حول عنقه بدلاً من الكرافت وكان بنطلونه من القطن المصبوغ بلون أزرق بأرجل ضيقة ومملوءا بالرقاع من كثرة الخروق التى فيه ، وبدلا من الحذاء فإنه كان يلبس جوريا ذا أصبعين من المطاط السميك ، وعلى رأسه كان يلبس قبعة مهدمة من القش :

لقد كان التلاميذ مجتمعين بجانب بركة عند معب كوهنبتسو ، ولما نظرت إليه توتوتشن فكرت أنها قد رأته من قبل ، ولكن أين ؟ فكانت مندهشة . لقد لوحت الشمس وجهه الكريم الذى امتلأ بالتجاعيد حتى غليونه النحيل المعلق فى شريط أسود ـ ويستخدم كحزام حول وسطه ـ كان مألوفا . وتذكرت فجأة فسألته وهى فى سعادة غامرة :

ـ ألست الفلاح الذى يعمل فى الحقل بجوار هذا الجدول ؟

أجاب المدرس مبتسما وقد تجعد وجهه وظهرت أسنانه البيضاء :

ـ هذا صحيح . أنت تمرّين ببيتى كلما ذهبت سائرة إلى معبد كوهنبتسو ، ذاك هو حقلى المملوء بأزهار الخردل الصفراء . صرخ الأولاد وصرخت توتوتشن مسرورين :

ـ أوه ، لهذا أنت ستكون معلمنا اليوم ؟ فقال محركا يده أمام وجهه :

ـ لا ، أنا لست معلما وإنما أنا فلاح ، لقد طلب منى المدير أن أفعل ذلك ، هذا كل الموضوع . قال المدير وقد وقف بجانبه .

ـ أوه ، نعم . هو معلمكم الزراعى ، لقد وافق من فضله أن يعلمكم كيف تزرعون حقلا ، كما يعلمكم الخباز كيف تعملون خبزا ثم قال للفلاح :

ـ حينئذ أخبر التلاميذ ماذا يفعلون ثم دعنا نبدأ .

فى المدارس الابتدائية العادية يحتاج المدرس الذى يعلم التلاميذ أى شىء إلى مؤهلات لهذا التدريس ولكن السيد كوباياشى لايهتم بذلك وإنما يهمه أن يتعلم التلاميذ بالنظر الطبيعى حقائق الأشياء المبنية على التجربة فقال المدرس الفلاح :

ـ دعنا نبدأ إذن .

كان تجمع التلاميذ فى مكان خاص هادئ جميل بجانب بحيرة كوهنبتسو الصغيرة التى تظللها الأشجار . ولقد خصص السيد المدير نصف عربة القطار هناك ليودع فيه الأدوات الزراعية التى يستخدمها التلاميذ مثل الفأس والجاروف . وقد وضع تماما فى وسط قطعة الأرض التى سيزرعها الأطفال . أمر الفلاح المعلم الأطفال أن يأخذوا الفئوس والجواريف من العربة وبدأ المعلم فى نزع الأعشاب الضارة ثم شرح لهم كل شىء عن هذه الأعشاب : كيف أنها

صعبة وشاقة فى انتزاعها ، وكيف ينمو بعضها أسرع من النبات وتخبئ الشمس عنه ، وكيف أنها مكان جيد لإخفاء الحشرات ، وكيف تكون بالغة الضرر لامتصاصها الغذاء من التربة ، وأخذ يعلمهم شيئا فشيئا فى أثناء نزعه العشب ولم تتوقف يده عن ذلك ، وفعل التلاميذ مثله ، ثم علمهم كيف يقلبون الأرض بالفئوس وكيف يشقون الأرض بالمحراث وكيف يسمدونها . وكل شىء آخر يجب عمله لنمو المزروعات فى الحقل شرحه لهم ووضحه عمليا .

وبينما هم فى ذلك إذ أخرج ثعبان صغير رأسه وكاد يعض التلميذ تاتشن وهو واحد من الأولاد الكبار ولكن الفلاح المعلم أكد له قائلا ليطمئنه :

ـ الثعابين هنا ليست سامة ولاتضر إلا من يضرها .

وبجانب تعليم الأطفال كيف يزرعون الحقل ، علمهم الفلاح المعلم الأشياء الهامة عن الحشرات والطيور والفراشات والجو وعن كل أنواع الأشياء الأخرى . والعقد التى فى يديه القويتين تشهد أن كل ما أخبر الأطفال به قد اكتشفه من خلال تجاربه .

لقد كان الأطفال يتصببون عرقا عندما انتهوا من زراعة الحقل بمساعدة الفلاح المعلم ماعدا بعض خطوط المحراث التى مازالت غير مستوية قليلاً .

لقد كان حقلا جميلا من أى ناحية تنظر إليه وليس فيه أى خطأ .

من ذلك اليوم فصاعدا وضع الأطفال ذلك الفلاح فى عين الاحترام والتقدير وفى أى وقت رأوه حتى من مسافة بعيده فإنهم يصيحون :

ـ هناك معلمنا الفلاح .

وفى أى وقت إذا بقى بعض السماد فإنه يحضره معه ثم ينثره فى حقل التلاميذ

فنمت مزروعاتهم بطريقة جيدة ، وفى كل يوم يذهب بعضهم إلى الحقل ويخبر المدير والأطفال الآخرين عن حالة الزرع . ولقد عرف الأطفال كيف تكون الدهشة والفرحة عندما يرون البذور التى زرعوها بأنفسهم تنبت وعندما يجتمع اثنان أو ثلاثة سويا يتحول حديثهم نحو التقدم فى حقلهم .

ومع أنه كانت قد بدأت حوادث مزعجة فى أنحاء شتى من العالم .

فإن الأطفال الذين كانوا يتناقشون بحرارة فى شئون حقلهم الجميل كانوا لايزالون يرتعون فى أحضان قلب السلام .

طهى فى الحقول :

بعد انتهاء المدرسة فى يوم من الأيام خرجت توتوتشن من البوابة من غير أن تتكلم مع أى واحد أو حتى تقول « إلى اللقاء » ثم أسرعت إلى محطة جيوغاؤكا وهى تهمهم إلى نفسها على طول الطريق « وادى تودو روكى طهى فى الحقول . وادى تودو روكى طهى فى الحقول » وظلت تكررها خشية أن تنساها وكانت تخشى أن يكلمها أحد فى الطريق بكلمة تعلق فى ذهنها فتنسيها هذه الجملة أو يحدث لها أى حادث تتكلم بمناسبته بعض الكلمات فتنسيها إياها مثلا يقابلها بركة صغيرة فى الطريق تحاول أن تقفز عليها وتقول « هب هب » فتعلق فى ذهنها كلمة « هب هب » وتنسى الجملة « وادى تودو روكى طهى فى الحقول » المهم أنها استمرت تهمهم بها حتى لاتنساها . وشكرا للظروف فلم يكلمها أحد ولم تمر بالبركة الصغيرة التى يتعين عليها أن تقفزها ، ولم تحاول أن تكتشف شيئا مهما ، وبهذا تمكنت أن تصل إلى المحطة ، ولقد أراد عامل المحطة أن يكلمها وقال لها :

ـ هالوه هل رجعت ؟ .

فخشيت أن ترد عليه فيختلط عقلها فتنسى الجملة فلوحت له بيدها ثم جرت إلى المنزل . وفى اللحظة التى وصلت أمام المنزل صاحت لأمها بأعلى صوتها :

ـ وادى تودو روكى طهى فى الحقول !

ظنت الأم أن توتوتشن تقلد صرخات لاعبى الجودو أو صوت السبعة

والأربعين ساموراى عندما هجموا على عدوهم للانتقام ثم عرفت فورا معنى هذه الكلمات .

بالقرب من محطة تودوروكى التى بينها وبين جيوغاؤكا ثلاث محطات يوجد مكان اسم (تودوركى كيكوكر) وهو أحد أماكن طوكيو الصالحة للسياحة مشهور بالمناظر الجميلة وفيه وادى تودوروكى وشلال وجدول وشجر جميل هكذا عرفت الأم معنى (وادى تودوروكى) وأما بخصوص كلمة (طهى فى الحقول) . فقد فهمت الأم أن التلاميذ سوف يقومون بالطهى فيه ويأكلون هناك . دهشت أمها ، كيف تحفظ هذه الكلمات الصعبة ؟ ولكن من الممكن أن يحفظ الأطفال شيئا إذا أحبوه .

بعد أن تحررت توتوتشن من هذه الكلمات الصعبة أعطت أمها التفاصيل بخصوص هذا الموضوع واحدة بعد الأخرى . سيجتمع التلاميذ فى المدرسة فى صباح الجمعة التالية ، وسيحضر كل واحد معه سلطانية للحساء وأخرى للأرز و « هاشى »* وكوبا من الأرز غير المطبوخ وأضافت ما تذكرته من قول المدير أنها ستصبح كوبين مملوءتين بعد طبخها ، وسيعملون حساء اللحم أيضا ولهذا فإنها تحتاج بعض اللحم والخضراوات ، ويستطيعون أن يحضروا شيئا من الحلوى إذا أرادوا .

فى الأيام القليلة التالية وقفت توتوتشن مع أمها فى المطبخ ولاحظت بعناية كيف استعملت السكين وكيف أمسكت القدر وكيف انضجت الأرز . لقد كان لطيفا أن تراقب عمل أمها فى المطبخ ولكن توتوتشن أحبت طريقة أمها عندما تلمس شيئا ساخنا فتقول : « أوه ، أنه ساخن » وبسرعة تمسك بأصبيعها

(*) عصاتان رفيعتان من الخشب يؤكل الأرز بها بدلا من الملعقة أو الشوكة

السبابة والإبهام حلمة أذنها وقد شرحت لها أمها السبب :

ـ هذا لأن حلمتى الأذنين باردتان .

هذه الحركات التى شاهدتها أثرت فيها كما لو كانت امرأة كبيرة وكانت شاهدا على المهارة فى أعمال المطبخ . فقالت لنفسها :

ـ عندما نطهو فى حقل وادى تودوروكى سأفعل مثل هذا أيضا .



جاء يوم الجمعة أخيرا . وعندما وصلوا وادى تودوروكى ونزلوا من القطار ، راقب المدير اجتماع التلاميذ بين الأشجار وكانت وجوههم العزيزة الصغيرة متألقة فى ضوء الشمس عندما سطعت عليهم من خلال الأشجار الطويلة وقد انتظروا ما يقول المدير بحقائبهم الممتلئة بينما كان وراءهم الشلال الشهير يندفع تيار الماء منه فيحدث إيقاعا جميلا .

قال المدير :

ـ إذن الآن ، أول شيء دعونا ننقسم إلى مجموعات ونصنع الكوانين بالطوب الذى أحضره المدرسون ، وبعضكم يغسل الأرز فى جدول الماء ثم يضعونه على النار للطهى ، وبعد ذلك سنبدأ فى عمل حساء اللحم . الآن إذن . هل نبدأ ؟

أجرى الأطفال القرعة بطريقتهم الخاصة (جانكين) لمعرفة عدد الأطفال فى كل مجموعة ولأن عدد التلاميذ قليل (حوالى خمسين فقط) فإن القرعة لم تأخذ وقتا طويلا حتى تكون ست مجموعات ، ثم حفرت الحفر وأحبطت بالطوب ثم وضع قضيب من الحديد عليه ليساعد على حمل قدور الحساء والأرز ، وبينما كان هذا العمل مستمرا كان بعضهم يجمع الخشب للنار من الغابة ، وذهب آخرون ليغسلوا الأرز فى النهر .

لقد حدد الأطفال بأنفسهم أعمالهم المختلفة . عرضت توتوتشن أن تقوم بتقطيع الخضراوات وتعمل حساء اللحم . وقد رشح ولد آخر أكبر بسنتين من توتوتشن لتقطيع الخضروات ولكنه قطعها أجزاء إما صغيرة جدا وإما كبيرة جدا وعمل كوما كبيرا من ذلك وقد عمل باجتهاد كالرجال فى هذا حتى نضج العرق منه ولمعت أنفه من العرق ، أما توتوتشن فقد اتبعت طريقة أمها وبمهارة قطعت الباذنجان والبطاطس والبصل والأرقطون (نبات فى اليابان) والخيار فى قطع صغيرة كحجم الفم ، وأخذت على عاتقها عمل الطرشى بواسطة تقطيع الباذنجان والخيار قطعا رفيعة ثم مزج هذه القطع بالملح ، ونصحت أيضا بعض التلاميذ الكبار الذين كانوا يحسون بالاضطراب فى أعمالهم ، وقد أحست توتوتشن حقيقة كأنها صارت أما وكان كل واحد مسرورا من الطرشى التى عملته

فقالت توتوتشن بتواضع وقد أمسكت خاصرتيها بكفيها :

ـ أوه . أنا فكرت فقط أن أحاول وأرى هل أستطيع عمل شيء ؟

وعند مذاق حساء اللحم سئل كل واحد عن رأيه فتعالت أصوات المجموعات وضحكاتهم فاشتركت الطيور فى أشجارها مغردة ومزقزقة كأنها فرحة بفرحهم . وكانت تغريهم رائحة الطعام الجيدة التى كانت ترتفع من القدور .

إنه لم يسبق لواحد من الأطفال أن رآى شيئا يطبخ أو أن يضبط تدرج النار لطهى الطعام . كما أنهم فقط كانوا يأكلون مايقدم لهم على مائدتهم ، ولكن الابتهاج بطبخهم بعض الأشياء بأنفسهم مع مشقاتها ورؤية التغيرات المختلفة التى تحصل للعناصر الاساسية ، كل ذلك كان خبرة جديدة لهم .

وأخيرا ، فقد تم العمل على كل موقد مؤقت ، وجعل المدير التلاميذ على مسافات على الحشائش حيث يستطيع الجميع الجلوس فى دائرة وقد وضع أمام كل مجموعة قدر من الحساء وقدر آخر من الأرز ولكن توتوتشن رفضت أن تترك قدر الحساء الخاص بمجموعتها يؤخذ حتى تقوم هى بعمل شيء قررت أن تعمله . رفعت الغطاء الساخن ثم صاحت ـ بإدراك نوعا ـ : أوه . إنه ساخن . ثم وضعت أصابع يديها على حلمتى أذنيها ثم قالت :

ـ تستطيعون أن تأخذوا القدر الآن .

فحملت القدر إلى حيث كان الأطفال يجلسون متعجبين ما هذا الذى يرون ؟ ولم يبد أحد تأثرا مطلقا ، ولكن توتوتشن كانت مقتنعة بما فعلت .

لقد تركز انتباه كل واحد على سلاطين الأرز التى أمامهم وما تحتويه سلاطين الحساء . لقد كان الأطفال جياعا ، ولكن أولا وأخيرا ، إنها كانت الوجبة التى صنعوها بأنفسهم .

بعد أن غنى الأطفال « امضغ ... أمضغ ... أمضغ جيدا كل شيء تأكله » وقالوا : (اتياداكيماسو) يعنى سآكل شاكرا بدءوا يأكلون وانتشر الهدوء وكلهم صامتون فى الغابة وليس هناك صوت إلا صوت الشلال .

بلا شـك أنت بنت طيبة :

ـ بلا شك أنت بنت طيبة ، أنت تعرفين .

هذا ما اعتاد المدير قوله كلما رأى توتوتشن ، وكلما قال هو ذلك ابتسمت توتوتشن ثم قفزت وقالت :

ـ نعم أنا بنت طيبة .

وقد اعتقدت ذلك .

لقد كانت حقا بنتا طيبة فى كثير من الأمور : فقد كانت عطوفة مع كل واحد وبخاصة مع أصدقائها المعوقين وكانت تدافع عنهم وإذا ضايقهم الأطفال من المدارس الأخرى فإنها تقاتل هؤلاء المضايقين لهم حتى ولو أدى ذلك إلى بكائها ، وكذلك تعمل ماتستطيعه للعناية بالحيوانات المجروحة التى تقابلها ، ولكن فى نفس الوقت كان مدرسوها دائما يتعجبون من المشاكل العديدة التى تدخل نفسها فيها دائما فمثلا : إنها تحاول أن ترضى فضولها عندما تكتشف أى شىء غير عادى . وتجعل شعرها ضفيرتين وفى أثناء السير إلى اجتماع الصباح تخرج ضفيرتيها من تحت إبطيها . ومرة عندما كان دورها فى تنظيف الفصل لاحظت بعينيها الحادتين الباب الأرضى فى عربة الفصل ففتحته واسقطت فيه كل القمامة ، مع العلم أن هذا الباب مخصوص للتفتيش على الماكينات عندما كان قطارا

حقا . ولم تستطع أن تقوم بغلق هذا الباب بعد ذلك وسببت مضايقات كثيرة لكل واحد ، وعندما أخبرها بعض الأشخاص كيف تعلق اللحم فى الخطاطيف بت وتعلقت بذراعها فى قضيب خاص بالتمرينات الرياضية واستمرت مدة طويلة حتى رآها واحد من المدرسين فسألها ماذا تعملين ؟ فصاحت :

أنا اليوم قطعة من لحم البقر .

ثم بعد ذلك فقدت توازنها وسقطت إلى الأرض سقطة قوية انقطعت منها أنفاسها ولم تستطع الكلام طول اليوم . وطبعا كان هناك الوقت الذى قفزت فى البالوعة عندما سارت خلف المدرسة ووجدت ورق الجرائد الذى غطى البالوعة به عامل النظافة بعد رفع غطائها فقفزت عليه توتوتشن لتلعب فسقطت فى البالوعة حتى صدرها .

لقد كانت توتوتشن تفعل أشياء مثل هذه دائما وتؤلم نفسها ولكن المدير لم يرسل أبدا لأبيها وأمها ليخبرهما بأى شىء وكذلك مع التلاميذ الآخرين وقد كان المدير يقوم بحل كل المشاكل مع أصحابها من التلاميذ ، تماما كما سمع من توتوتشن أربع ساعات فى أول وصولها إلى المدرسة ، وهكذا فإنه يسمع دائما مايقوله التلميذ حول وقوع حادث ويسمع إلى اعتذاراتهم وإذا فعل التلميذ شيئا سيئا ويعرف أنه سىء فإن السيد المدير يقول له «.اعتذر الآن» .

وفى حالة توتوتشن فإن الشكاوى والمخاوف التى ترددت من آباء الأطفال والمدرسين من غير شك قد وصلت إلى آذان المدير ، وهذا هو السبب الذى جعل المدير إذا حانت الفرصة يقول لتوتوتشن :

«.بلاشك أنت بنت طيبة ، أنت تعرفين» وعندما يسمعه الناس الكبار

سيعرفون مغزى طريقته لتأكيد كلمة « بلا شك » والذى أراد المدير أن يجعل توتوتشن تفهمه هو شيء مثل هذا :

ـ بعض الناس ربما يفكرون أنك بنت ليست طيبة فى كثير من الأحيان . ولكن سجيتك حقا ليست رديئة وهذه المعاملة حسنة . وأنا مهتم جدا بذلك » وللأسف لم تفهم توتوتشن ما عناه المدير إلا بعد عشرات السنين . ومع أنها لم تفهم مايقصده المدير فإنه بكل تأكيد قد عمق فى نفسها الاعتقاد بأنها (بنت طيبة) ولقد كان يتردد فى قلبها صدى هذه الكلمة حتى عندما تكون على موعد فى مغامرة . وطالما قالت فى نفسها « شيء عجيب » عندما تأملت فى بعض الأشياء التى عملتها .

وفى أثناء مده بقاء توتوتشن فى توموى استمر السيد كوباياشى فى تكرار هذه الكلمات المهمة التى يبدو أنها قررت مسلكها فى الحياة .

« توتوتشن أنت بلاشك بنت طيبة ، أنت تعرفين » .

عـروس :

توتوتشن حزينة جدا .

لقد كانت فى الفرقة الثالثة وقد أحبت تايتشن كثيرا .

لقد كان شجاعا وجيدا فى علم الطبيعيات ، وقد درس الإنجليزية وهو الذى علمها كلمة ثعلب بالانجليزية . ولقد قال لها :

ـ هل تعلمين ما هى كلمة ثعلب بالإنجليزية ؟!إنها فوكس Fox فوكس .

لقد ارتاحت توتوتشن لصوت هذه الكلمة طول اليوم وبعد ذلك ، كان أول شىء تفعله دائما عندما تدخل الفصل فى عربة القطار هو أن تبرى كل الأقلام التى فى صندوق أقلام تايتشن جيدا بالمطواة . بينما لم تضايق أحدا بأقلامها فقد كانت تسنها بأسنانها ، وبالرغم من ذلك فإنه كان يكلمها بغلظة ، ولقد حدث فى أثناء تناول الغداء أن توتوتشن كانت تتجول خلف صالة الاجتماعات فى المكان الذى فيه البالوعة ذات الذكرى السيئة ، نادى تايتشن بصوت متعبس :

ـ توتوتشن .

توقفت مذعورة . تنفس تايتشن الصعداء ثم قال :

ـ عندما أكبر سوف لا أتزوجك مهما ألححت فى هذا الطلب .

وبعد أن قال هذا سار وعيناه إلى الأرض .

وقفت توتوتشن ذاهلة تنظر إليه حتى اختفى رأسه الكبير من ناظريها ، ذاك الرأس المملوء بالأفكار والتى أعجبت به كثيرا ، ذاك الرأس الذى كان يبدو أكبر من جسمه وقد اعتاد الأطفال أن ينادوه «العدد الكسرى».

وضعت توتوتشن يديها فى جيوبها وفكرت . إنها لم تتذكر أنها عملت أى شيء يغضبه ، ثم تحدثت فى يأس إلى ميوتشن زميلتها فى الفصل وبعد أن سمعت ميوتشن قالت بالتدقيق .

ــ لماذا ؟

ــ طبعا ، لأنك ألقيته خارج دائرة المصارعة اليوم .

إنه لم يكن مدهشا أنه خرج من الحلقة بهذه الطريقة لأن رأسه ثقيل جدا ، ولكنه لايزال غاضبا منك .



فندمت توتوتشن من أعماق قلبها .

نعم . إنه كان كذلك .

ما الذى جعلها تضرب الولد الذى أحبته كثيرا وكانت تبرى أقلامه كل يوم ؟

ولكن جاء هذا الندم متأخرا جدا .

إنها لن تكون أبدا زوجة له .

سأستمر فى برى كل أقلامه كالمعتاد . هكذا قررت توتوتشن وقالت :

ـ وبعد كل ذلك : أنا أحبه .

المدرسة الرديئة :

كان هناك جلجلة صوتية ـ نوع من المذاهب الموسيقية المملة ـ شائعة بين تلاميذ المدارس الابتدائية . وقد عملها الأطفال كثيرا عند مدرستها السابقة .

كان الأطفال فى هذه المدارس عندما يخرجون إلى منازلهم من بوابة المدرسة ينشدون بعض هذه الأناشيد المملة على سبيل الإشادة بمدرستهم فمثلا يقولون :

مـــدرســـتـــنـــا قـــديمة ودمـــيـــمـــة
ولـــكنهـــا فى الـــداخـــل جـــمـــيـــلـــة

وعندما يمر تلاميذ من مدرسة أخرى بهم وهم ينشدون ذلك فإنهم يعكسون النشيد على سبيل الإغاظة فيقولون :

مـــدرســـتـــكـــم من الخارج جـــمـــيـــلـــة
ولـــكنهـــا فى الـــداخـــل دمـــيـــمـــة

ثم ينهون النشيد بضجة عنيفة .

فى الجزء الأول جمال المدرسة أو دمامتها فى أن المدرسة جديدة أو قديمة والجزء المهم من النشيد هو الجزء الثانى الذى يعبر عن المدرسة من الداخل ، وحينئذ لا يهم إذا كان الجزء الأول يقول إن المدرسة دميمة من الخارج ولكن والمهم ما تحويه المدرسة من الداخل .

هذا النشيد ينشده فى الغالب خمسة أو ستة تلاميذ سويا وفى ذات يوم بعد انتهاء المدرسة كان الأطفال فى توموى يقضون وقتا فى الملعب كعادتهم وكانوا يستطيعون أن يقوموا بعمل أى شيء يحبون حتى يدق الجرس النهائى مؤذنا بمغادرتهم أرض المدرسة وذلك لأن المدير فكر أنه من المهم للتلاميذ أن يكون لهم فترة حرة بعد الدراسة يعملون فيها ما يريدون وكانت هذه الفترة فى توموى أطول من مثيلتها فى المدارس الابتدائية الأخرى وفى ذاك اليوم كان بعضهم يلعب الكرة وبعضهم صير نفسه قذرا باللعب على قضبان الحديد أو فى صناديق الرمل وبعضهم اعتنى بأحواض الزهور ، وبعض البنات الكبار كن يجلسن على درجات السلم يتحدثن وبعض التلاميذ كان يتسلق الأشجار كلهم كانوا يعملون مايريدون .

وبين هؤلاء كان قليل مثل تايتشن قد جلسوا وراء فصول الدراسة ليستمروا فى إجراء التجارب فى الطبيعيات وكانوا يغلون الدوارق لاجراء تجارب فى أنابيب اختبار . وكان هناك أطفال يقرءون فى المكتبة والطفل أماديرا الذى يحب الحيوانات كان ينعم النظر فى قطة ضالة وجدها ويديرها وينظر فى أذنيها . كانوا جميعا ممتعين أنفسهم كل فى طريقته الخاصة . وفجأة سمع صوت نشيد خارج المدرسة :

مدرسة توموى مدرسة قديمة ودميمة
وداخلها أيضا مدرسة قديمة ودميمة

ففكرت توتوتشن أن هذه أنشودة سيئة وقد تصادف أنها كانت بجانب بوابة المدرسة . (إنها ليست بوابه حقا ولكن الشجرتين اللتين كانتا فى مقدمتها كالعمودين قد كبرتا وصار لها أوراق خارجة منها) على أى الحالات ـ لقد سمعتهم

بكل وضوح فكانت غاضبة وكذلك الآخرون عندما تصوروا أن مدرستهم سيء من الداخل ومن الخارج كما يصفها هذا النشيد وقد حضروا مسرعين إلى البوابة . « مدرسة قديمة ودميمة » رددها أولاد المدرسة الأخرى ثم جروا محدثين ضجة عنيفة غير مؤدبين . لقد كانت توتوتشن غاضبة جدا فجرت خلف الأطفال بنفسها ولكنهم كانوا مسرعين بدرجة عظيمة وجروا فى شارع جانبى ثم اختفوا بنفس الشرعة ، وعندما عادت تسير أنشدت :

مدرسة توموى مدرسة بديعة

وبعد خطوات أضافت :

فى الداخل والخارج مدرسة بديعة

وقد أحبت هذه الأنشودة وارتاحت لها نفسها ، ولهذا عندما رجعت تظاهرت أنها من مدرسة أخرى ثم صاحت من خلال الأشجار التى سورت المدرسة بصوت عال حتى يستطيع كل واحد أن يسمعه :

مدرسة توموى مدرسة بديعة
فى الداخل والخارج مدرسة بديعة

فى أول الأمر لم يستطع الأطفال الذين كانوا يلعبون فى فناء المدرسة أن يتصوروا من هو؟ ولكن عندما تحققوا أنه من توتوتشن ذهبوا إلى خارج المدرسة وانضموا إليها وأخيرا تماسكوا بأذرعتهم وساروا حول المدرسة على طول الطريق ينشدون هذا سويا . وكانت قلوبهم أكثر تجمعا من أصواتهم وإن كانوا لم يحسوا ذلك وكلما داروا حول المدرسة كلما أحسوا بروح الوحدة .

مدرسة توموى مدرسة بديعة
فى الداخل والخارج مدرسة بديعة

لم يعرف الأطفال مدى سعادة المدير من إنشادهم عندما جلس يستمع فى مكتبة . وكان يجب أن يكون شعور المدرسين نفس هذا الشعور ، ولكن بالنسبة لهؤلاء الذين يعرفون طبيعة التلاميذ معرفة حقيقية فإنهم يعتبرون جرى تلاميذ المدرسة لابد أن يجر إلى سلسلة من المشكلات وبخاصة بطريقة أكثر لمدرسة مثل توموى حيث كل شىء فيها غير عادى . ولذلك لم تسلم المدرسة من الانتقاد من الناس الذين تعودوا على نظام تعليم أكثر راحة وهدوءا . وفى مثل هذه الظروف كانت أغنية الأطفال أحسن هدية يمكنهم تقديمها للمدير :

مدرسة توموى مدرسة بديعة
فى الداخل والخارج مدرسة بديعة

وفى ذلك اليوم دق جرس الأنصراف متأخرا عن المعتاد .

شـريط الشـعر :

فى ذات يوم أثناء وقت استراحة التلاميذ بعد تناولهم طعام الغداء كانت توتوتشن تقفز وتطفر عبر صالة الاجتماع عندما قابلت المدير. إنه من الشاذ أن نقول أنها قابلت المدير مع أنه كان معهم طول وقت الغداء ولكنها قابلته لأنه كان آتيا من الاتجاه المضاد . قال المدير :

ـ أوه !.. أنت هنا ، لقد كنت منتظرا أن أسالك فى بعض الأشياء .

فردت توتوتشن وهى مسرورة لأنها تستطيع أن تعطى المدير بعض المعلومات . فسألها ناظرا إلى الفيونكة التى فى شعرها :

ـ من أين حصلت على هذا الشريط ؟

فكان التعبير على وجهها أبلغ مايكون عن سعادتها . إنها كانت تلبس هذه الفيونكة منذ أمس ..إنها شىء قد وجدته بنفسها ثم تقدمت نحو المدير لتكون قريبة منه أكثر ليرى هذا الشريط جيدا وقالت بفخر واعتزاز :

ـ إنه كان فى ملابس عمتى المدرسة القديمة ، وقد شاهدته عندما كانت تضعه فى دولاب ثم أعطته لى وقالت عمتى : إنك قوية الملاحظة .

فقال المدير بعد تفكير عميق :

ـ هكذا .

لقد كانت توتوتشن فخورة جدا بهذا الشريط وأخبرته كيف أنها ذهبت لرؤية عمتها وكانت محظوظة أن تجدها وهى تهوّى بعض الملابس خوفا من العث ، وكان بين هذه الملابس جونلة طويلة طراز قديم أرجوانية ملفوفة كانت تلبسها عندما كانت تلميذة فى المدرسة ، وكانت عمتها قد وضعتها بعيدا وقد لاحظت توتوتشن بعض الأشياء جميلة عليها فسألت عمتها .

ـ ما هذا ؟

وعند سؤال توتوتشن توقفت عمتها عن ترتيب هذه الملابس وتحول هذا الشىء الجميل إلى هذا الشريط وكان قبل ذلك متصلا بالحزام السميك الذى يربط به الوسط عند الظهر عاليا بعض الشىء . قالت العمة :

ـ إنه كان من المفروض أن يجعلك جميلة من الخلف ولكن فى تلك الأيام كل واحد أراد أن يضع بدله قطعة من الدنتلة المشغولة باليد أو شريطا واسعا يربط فى الخلف على شكل فيونكة كبيرة .

ولقد لاحظت العمة كيف أن توتوتشن أطالت النظر إلى هذه الفيونكة وهى تسمع إلى هذا الحديث ثم ملست عليه بيدها لتتحسه ثم قالت :

ـ أنا سأعطيك إياه لأنى سوف لا أرتديه ثانيا .

ثم أخذت مقصا وقطعت الخيط الذى يصله بالجونلة ثم أعطته لتوتوتشن . هذا ما كان من أمر الحصول على هذا الشريط وقد كان حقا جميلا . إنه كان واسعا ومن الحرير الجيد جدا وفيه ورود وكل أنواع الرسوم منسوجة فيه ، وكان واسعا وعسيرا عند ربطه حتى إن الفيونكة التى ربطت منه كانت كبيرة فى حجم رأس توتوتشن وقالت العمة إن هذا القماش كان مستوردا .

وفى أثناء كلامها كانت أحيانا تهز رأسها فى بعض المناسبات ولهذا فإن المدير استطاع أن يسمع صوت خشخشة صنع الشريط ، وعندما سمع المدير قصتها كان منظره مغموما قليلا ، وقال :

ـ ولهذا كان ذاك . بالأمس ، ميوتشن قالت إنها تريد شريطا مثل هذا تماما فذهبت إلى كل محلات الشرائط فى جيوغاؤكا ولكنهم ليس عندهم شىء مثل هذا ، إنه مهم أليس كذلك ؟.

لقد كان وجهه وجه والد مهموم لعدم وجود ماتطلبه ابنته وليس وجه مدير ثم قال لتوتوتشن :

ـ ابنتى تهمنى كثيرا . ألا يمكن ان تحضرى إلى المدرسة دون ان تلبسى ذلك الشريط . إننى أشكر لك إن فعلت . هل ضقت بهذا الطلب ؟..

أمسكت توتوتشن يديها وفكرت فى هذا الأمر ثم قالت له :

ـ وهو كذلك ، سوف لا أرتدى هذا الشريط هنا بعد ذلك .

فقال المدير :

ـ أشكرك .

لقد كانت توتوتشن آسفة قليلاً ولكن المدير كان فى قلق ولهذا فإنها وافقت ، وسبب آخر هو أن التفكير فى هذا الرجل الكبير الذى تحبه باحثا هنا وهناك فى كل محلات الشرائط جعلها تحس بالأسف لأجله حيث لم يجد مايبحث عنه .

هكذا كانت الطريقة فى توموى من غير أن يفطنوا إلى المعانى . وأصبح كل واحد معتادا أن يفهم مشاكل الآخرين ثم يحاول أن يساعده بدون النظر إلى

السن . لقد أصبحت هذه العادة طبيعية بدون النظر إلى أى اعتبار .

فى الصباح التالى عندما ذهبت الأم إلى حجرة توتوتشن لتنظفها بعد خروجها إلى المدرسة وجدت الشريط مربوطا حول رقبة لعبة توتوتشن التى على شكل دب والتى تحبها كثيرا ، فتحيرت الأم :

لماذا تركت توتوتشن فجأة ارتداء الشريط الذى كانت تسر له ؟.

ولقد فكرت الأم أن الدب الرمادى يبدو فى حيرة نوعا ما لأنه زين بما يسره على حين فجأة .

زيارة الجرحى :

لأول مرة فى حياتها تزور توتوتشن المستشفى العسكرى وكان هذا المستشفى يضم جرحى الحرب ، ولقد ذهبت مع حوالى ثلاثين طفلا من المدارس الابتدائية المختلفة ولم تكن تعرفهم وكان هذا جزءا من خطة أعدتها الدولة . وكانت كل مدرسة ترسل عادة اثنين أو ثلاثة من الأطفال ولكن المدارس الصغيرة مثل توموى كانت ترسل واحدا فقط ويكون التلاميذ تحت إشراف واحد من المدرسين من إحدى المدارس . كانت توتوتشن ممثلة توموى وكانت المشرفة مدرسة نحيفة تلبس نظارة فقادت الأطفال إلى قسم فى المستشفى حيث يوجد خمسة عشر جنديا فى ملابسهم البيضاء وكان بعضهم فى أسرتهم والبعض الآخر يمشى قريبا وكانت توتوتشن مضطربة من هيئة الجرحى ولكنهم ابتسموا ثم لوحوا بأيديهم يبدو عليهم السرور لهذا فإنها اطمأنت بالرغم من أن بعضهم قد وضعوا عصابات على رءوسهم . فجمعت المدرسة الأطفال فى وسط القسم ثم خطبت الجرحى فقالت :

ـ لقد حضرنا لزيارتكم .

وكل الأطفال انحنوا للتحية .

واستمرت المدرسة فى الحديث :

ـ بما أن اليوم هو الخامس من مايو ـ يوم عيد الأطفال ـ فإننا سنغنى

أغنية « تعليق الشبوط » ثم رفعت ذراعيها مثل المايسترو وقالت :

ـ الآن مستعدون ؟! ثلاثة ـ أربعة ..

وبدأت تدق للوقت

ومع أن الأطفال لايعرف بعضهم بعضا فإنهم بدأوا يغنون بإخلاص قلبي أغنية من الأغاني الشعبية التي يحفظونها جميعا في مدارسهم لمثل هذه المناسبات وتبدأ هذه الأغنية :

موج من الخزف على أسقف المنازل
وموج من السحب في السماء .... ثم يكملونها

ولكن توتوتشن لم تكن تعرف هذه الأغنية لأنهم لم يعلموا هذا النوع من الأغاني في توموى فجلست على حافة سرير واحد من الجرحى وجهه سمح وكان جالسا ، واستمعت إلى الأطفال يغنون وهي تحس شيئا من الحرج . وبعد أن انتهوا من هذه الأغنية أعلنت المدرسة بوضوح تام :

الآن سنغني أغنية « عيد البنات » .
فغنوها بطريقة جيدة كلهم إلا توتوتشن :

تـعـال ودعـنـا نوقـد الـفوانـيس
أوقـدهـا واحـدا بـعـد الآخـر

لم يكن هناك شيء تستطيع توتوتشن عمله إلا أن تبقى ساكتة .

وعندما انتهوا جميعا من الغناء صفق الرجال فابتسمت المدرسة وقالت :

ـ وحينئذ الآن ، ماذا عن « الفرس الصغير وأمه » ؟

كلكم مع بعض ٣ ، ٤ وبدأت تدق الوقت مرة ثانية .

ولم تعرف توتوتشن هذه الأغنية أيضا وعندما انتهى الأطفال من الأغنية ، مسح الجندى الذى تجلس على سريره شعرها ثم قال لها :

ـ أنت لم تغنى .

فأحست توتوتشن بالأسف ، لأنها قد جاءت لزيارة الجرحى ولكنها لم تستطع أن تغنيهم أغنية واحدة ولهذا فإنها نهضت ثم وقفت على بعد قليل من السرير ثم قالت :

ـ وهو كذلك ، الآن سأغنى أغنية أعرفها .

كان شيئا سيحدث ولكنه ليس مطابقا للبروجرام . لهذا سألتها المدرسة :

ـ ماذا ستعلمين ؟

وكانت توتوتشن قد أخذت نفسا عميقا للغناء وكانت ستبدأ لولا سؤال المدرسة فقررت أن تنتظر . ولأن توتوتشن تمثل مدرسة تومودى فكرت أن تغنى أغنية تومودى المفضلة ، وبعد أن أخذت النفس العميق بدأت :

أمضغ ... أمضغ ... أمضغ جيدا

كل شىء تأكله ... ...

بعض التلاميذ ضحكوا وبعضهم أخذ يسأل من جاوره من التلاميذ .

ـ ماهذه الأغنية ؟ ماهذه الأغنية ؟

وبدأت المدرسة تدق للوقت .

ولكن لاتعرف ماذا تستطيع أن تعمل وظلت ذراعاها مرفوعتين فى الهواء

وتوتوتشن مرتبكة ولكنها غنت بكل قوتها :

امضغ .. امضغ .. أمضغ ... أمضغ
طعاملك من الأرز والسمك واللحم .

وبعد أن أنتهت من الغناء انحنت وعندما رفعت رأسها اندهشت حينما رأت الدموع تنهمر من عينى الجندى على وجهه فظنت أنها فعلت شيئا سيئا . وحينئذ مسح رأسها مرة أخرى ذلك الجندى الذى يبدو أنه أكبر سنا قليلا من والدها ثم قال :

ـ شكرا . شكرا .

واستمر يمسح على رأسها ولم يستطع أن يوقف دموعه .

وحينئذ قالت المدرسة بخفة لتزيل ذلك الموقف وكأنها تريد أن تدخل السرور على قلبه مرة أخرى :

ـ الآن أظن أن الوقت قد حان لنقرأ الموضوعات التى كتبناها للجنود .

وأخذ الأطفال يقرءون موضوعاتهم بصوت مرتفع واحدا تلو الآخر نظرت توتوتشن إلى الجندى فرأت عينيه وأنفه وقد احمرت ولكنه ابتسم فابتسمت هى أيضا ردا على ابتسامته وفكرت فى نفسها :

ـ أنا مسرورة جدا لأن الجندى قد ابتسم .

ماذا جعل الجندى يبكى ؟ هو فقط الذى يعلم . ربما يكون عنده بنت صغيرة مثل توتوتشن أو ربما هو تأثر ببساطة طريقتها التى غنت بها على قدر ماتستطيع أو ربما عرف من خلال تجربته فى واجهة الحرب مدى الأسف والحزن الذى يصيب الجبهة إذا نفذت المئونة وأن التفكير فى أغنية هذه البنت

الصغيرة (أمضغ جيدا) عندما لايكون هناك شيء يؤكل كل هذا ملأه حزنا ، وربما عرف مدى الخوف والرهبة التي ستغرق هؤلاء الأطفال .

هؤلاء الأطفال الذين يقرءون موضوعاتهم ربما لايعرفون أن حرب المحيط الهادى قد بدأت فعلا .

لحاء الشجر :

أطلعت توتوتشن مراقب المحطة الذى تعرفه ويعرفها فى محطة جيوغاؤكا على الاشتراك المعلق بخيط فى رقبتها ثم انسحبت من المحطة إلى جيوغاؤكا ولكنها رأت شيئاً يوجب الاهتمام فى طريقها : شابا يجلس متربعا على حصيرة وأمامه كومة من شىء يشبه قطعا من لحاء شجرة وحوله خمس أو ست أفراد ينظرون إليه . قررت توتوتشن أن تنظم إليهم لأن الرجل كان يقول :

ـ انظروا لى الآن بعناية ، انظروا إلى بعناية !

وعندما رآى توتوتشن توقف . ثم قال :

ـ أهم شىء لك هو الصحة ، عندما تستيقظ صباحا وتريد أن تعرف إذا كنت سليما أو غير سليم ، هذه القطعة من اللحاء ستخبرك ، كل ما عليك فى الصباح أن تمضغ قطعة صغيرة من هذا اللحاء فإذا وجدت مذاقه مرا فأنت مريض وإذا لم تجد فيه مرارة فأنت سليم ولست مريضا . هذا اللحاء الذى يخبرك إن كنت مريضا أو سليما يتكلف فقط عشرين سنا . حسنا . ذلك الرجل الذى هناك حاول أن تمضغ قطعة . ثم سلم اللحاء لرجل نحيف نوعا ما فعضها بأسنانه الأمامية خجلا ثم أمال رأسه بخفة ثم تذوقها :

ـ إنها تشبه .. قطعة صغيرة .. أوه .. مرّة ..

فقفز هذا الشاب واقفا وصاح :

ـ سيدى . لابد أنك تقاسى من بعض الأمراض . يجب أن تعتنى بصحتك ، ولكن لا تهتم ، إنه ليس خطيرا ، أنت قلت إنه يبدو مرا قليلا . الآن ماذا ترى السيدة التى هناك . هل تفكرين فى مضغ هذه من فضلك ؟

كانت امرأة ومعها سلة مشتريات فأخذت قطعة أكبر من اللحاء ثم مضغتها بشدة ثم أعلنت بسرور :

ـ لماذا . هذه ليست مرة مطلقا ؟

فقال لها الرجل :

ـ أهنيك يا مدام ، أنت تتمتعين بصحة جيدة حقا .

ثم بصوت مرتفع :

ـ فقط عشرون سنا ، عشرون سنا هذه كل التكاليف لتكشف كل صباح إذا كنت سليما أو مريضا إنها صفقة رابحة .

أرادت توتوتشن أن تحاول عض هذا اللحاء أيضا ولكنها خجلت أن تسأل وبدلا من ذلك فإنها سألته :

ـ هل ستظل هنا حتى تنتهى المدرسة ؟ :

فقال وقد نظر إلى هذه التلميذة الصغيرة :

ـ بكل تأكيد .

جرت توتوتشن وقد أخذت حقيبتها تهتز على ظهرها لأنها لاتريد أن تتأخر ولأن هناك شيئا يجب عليها أن تعمله قبل ابتداء المدرسة .

إنها يجب أن تسأل الأطفال شيئا فى اللحظة التى وصلت فيها إلى فصلها .

ـ هل يستطيع أى واحد أن يقرضنى عشرين سنا ؟

ولكن ليس هناك من يملك عشرين سنا .

واحد من بواكى الحلويات الطويلة يتكلف عشرة سنات ، ولهذا فإن عشرين سنا ليست نقودا كثيرة حقا ، ولكن لا واحد يملك هذا .

فقالت ميوتشن :

ـ هل أسأل والدىّ ؟

فى مثل هذا الوقت كان مريحا جدا أن ميوتشن كانت ابنة المدير وكان بيتها متصلا بصالة الاجتماعات ولهذا فإنه كان تماما كأن الأم تعيش فى المدرسة . قالت ميوتشن لتوتوتشن فى فترة الغداء :

ـ يقول والدى إنه سيقرضك هذا المبلغ ولكنه يريد أن يعرف لأى شيء هذا المبلغ ؟

فأخذت توتوتشن طريقها إلى المكتب فقال لها :

ـ هكذا أنت تريدين عشرين سنا ؟

ثم خلع نظارته وقال لها :

ـ لماذا تريدين هذا المبلغ ؟

فأجابت سريعا .

ـ أريد أن اشترى قطعة لحاء تخبرك إذا كنت سليما أو مريضا .

فازداد المدير حبا فى الاستطلاع :

ـ أين يبيعونها ؟

فأجابت بسرعة كبيرة :

ـ أمام المحطة .

ـ وهو كذلك ، ولكن واحدة إذا أردت ، ودعيني آخذ قطعة .

ثم أخذ حافظة نقوده من جيب جاكتته ثم وضع عشرين سنا فى كف توتوتشن .

ـ شكرا كثيرا . سآخذ هذه النقود من واللدني وسأردها لك . إنها تعطيني دائما نقودا لأجل الكتب أو أى شىء آخر أريد شراءه يجب أن أسأل أولا ، ولكن لحاء الصحة شىء يحتاجه كل واحد ولهذا فأنا متأكدة إنها سوف لا تبالى .

ولما انتهت الدراسة أسرعت توتوتشن إلى المحطة قابضة على العشرين سنا . وكان الرجل لايزال هناك مادحا فائدته فى تمتمة مرتفعة ، وعندما رأى العشرين سنا فى يد توتوتشن اندفع فى ابتسامة عريضة وقال :

ـ بنت طيبة ، أبوك وأمك سيكونان مسرورين .

فقالت له :

ـ وهكذا سيكون روكى .

قال لها وقد أمسك قطعة من اللحاء لها :

ـ من هو روكى ؟

فقالت له :

ـ إنه كلبنا . وهو ألمانى من فصيلة الشيبرد .

توقف الرجل وفكر دقيقة ثم قال :

ـ كلب ؟ ، حسنا ، أظن أنه أيضا يستعمل للكلب ولكن إذا كان مرا فإنه سوف لايحبه وهذا معناه أنه مريض .

ثم أخذ قطعة من اللحاء عرضها حوالى بوصة وطولها حوالى ست بوصات ثم قال لها :

ـ إذا شعرت بعد العض بالمرارة كل صباح فمعناه أنك مريضة وإذا لم تشعرى بمرارة فإنك فى صحة جيدة .

ذهبت توتوتشن إلى المنزل بعناية حاملة اللحاء الثمين ملفوفا فى ورق الجريدة . وكان أول شىء فعلته عندما دخلت المنزل هو أن أخذت قطعة صغيرة وقد كانت ناشفة وجامدة ولكن ليست مرة وفى الحقيقة إنها لم تتذوق أى شىء مطلقا فقالت :

ـ آه .. آه .. آه .. أنا فى أتم صحة .

فقالت الأم مبتسمة :

ـ طبعا أنت فى أتم صحة . ماذا حدث ؟

شرحت لها توتوتشن . فحاولت الأم عض قطعة من اللحاء أيضا : وقالت :

ـ إنه ليس مرا .

فقالت توتوتشن :

ـ إذن أنت أيضا فى صحة جيدة ياماما .

ثم ذهبت توتوتشن إلى روكى وقدمته له عند فمه فشمها روكى أولا ثم لعقها . فقال له توتوتشن يجب أن تعضها لتعرف إن كنت مريضا أو فى صحة جيدة ولكن روكى لم يعمل أى محاولة لبعضها ولكنه هرش خلف أذنه بمخالبه .

ثم اعادت تكرار المحاولة وقربت اللحاء بالقرب من فمه وقالت : عض ـ انك إذا كنت مريضا فسوف تكون مشكلة لك ؟

فعض روكى عضة خفيفة من طرف اللحاء ثم شم الرائحة فلم تكن مكروهة عنده ثم فتح فمه باتساع .

ـآه .. روكى أيضا بخير .

وفى اليوم التالى أعطتها أمها ٢٠ سنا .



وعندما وصلت إلى المدرسة ذهبت إلى غرفة المدير أولا وقدمت له اللحاء . فاضطرب المدير لأول وهلة وقال :

ـ ما هذا ؟

كانت اجابة توتوتشن هى أن أعطته ٢٠ سنا فتذكر لماذا طلبت ٢٠ سنا .

ـثم قالت :

عض وإن شعرت بمرارة فأنت مريض .

ثم فحص اللحاء جيدا وعضها .. وترقبت توتوتشن رد المدير.. ثم سألته :

ـ أتشعر بمرارة ؟

قال :

ـ لا أشعر بشىء .

ثم أعاد لها اللحاء وقالت بعد أن اطمأنت :

المدير أيضا بخير والحمد لله .

ثم جعلت كل المدرسة تعض على اللحاء وتبين أنهم أصحاء . أى أن كل طلاب تومَوى كانوا بخير. مما جعل توتوتشن فى غاية السعادة . ثم ذهبوا واحدا تلو الآخر لخبروا المدير أنهم بخير وكل مرة كان المدير يقول :

ـ حسنا .

ولكن المدير الذى جاء من الريف من محافظة «جونما» كان يعرف كثيرا مما يتعلق بالشجر والجبال والأنهار. وان اللحاء لا فائدة منه فى هذا الموضوع إلا أنه كان سعيدا لأن توتوتشن كانت سعيدة ولأن كل تلاميذ تومَوى أصحاء وهى التى كانت تقلق إذا شعر أحد بمرارة . هذا إن دل على شىء فإنه يدل على أن بذور الصفات الكريمة والعفة تنبت داخل توتوتشن .

وليس أدل على هذا من أنها حاولت تكرار هذا مع أحد الكلاب الضالة فى الشارع وبالقرب من المدرسة . عندما اقتربت منه كاد يعضها فصرخت . ولكنها قالت له بعد ذلك :

ـ لا تخف عض قليلا لكى تعلم عن صحتك .

وسرعان ما نجحت فى جعله يعض وعرفت أنه بخير فقالت له :

ـ أنت بخير.

ثم انحنى الكلب برأسه شكرا لها لمحاولتها الاطمئنان عليه . ثم جرى إلى مكان ما واختفى عن الأنظار وعن نظر توتوتشن ـ وهكذا كل يوم فى الصباح تخرج اللحاء من درج المكتب ثم تعض عليه وتقول :

إننى بخير.

ثم تخرج من البيت إلى المدرسة .

ويعتقد المدير أن الشاب لن يأتى إلى جيوغاؤكا مرة أخرى لأن كثيرا من الناس سوف يكتشفون أمره .

طفل يجيد الانكليزية :

اليوم جاء إلى توموى تلميذ جديد .. طويل .. عريض الجثة . ضخم بالنسبة لطالب ابتدائى .

وهذا جعل توتوتشن تعتقد أنه فى المرحلة الاعدادية . وخاصة أن ملابسه تختلف أيضا عنهم فيبدو وكأنه رجل كبير.

وفى الصباح قدم المدير التلميذ لكل الموجودين فى فناء المدرسة :

ـ هذا ميازاكى .. إنه وُلد فى الولايات المتحدة ونشأ بها فلا يجيد اللغة اليابانية .. جاء إلى توموى ليتصادق معكم فهو من اليوم من زملائكم . ولكن فى أى صف يكون ؟ ما رأيكم فى الصف الخامس ؟ أى صف تاتشن وآخرين .

تاتشن ولد طيب وله رسم جيد ـ قال وكأنه أخ كبير وبصوت خفيض :

ـ موافق .

فقال المدير بعد ابتسامة خفيفة .. مرة ثانية :

ـ إننى قلت إنه لا يجيد اليابانية ولكنه يجيد الانكليزية فالأجدر بكم أن تتعلموا الانكليزية منه ، كما أنه لم يتأقلم على الحياة اليابانية بعد فلابد وأن تساعدوه فى التعود على الحياة اليابانية .. ويمكنكم أن تستمعوا منه عن الحياة الأمريكية سوف

تسرون بها . فانحنى ميازاكى برأسه للتلاميذ فانحنوا أو لوحوا بأيديهم له أيضا وليس فقط من الصف الخامس ولكن كل التلاميذ . فى أثناء الراحة عندما ذهب ميازاكى إلى بيت المدير تبعه التلاميذ وعندما حاول اعتلاء التاتامى (الحصير القش) بالحذاء . قالوا له :

ـ لابد قبل اعتلاء الحصير اليابانى أن تخلع نعليك .

فتعجب ولكنه فعل . واعتذر لهم . كما قالوا له يخلع الحذاء فى التاتامى ولكن لاداعى أن يخلعه فى الفصول والمكتبة . وأيضا يخلعه فى القاعة الرئيسية بمعبد «كوهنبوتسو» وليس فى الفناء وهكذا علموه شيئا عن الحياة فى اليابان .. علموا وتعلموا منه أن الذى يعيش فترة طويلة فى الخارج فإن سلوكه يبدو مختلفا نوعاً .

وفى اليوم التالى أحضر ميازاكى كتاباً مصوراً بالانكليزية إلى المدرسة . وعندما حضر التفوا حوله وكان الكتاب مصدر الجذب لهم أولاً لأنهم لم يشاهدوا مثل هذا الكتاب المصور من قبل .

ثانيا : الألوان الحمراء والصفراء والخضراء .. هذه مثل ألوانهم ولكن هناك ألوان لم يكن عندهم مثلها كاللون القرنفلى المشابه للون الجلد . ولون الماء الصافى . بالإضافة إلى اللون الرمادى ذى الدرجات المتعددة .

وكثير من الألوان بجانب متوسط الأربعة والعشرين التى فى صندوق «كريون» ولا حتى فى صندوق تايتشن الخاص ذى الثمانية والأربعين مما أثار دهشتهم . وبالنسبة للصور فإن أول صورة كانت لكلب يجذب طفلا رضيعا من كفولته[1] ، والذى أدهشهم أن الطفل لم يبد مجرد رسم وإنما بدا وكأنه

---

(١) الكفولة خرقة توضع للطفل تمتص بوله حتى لا ينقع على ملابسه .

طفل حقيقى له جلد رمادى ناعم .

لم ير الأطفال مطلقا كتاب صور فخما وكبيرا ومطبوعا على مثل هذا الورق اللامع السميك المحبب إلى الناظر واللامس . ولقد اقتربت توتوتشن بطريقتها المألوفة المعتادة من ميازاكى وكتاب الصور على قدر ما استطاعت ، وقرأ ميزاكى لهم الكتاب الانجليزى وكان جرس صوته فى اللغة الانجليزية سلسا لدرجة أنهم استمعوا مبتهجين ثم حاول ميزاكى باللغة اليابانية ليفهموا . وعلى كل حال فإن ميازاكى بكل تأكيد قد أتى بشىء جديد ومختلف للمدرسة . بدأ ميازاكى بهذه الكلمة :

ـ أكاتشن يعنى Baby طفل » فكررها بعده كل الأطفال .

ـ أوتسوكوشى يعنى Beautiful جميل » وعندما نطق الكلمة اليابانية لم يكملها فجاءت أوتسوكوش ، ولكن الأطفال نطقوها جيدا «أوتسوكوشى» فعرف أنه مخطئ فصححها .

وهكذا صار ميازاكى وبقية الأطفال أصدقاء وكان يحضر كل يوم كتبا مختلفة إلى توموى ويقرؤها للآخرين فى فسحة الغداء ، وكانه معلمهم الخصوصى للغة الإنجليزية ، كما تحسنت لغته اليابانية وبدأ يتحاشى الأخطاء مثل الجلوس فى التوكوتوما أو فى المكان المخصص لتعليق الرسوم والزينة وتعلمت توتوتشن وأصدقاؤها أشياء كثيرة عن أمريكا .

وصارت اليابان وأمريكا صديقتين فى توموى ، ولكن فى الخارج هما عدوتان . وحيث أن الإنجليزية لغة العدو فقد ألغيت من المناهج فى جميع

المدارس وأعلنت الحكومة أن الأمريكيين شياطين ، ولكن الأطفال فى توموى قد استمروا منشدين فى مجموعاتهم أوتسوكوشى يعنى جميل وكان النسيم الذى يهب على توموى هادئا ودافئا وكان الأطفال أنفسهم فى تمام الجمال .

المسـرح :

ـ المسرح .. المسرح ..

هذه أول مرة فى تاريخ توموى . مازال مستمرا أن تلميذا واحدا يقف أمام التلاميذ فى وقت الغداء ويتحدث عن بعض القصص لكن هذه المرة يأتى بعض الزوار إلى قاعة الاجتماع ويمثل التلاميذ أمامهم على خشبة المسرح والتى عليها البيانو الذى يعزف المدير عليه دائما فى حصة الإيقاع ..

على كل حال لم يكن أحد قد رأى مسرحية من قبل حتى توتوتشن أيضا . إلا أنها قد رأت حفلة البالية لمرة واحدة وكان موضوعها « بحيرة البجع » .

كل صف ناقش موضوع مسرح . قد قرر فصل توتوتشن أن يقوم بعمل مسرحية اسمها كانجنتشو « دفتر جمع التبرعات » على الرغم من أنها مسرحية تقليدية ولم تكن ملائمة بتوموى ولعلها كانت من المقررات الدراسية . وشرع الأستاذ ماروياما فى تدريبهم على تلك المسرحية .

هذه المسرحية تدور حول قصة تاريخية . وقد قرروا أن تقوم الطفلة أبكوسايشو بدور (بينكى) الرجل القوى حيث أنها ضخمة الجسم طويلة ويقوم الطفل أماديرا ـ حيث أنه يبدو شديدا وذا صوت عال ـ بدور (توجاشى) وبعد المناقشة قرروا أن تقوم توتوتشن بدور (الأمير يوشيتسونى) تتنكر فى المسرحية كحمال والباقون

سيقومون بدور القسس المتجولين . وقبل أن يبدءوا التدريب يجب أن يتعلم الأطفال أدوارهم ، وقد كان لطيفا لأجل توتوتشن والقسس أنهم سوف لا يقولون شيئا . وكل ما على القسس أن يقفوا صامتين من الأول إلى الآخر بينما توتوتشن عليها أن تبقى راكعة ووجهها مختبئ فى قبعة كبيرة من القش . بينكى ، خادم يوشبتسونى فى الحقيقة ، يضرب ويوبخ سيده فى محاولة شجاعة ليجعل المجموعة تعبر نقطة تفتيش أوتاكا منظاهرا أنها مجموعة من القسس تجمع التبرعات لتجديد معبد . أيكو سايشو التى يقوم بدور بينكى عليها دور كبير فإنها بجانب التدخل الفعلى وتفادى توجاشى قائد نقطة التفتيش فإن هناك موقفا مزعجا عندما يجب عليها أن تتظاهر بقراءة دفتر جمع التبرعات عندما تؤمر من القائد أن نفعل ذلك .

والدفتر الذى تقرؤه أيكوتشن (بينكى) من ورقة بيضاء لم يكتب فيها شىء وأمر توجاشى بالقراءة فشرع فى القراءة منها ـ مرتجلا بمهارة ـ طلبا لأجل الاعتمادات المالية بلغة كنسبة تدل على الأبهة والعظمة :

ـ (أولا لغرض تجديد المعبد المعروف بـ (توداي‌جى) .....)

وكانت أيكوسايشى (بينكى) تدربت أولا على الخطابة كل يوم . ودور توجاشى أيضا أخذ كثيرا من الديالوجات كما حاول أن يفند احتجاجات بينكى وناضل أما ديرا ليحفظه ، أخيرا جاء يوم التمرين على الإيقاع توجاشى وبينكى وقفا وجها لوجه والقسس مصطفون خلف بينكى وتوتوتشن مثلت يوشستسونى راكعة ، ولكنها لم تفهم ما يجب عمله ، فلما ضرب بينكى يوشيتسونى بالعصا ، توتوتشن قاومت بعنف ورفست أيكا سايشو فى رجليها وخمشتها فبكت أيكو وضحك القسس باستهزاء .

كان من المفروض أن يظل بوشيتسونى كما هو ولايهتم كم وكيف يضربه بينكى وكانت الفكرة : إذا شك توجاشى فى الحقيقة فإنه سيكون متأثرا بخدعة بينكى والألم الذى سيتكلفه لمعاملة سيد شريف هذه المعاملة السيئة فيسمح لهم بعبور نقطة التفتيش ولو اعترض يوشيتسونى أو قاوم فإن الحيلة ستفشل .

وحاول السيد مارورياما أن يشرح ذلك لتوتوتشن إلا أنها قالت :

ـ لو ضربتنى أيكوتشن أنا أيضا سأضربها .

فتوقفت المسرحية . وفى كل مرة يجرون هذه التدريب فإن توتوتشن تعترض عند هذه النقطة وأخيرا قال الأستاذ ماروياما لتوتوتشن :

ـ متأسف . دور يوشيتسونى يكون لتايتشن .

كانت توتوتشن سعيدة لأنها لاتحب أن تكون هى الوحيدة التى تضرب وقال السيد ماروياما :

ـ توتوتشن ، هل تفضلين أن تكونى قسيسا ؟

وقفت توتوتشن مع القسيسين الآخرين ولكن فى الخلف .

وفكر السيد ماروياما والأطفال أن كل شىء سيكون على مايرام الآن ولكنهم كانوا مخطئين . كان يجب ألا يترك توتوتشن تمسك بعصا القسيس الطويلة ليصعد بها الجبال وينزل بها وعندما كانت تضيق بالوقوف تدفع بالعصا رجل القسيس الذى بجانبها أو تزغزغ إبط القسيس الذى أمامها ، كما مثلت بالعصا الطويلة قائد الموسيقى . ـ المايسترو ـ وكان فى ذلك خطر على

القريبين وأيضا يحطم المنظر بين بينكى وتوجاشى . وعلى ذلك منعت من دورها كقسيس أيضا .

كان تايتشن الذى قام بدور يوشيتسونى صبورا يحرك أسنانه وهو راكع ويظل مضروبا ، والمشاهدون يتعاطفون معه ويتأسفون لأجله . ولهذا كان تقدم التدريب هادئا بدون توتوتشن ولما وجدت نفسها وحيدة خرجت إلى فناء المدرسة وخلعت حذاءها وبدأت ترقص رقص الباليه تحاول إجادته . وكان رقصا محبوبا طبقا لخيالها . بعض الوقت كانت بجعة وبعض الوقت كانت ريحا وبعض الوقت شخصا غريبا وبعض الوقت شجرة . كل ذلك وهى وحيدة فى الملعب الخالى ترقص وترقص ولكنها كانت فى قرارة نفسها تحس أنها تود أن تؤدى دور يوشيتسونى ، ولكن إذا سمحوا لها أن تفعل ذلك فإنها ستضرب وتخمش أيكو سايشو .

وحينئذ لم تستطع توتوتشن أن تشترك فى دراما الهواة الأولى والأخيرة التى أقيمت على مسرح مدرسة تومويى .

طباشير :

أطفال توموى لم يشوهوا بالكتابة أبدا حوائط الآخرين أو على الطريق لأنهم قد أتيحت لهم الفرصة كثيرا ليفعلوا ذلك فى المدرسة . وفى أثناء أوقات الموسيقى فى حجرة الاجتماعات يعطى المدير كل طفل قطعة من الطباشير الأبيض ويستطيع الواحد منهم أن يضطجع أو يجلس فى أى مكان يحب على الأرض وفى يده الطباشير عندما يكون جميعهم مستعدين يبدأ المدير فى العزف على البيانو فيكتب الأطفال على الأرض اللحن الذى يسمعونه فى النوتة الموسيقية وكانت هذه الكتابة بالطباشير على الأرض الخشبية اللامعة ذات اللون البنى من الأشياء المحبوبة عندهم . ولقد كان فى فصل توتوتشن عشرة أطفال فقط ولذلك فإنهم عندما ينتشرون حول صالة الاجتماع الكبيرة فإن كل واحد يأخذ مسافة فسيحة من الأرض يستطيع إن يكتب فيها النوتة الموسيقية بعلامات كبيرة كما يريد بدون أن يعتدى على مسافة غيره ولم يكن بهم حاجة إلى خطوط للترقيم إذا ماكتبوا الإيقاع لأنهم فى نوت توموى الموسيقية عندهم أسماء مخصوصة قد استنبطها الأطفال بأنفسهم بعد الحديث مع المدير . هنا هذه الأسماء :

طفرة

علم (شكله يشبه العلم)

علم ـ علم

علمان

أسود

أبيض

أبيض ونقطة

دائرة



هذه الطريقة التى تعلموها ليعرفوا الرموز جيدا وكان هذا عجيبا وكان هذا الدرس محبوبا لديهم .

كانت الكتابة على الأرض بالطباشير فكرة المدير فلم تكن الأوراق بالإتساع الكافى ولم تكن هناك سبورة كبيرة تسمح بالدوران حولها لجميع التلاميذ ولذلك فكر المدير أن أرض صالة الاجتماع يمكن أن تكون سبورة كبيرة يمكن للتلاميذ أن يكتبوا عليها رموز الإيقاع بسهولة مهما كانت سرعة الإيقاع ، ومهما كانت الكتابة كبيرة كما يريدون ومهما كانت حركة أجسامهم الحرة ، وفوق كل ذلك فإنهم يتمتعون بالموسيقى ، وإذا كان هناك بعض الوقت فإنهم يستطيعون أن يرسموا بعض اللعب أو الطيارات أو أى شىء يحبون . وفى بعض الأحيان يصلون الرسوم ببعضها للتسلية وحينئذ تصير الأرض عبارة عن صورة كبيرة جدا . وفى وقت الاستراحة أثناء الموسيقى يمر المدير ويفتش كل إيقاع للتلميذ وربما يقول « هذا حسن » أو ليس هذا « علما ـ علما » ولكنه طفرة » وبعد أن يوافق أو يصحح ما كتبوه يعزف الموسيقى مرة أخرى ثم هم ينظرون ما كتبوا ثم يعودون أنفسهم على الإيقاعات ، وكان المدير لاينيب عنه أحدا لهذا الدرس مهما كان مشغولا وبخصوص التلاميذ فإنهم لايكونون مسرورين مطلقا بدون الأستاذ كوباياشى .

كان التنظيف بعد كتابة الإيتماعات وظيفة شاقة : أولا يجب أن تمسح الأرض من الطباشير بمساحة السبورة ثم يتعاون الجميع ليجعلوا الأرض كأنها جديدة مرة أخرى بوساطة مماسح وخرق . وكل هذا عمل كبير ، وبهذا يعرف التلاميذ كيف يكون تنظيف الرصاص متعبا. ولهذا فإنهم لايكتبون خطوطا مشوهة فى أى مكان إلا على أرض حجرة الاجتماعات ، وعلاوة على ذلك فإن هذا الدرس يحدث مرتين فى الأسبوع ، وعلى هذا فإن التلاميذ يكونون قد شبعوا من مثل هذه الكتابة .

وفى توموى أصبح التلاميذ ذوى خبرة بالطباشير وأى نوع أفضل وكيف يمسكونه وكيف يستعملونه لتكون النتيجة أفضل وكيف لا يكسرونه وكل واحد منهم أصبح حقا خبيراً فى الطباشير.

وفاة ياسواكي تشن :

إنه كان أول صباح للمدرسة بعد انتهاء إجازة الربيع .

وقف الأستاذ كوباياشي أمام التلاميذ المجتمعين فى فناء المدرسة ويداه فى جيوبه كالمعتاد ولكنه لم يقل شيئا فترة من الوقت ، ثم أخرج يديه من جيوبه ونظر إلى التلاميذ وكانت تبدو عليه علامات البكاء ثم قال ببطء :

ـ لقد توفى ياسواكى تشن ، وسنذهب كلنا هذا اليوم لنودعه إلى مثواه الأخير .

ثم استمر :

ـ كلكم تحبون يا سواكى تشن كما أعرف إنه مصاب أليم وأنا أشعر بالحزن العميق .

ثم احمر وجهه وانهمرت دموعه فدهش التلاميذ ولم ينبس أحدهم ببنت شفه ، وكانوا جميعا مفكرين فى ياسواكى تشن ، ولم يحدث أبدا مثل هذا الهدوء الحزين على فناء توموى من قبل .

تخيلت توتوتشن موته سريعا ثم فكرت :

ـ أنا لم أنته بعد من قراءة كتاب «كوخ عم توم» الذى أعارنى إياه لأقرأه فى إجازة الربيع .

وأخذت تتذكر بعض المواقف :

كيف كانت اصابعه ملتوية عندما ودع كل منهما الآخر قبل عطلة الربيع بعد أن أعطاها الكتاب ، وأول يوم قابلته فيه ثم سألته :

ـ لماذا تمشى هكذا ؟

فأجابها بلطف :

ـ أنا عندى شلل أطفال .

لقد تذكرت جرس صوته وابتسامته البسيطة . وتذكرت مغامرة الصيف وطلوعهما الشجرة وتذكرت كيف كان جسمه ثقيلا والطريقة التى وثق بها من غير شك حتى مع أنه أكبر وأطول منها . وأنه هو الذى أخبرها أن عندهم شيئا فى أمريكا اسمه التليفزيون .

لقد أحبت توتوتشن ياسواكى تشن وكانا دائما متلازمين فى أوقات الغداء وأوقات الاستراحة والعوده معا إلى المحطة بعد انتهاء اليوم الدراسى . إنها سوف تفقده . وتأكدت أن الموت معناه أن ياسواكى تشن سوف لا يأتى إلى المدرسة أبدا . كهذين الفرخين الصغيرين اللذين أحبتهما . عندما ماتا لم يحفلا بندائها ولم يتحركا مرة ثانية .

لقد كانت جنازة ياسواكى تشن فى كنيسة فى الجهة المقابلة لبيته فى « دينيتشوف » قريبا من ملعب التنس ، وكان التلاميذ يسيرون فى صف واحد صامتين من جيوغاؤكا . ولم تكن توتوتشن تنظر حولها كعادتها بل كانت تسير وعيناها إلى الأرض طول الوقت لقد عرفت الآن أن شعورها مختلف عن شعورها فى اللحظة التى أخبرهم فيها المدير بالخبر الحزين ، لم تكن تعتقد أولا

أن هذا الخبر حقيق ، ولكنها غيرت رأيها الآن وكل ماتريده هو أن ترى ياسوا كى تشن حيا مرة أخرى وأن تتكلم معه كثيرا لأنها لاتستطيع أن تتحمل هذا الفراق .

لقد كانت الكنيسة مليئة بالزهور البيضاء وكانت أمه الجميلة وأخته وأقاربه فى ملابس الحداد واقفين خارج الكنيسة وفى أيديهم مناديلهم البيضاء ، وعندما رأوا توتوتشن بكوا بكاء مراً ..

لقد كانت هذه أول مرة تحضر فيها توتوتشن جنازة وعرفت كيف يكون ذلك محزنا . لم يتكلم أحد ، وعزف الأرغون موسيقى هادئة وعلى الرغم من أن الشمس كانت ساطعة وأن الكنيسة كانت مليئة بالضوء فإن أحدا لم يشعر بالسعادة فى أى مكان فيها وكان هناك رجل يلف حول ذراعه شريطا أسود ، أعطى زهرة بيضاء واحدة لكل طفل من أطفال تومووى ثم شرح لهم كيف يسير كل واحد منهم تلو الآخر ليضعوا زهورهم على التابوت الذى يرقد فيه ياسوا كى تشن .

كان ياسوا كى تشن يرقد فى نعشه وعيناه مغمضتان تحيط به الزهور . ومع أنه كان ميتا فإنه بدا كريما وشجاعا كما كان حيًا .

ركعت توتوتشن ووضعت الزهرة بجانب يد ياسوا كى تشن ولمستها بلطف ـ تلك اليد التى طالما أمسكتها كثيرا . لقد كانت يده أكثر بياضا من يدها القذرة الصغيرة وأصابعه أطول كثيرا مثل أصابع الرجال . وقالت بصوت هامس إلى ياسوا كى تشان :

ـ إلى اللقاء ، ربما نلتقى مرة أخرى فى بعض الأماكن عندما نكون أكبر من الآن ، وربما تكون حينئذ قد شفيت من شلل الأطفال .

ثم قامت توتوتشن وألقت نظرة أخرى على يا سواكى وقالت :

ـ أوه . نعم لقد نسيت كتاب «كوخ عم توم» سوف لا أستطيع أن أرده إليك الآن وسأحتفظ به لك حتى نلتقى مرة أخرى وعندما بدأت السير بعيدا بدا لها كأنها تسمع صوت ياسواكى تشن من الخلف :

ـ توتوتشن ... لقد قضينا أوقاتا ممتعة معا ، أليس كذلك ؟

ـ أنا سوف لا أنساك أبدا .

وعندما وصلت توتوتشن مدخل الكنيسة التفتت حولها وقالت :

وأنا أيضا سوف لا أنساك أبدا .

لقد كان هذا اليوم من الربيع ساطع الشمس هادئ الضوء كما كان فى اليوم الذى التقت فيه أولا مع ياسواكى تشن فى فصل الدراسة فى القطار ولكن شتان بين هذا وذاك .

ذاك فرح وسرور وهذا حزن ودموع .

•

جاسوسة :

ظل التلاميذ فى توموى يشعرون بالحزن مدة طويلة بعد وفاة ياسواكى تشن وبخاصة فى الصباح عندما يبدءون الدروس . ولابد من وقت للتلاميذ حتى يتأقلموا على الحقيقة أن ياسواكى تشن لم يمت فقط بل إنه سوف لايأتى مرة ثانية . الفصول ذات العدد القليل ربما تكون جيدة إلا فى مثل هذه المناسبات فإنهم يحسون إحساسا مؤلما عندما يكون غياب واحد منهم محسوسا مثل ياسواكى تشن ، ولكن شيئا واحدا ينقذ التلاميذ من هذا الإحساس الحزين هو أن المدير لم يحدد مقعدا لكل واحد بل ترك التلاميذ يجلس كل واحد فى المقعد الذى يحبه . فلو كان لياسواكى تشن مقعد محدد لكان ذلك محزنا حزنا عميقا عندما يكون مقعده خاليا .

وفى تلك الأيام فكرت توتوتشن كثيراً فيما تفعل عندما تكبر. فى صغرها كانت تفكر فى ان تكون غجرية ـ لاعبة موسيقية فى الشارع ـ أو بالية وفى أول يوم أتت إلى توموى فكرت أن تكون بائعة تذاكر أيضاً .

ولكنها الآن تريد أن تفعل شيئاً فريداً ويناسب للفتيات ..

ففكرت توتوتشن أن تكون ممرضة . أيضا هذا حسن . ولكن تذكرت توتوتشن بعد قليل أنها عندما ذهبت إلى المستشفى لزيارة الجنود رأت ممرضة تعطى حقنا للجنود وهذا شيء صعب بالنسبة لها .

ـ ولكن .. ماذا يناسبنى ؟..

عندما قالت هذه الكلمة أصبحت فى منتهى الفرح :

ـ آه .. لقد قررت ما أريد أن أكون من بعد ؟

ثم ذهبت توتوتشن إلى تايتشن وكان تايتشن يشعل موقد الكحول فى الفصل . وقالت له توتوتشن بصوت فيه فخر :

ـ لقد قررت أن أكون جاسوسة .

التفت تايتشن بعيدا عن لهب الموقد إلى وجه توتوتشن ونظر إليها طويلا ثم نظر إلى خارج النافذة لحظة كأنما يفكر فى الأمر ، ثم نظر إلى توتوتشن مرة أخرى ليقول بذكائه وصوته الرنان فى بطء وبساط حتى تفهم جيدا :



ـ يجب أن تكونى بارعة وشجاعة وحاذقة ليكونى جاسوسة بجانب أن تعرفى لغات .

ثم توقف قليلا ليتنفس ثم نظر إليها ثانيا بخشونة :

ـ فى المكان الأول : المرأة الجاسوسة يجب أن تكون جميلة

غضت توتوتشن طرفها عن تايتشن ببطء وخفضت رأسها . وبعد فترة قال تايتشن بتعقل وفى صوت منخفض من غير أن ينظر إلى توتوتشن :

ـ وبجانب ذلك ، أنا لا أظن أن الثرثارة تصلح لأن تكون جاسوسة لة

لقد انعقد لسان توتوتشن فصمتت متحيرة ، ولكن ليس من اعتراضه أن تكون جاسوسة ، ولكن لأن كل ما قاله كان صحيحا وأن هذه الأشياء كلها هى التى كانت تشك فيها ، وتحققت حينئذ أنه ينقصها كل مؤهلات الجاسوسة . وهى تعرف ـ طبعا ـ أن تاتتشن لم يقل ذلك من حقد وإنما كان رأيه هكذا ، وأنه كان من حسن الحظ أن تتحدث معه فى هذا الأمر .

ولكنها فكرت فى نفسها وقالت :

ـ ما أذكاه وأحسنه ؟! إنه فى نفس سنى ولكنه يعرف أشياء كهذه أكثر منى .

لو فرض أن تايتشن أخبرها أنه يفكر أن يكون عالما فى الطبيعة ماذا ستقول له فى الجواب ؟ ربما تقول :

ـ حسنا ، أنت جيد فى إشعال مواقد الكحول بالكبريت

ولكن هذا سيكون صوتا صبيانيا أيضا .

ـ حسنا ، أنت تعرف أن كلمة ثعلب باللغة الإنجليزية تعنى كلمة « فوكس » وكلمة حذاء فى اللغة الإنجليزية تعنى كلمة « شوز » ولهذا فإنه يمكنك أن تكون عالما طبعيا .

ـ لا ولا هذا يكفى .

على أى الحالات لقد تأكدت أن تايتشن كان مقدرا له أن يقوم بعمل ممتاز . ولهذا قالت بلطف لتايتشن . وكان ناظرا للفقاعات فى دورقه :

ـ شكرا . سوف لا أكون جاسوسة حينئذ ، ولكنى متأكدة أنك ستكون بعض الناس المهمين .

فهمهم تايتشن بفمه بعض الأشياء ثم خمش رأسه ثم انهمك فى الكتاب الذى كان مفتوحا أمامه .

كانت توتوتشن تقف بجانب تايتشن وتنظر إلى اللهب المنبعث من موقده وتتعجب وتقول .

ـ إذا لم أستطع أن أكون جاسوسة فماذا أكون ؟

الكمان :

لم يعلموا أن الحرب بأهوالها وفظائعها قد بدأت فعلا وإن كانت رؤيتها قد وضحت فعلا فى حياة توتوتشن وأسرتها .

فى كل يوم يرسل الرجال والأولاد من الجيران ملوحين بأعلامهم صائحين (بنزاى يعنى إلى اللقاء) واختفت المواد الغذائية واحدة تلو الأخرى من المحال وأصبح من الصعب الاستجابة إلى نظام الغذاء فى تومونى « بعض الأشياء من البحر وبعض الأشياء من الأرض . التى كانت تجهزها الأم من أعشاب البحر والبرقوق المخلل وحتى ذلك الآن أصبح الحصول عليه صعبا حيث أصبح كل شىء كتعيين يومى ولم يعد هناك حلوى موجودة مهما بحثت عنها ، ولا الماكينة التى تعرفها توتوتشن تحت سلم محطة « أوكاياما » التى تقع قبل مسكنها حيث كانت تستطيع أن تحصل على علبة من الكراملة إذا وضعت نقودا فى فتحتها . وقد كان فى أعلى هذه الماكينة صورة مشهية : « تستطيع أن تحصل على علبة كراملة صغيرة إذا وضعت فى الفتحة خمسة سنات أو تحصل على علبة كبيرة إذا وضعت عشرة سنات » هذه الماكينة أصبحت خالية الآن . فمها وضعت فيها من النقود أو ضربت عليها ضربا شديدا فإنه لايأتى لك منها شىء ومع ذلك فإن توتوتشن كانت مواظبة أكثر من اللازم ، إنها فكرت :

ــ ربما يكون هناك علبة فى أى مكان من هذه الماكينة وربما تكون محشورة

فى الداخل . ولهذا فإنها كانت تنزل من القطار فى المحطة التى قبل مسكنها وتحاول وضع خمسة سنات أو عشرة سنات فى هذه الماكينة ، ولكنها لا تحصل إلا على ما وضعته من النقود حيث تنزل بصوت عال . وفى هذا الوقت أشار على والد توتوتشن كثير من الناس أن يذهب إلى مصنع العتاد الحربى الذى ينتج الأسلحة ولوازم الجيش ويعزف الأغانى العسكرية على كمانه وخصوصا وأنه قد حصل على جائزة الدولة كأحسن موسيقار وأشهر عازف كمان وبذلك يمكن الحصول على سكر وأرز وأشياء أخرى بعد انتهاء العزف ويمكن أن يحصل على كثير من الهدايا فسألته الأم :

ـ ما رأيك ، هل ستذهب لتفعل ذلك ؟

بكل تأكيد لقد قلت الحفلات الموسيقية هذا أولا ، والموسيقيون قد استدعى كثير منهم لأداء الخدمة العسكرية وقل العازفون فى الأوركسترا وأصبح العمل فى الإذاعة الوطنية كله فى المجال العسكرى ولهذا فإن عمل والد توتوتشن والآخرين أصبح قليلا ، وكان يرحب بأى فرصة ليعزف أى شىء ولكنه فكر بعض الوقت قبل أن يجيب على سؤال الأم :

ـ أنا لا أحب أن أعزف هذا النوع من الموسيقى على كمانى .

فأجابته الأم :

ـ أنت على حق ، وأنا سأرفض ، وسنحصل على الطعام من أى مكان وبأى شكل .

كان الأب يعلم أن توتوتشن تحصل على الأكل الكافى بمجهود ، كما كان يعلم أنها تضع النقود عبثا فى ماكينة الكراملة كل يوم ، وهو يعلم أيضا أن

هدايا الطعام التى سيحصل عليها بعد عزفه الموسيقى العسكرية ستكون ملائمة لأسرته ، ولكنه يقدر قيمة موسيقاه بأكثر من ذلك والأم تعلم ذلك أيضا ولهذا لم تحثه على عمل ذلك .

فقال بصوت حزين :

ـ سامحينى .. توتوسكى .

لقد كانت توتوتشن صغيرة لاتعرف عن الفن ولا عن الفكريات أو العمل ولكنها تعلم أن أباها قد أحب الكمان كثيرا حتى أنه نبذ من أهله وطرد من بيته ، وكثير من أسرته وقرابته قاطعوه ولم يتكلموا معه وأصبح فى موقف صعب ولكنه رفض أن يتخلى عن الكمان مثل موقفه هذا وعرفت أنه على حق حين يأبى أن يعزف شيئا لايحبه فحجلت حول أبيها وقالت بسرور :

ـ أنا لا أبالى لأنى أحب كمانك أيضا .

ولكنها فى اليوم التالى مرة ثانية نزلت فى محطة أوكاياما ونظرت فى فتحة ماكينة الكراملة لقد كانت تعرف أنه سوف لاينزل شىء ولكنها لاتزال تحتفظ بالأمل فى ذلك .

الوعـد :

بعد انتهاء الغداء ، عندما وضع التلاميذ الكراسى والمكاتب مصطفة على شكل دائرة بدت صالة الاجتماعات فسيحة تماما .

ـ اليوم أنا سأكون أول من يصعد على ظهر المدير .

هكذا قررت توتوتشن وهذا ما أرادت دائما أن تفعله ولكنها إذا ترددت لحظة فإن تلميذا آخر سيكون قد جلس فعلا فى حضنه حيث يجلس هو متربعا فى وسط صالة الاجتماعات وعلى الأقل اثنان آخران سيطلعان على ظهره صائحين ليثيرا انتباهه .

سيحتج المدير ويحمر وجهه ويبتسم ويقول :

ـ لا . لا . توقفوا . توقفوا ... لاتفعلوا .

ولكن الأطفال إذا ما احتلوا ظهره فإنهم سيصممون على عدم التخلى عن مواقعهم ، ولهذا فإن تأخر لحظة بسيطة كان يجعل ظهر المدير مزدحما جدا . ولكن فى هذه المرة فإن توتوتشن صممت على أن تكون أولهم وكانت فعلا منتظرة وصول المدير فى صالة الاجتماع .

وعندما اقترب صاحت عليه :

ـ سيدى المدير ، أنا عندى شىء أخبرك به !!

قال المدير مسرورا وهو يجلس على الأرض مستعدا لأن يتربع :

ـ ما هو هذا الشيء ؟!

لقد أرادت توتوتشن أن تخبره قرارها الذى فكرت قبله عدة أيام وعندما تربع المدير تراجعت توتوتشن عن قرارها التسلق على ظهره وماستقوله سيكون مناسبا وجها لوجه . ولهذا فقد جلست ملاصقة له ومواجهة له ثم أحنت رأسها قليلا بابتسام (كانت أمها تقول لها وهى صغيرة عندما تبتسم هذه الابتسامة «وجهك جميل») فأحست بالثقة والاطمئنان عندما ابتسمت هذه الابتسامة وقد فتحت فمها قليلا واعتقدت نفسها أنها بنت طيبة . سألها المدير مقتربا منها :

ـ ما هو الشيء الذى تريدين أن تخبرينى به ؟

قالت توتوتشن بصوت هادئ بطيء كأنه صوت أخت أو صوت أم :

ـ أنا أحب أن أعلّم فى هذه المدرسة عندما أكبر ، بلا ريب

قالت ذلك وتوقعت أن المدير سيبتسم ولكنه أجاب بجدية :

ـ هل تعدين بذلك ؟

وقد بدا عليه أنه يريدها أن تفعل ذلك . فهزت توتوتشن رأسها بقوة ثم قالت :

ـ أنا أعد بذلك .

مصممة فى نفسها أن تكون مدرسة هناك من غيرشك وفى تلك اللحظة كانت تفكر فى صباح اليوم الذى جاءت فيه إلى توموى تلميذة فى الصف الأول وقابلت المدير فى مكتبه ولقد بدا أن هذا كان من زمن طويل حيث استمع المدير

بصبر طويل إليها لمدة أربع ساعات وتذكرت دفء صوته عندما قال لها بعد انتهاء كلامها :

ـ الآن أنت تلميذة هذه المدرسة .

أنها أحبت الأستاذ كوباياشى أكثر من ذى قبل . ثم صممت على أن تعمل لأجله وأن تعمل أى شىء تستطيعه لتساعده .

وعندما وعدت بذلك ابتسم بسرور كالمعتاد ولم يظهر عليه أى خجل من هتمه . ثم رفع كا منهما أصبعه الخنصر تأكيدا لهذا الوعد وتلك طريقة اليابانيين عندما يتعهد الواحد منهم بعمل شىء .

وابتسم كل منهما مؤكدا أيضا ومسرورا بهذا الوعد . توتوتشن إذن ستكون مدرسة فى هذه المدرسة ، هذا شىء يسر .

ـ عندما أكون مدرسة .... ثم سرحت بفكرها وتخيلت .... « هذا شىء لايحتاج إلى دراسة كثيرة ... كثير من الأيام والحفلات الرياضية الطهى فى الحقول ... إقامة المعسكرات ... الخروج للنزهات »

كان المدير مسرورا . إنه من الصعب تصوره أن تكبر توتوتشن ولكنه كان متأكدا أنها تستطيع أن تكون مدرسة فى توموى . وكان يفكر أن أطفال مدرسة توموى يستطيعون أن يعملوا مدرسين جيدين لأنهم لاينسون شعور الأطفال الصغيرة . فى توموى استطاع المدير أن يعمل مع واحد من تلاميذه تعهدا هاما على بعض الأشياء بعد عشر سنوات أو أكثر فى المستقبل ، لقد كان هذا التعهد قبل أن تظهر فى سماء اليابان طائرات أمريكا محملة بالقنابل والمتفجرات .

اختفاء روكى :

كثير من الجند لقوا مصرعهم ، وقل الطعام ، وعاش كل واحد فى خوف وتوجس ، ولكن الصيف عاد كالمعتاد ، ولم تحفل الشمس بمنتصر ولم تحزن على منهزم بل أرسلت أشعتها على هذا وذاك وأضاءت أرض المنصور والمهزوم .

وعادت توتوتشن إلى طوكيو من بيت عمها فى كاماكورا ، وليس فى توموى الآن معسكرات أو زيارات محببة للنفس إلى أماكن العيون الساخنة وبدا الحال وكأن الأطفال لم يعودوا قادرين على أن يتمتعوا بعطلة صيفية ويسعدوا بها كما كانوا يسعدون من قبل . لقد كانت توتوتشن تقضى عطلة الصيف مع أقاربها فى منزلهم بكاماكورا ، ولكن فى هذه السنة تغير الحال ، فإن الولد الكبير من أقاربها الذى كان معتادا أن يقص عليهم قصص الأشباح المخيفة قد استدعى للحرب فلم تعد هناك قصص مخيفة للأشباح ، وعمها الذى كان يخبرهم دائما بالقصص الهامة عن حياته فى أمريكا والتى لم يكونوا يعرفون أحقا هى أم كذبا كان فى الجبهة أيضا لقد كان اسمه (شوجى طاغوتشى) وكان فى مرتبة عالية فى التصوير الصحفى وبعد أن عمل مديرا لفرع أخبار اليابان فى نيويورك ورئيس أخبار الشرق الأقصى فى « مترو أمريكا » أصبح مشهورا باسم « شو طاغوتشى » وكان هو الأخ الأكبر لوالد

توتوتشن مع العلم بأن والدها قد أخذ اسم عائلة والدتها ليخلد هذا الاسم وإلا كان اسم العائلة سيكون (طاغوتشى) أيضا . وكان العم شوجى يصور أفلاما عن الحرب مثل « معركة جزيرة راباول » فى المحيط الهادى وكانت هذه الأفلام كلها من تصويره وتعرض فى السينمات. ولتصوير هذه الأفلام كان يقتضى أن يكون المصور فى مقدمة الجيوش فى منطقة الخطر حيث يستطيع أن يصورهم متقدمين ولايكون فى المؤخرة فيصور صورا من الخلف أو جانبية وهذا كان حديث أقارب العم شوجى ومصدر خوفهم عليه دائما .

ولقد بدت شواطئ كاماكورا مهجورة نوعا ما فى هذا الصيف ولكن ياتشن أكبر أولاد العم شوجى كان عجيبا بالرغم من كل ذلك . ولقد كان ياتشن أصغر من توتوتشن بسنة ، وكان الأطفال ينامون جميعا سويا تحت ناموسية واحدة وقبل أن يذهب للنوم يتعود ياتشن أن يصيح (يحيا الأمبراطور) ثم يسقط متشبها بالجندى الذى يكون قد قتل رميا بالرصاص ثم يتظاهر بالموت ، ثم يكرر ذلك مرة بعد مرة ، والشىء الغريب عندما يفعل ذلك بانتظام يمشى فى نومه ثم يقع من الشرفة محدثا جلبة عظيمة وكانت الأم تنتظر فى طوكيو مع الوالد لأنه يعمل هناك .

والآن قد انتهت إجازة الصيف ثم عادت توتوتشن إلى طوكيو بصحبة أخت الولد الذى كان يخبر بقصص الأشباح . وكالمعتاد عندما وصلت توتوتشن إلى المنزل كان أول شىء فعلته هو البحث عن الكلب روكى ولكنه لم يوجد أبدا لا فى المنزل ولا فى الحديقة ولا فى الصوبة التى كان الوالد يزرع فيها بعض النباتات السحلبية . فقلقت توتوتشن وقد كان روكى يخرج لمقابلتها من مسافة بعيدة حتى قبل أن تصل إلى المنزل . فخرجت توتوتشن من المنزل إلى

الشارع منادية عليه ولكن لم تكن هناك أية إشارة لعينيه وأذنيه وذيله هذه الأشياء المحبوبة لها فيه فظنت أنه ربما يكون قد عاد للمنزل وهى تبحث عنه فى الخارج فعادت سريعا إلى المنزل لترى ، ولكنه لم يكن هناك . فسألت أمها :

ـ أين روكى ؟

والأم تعلم أن توتوتشن كانت تجرى فى كل مكان لتبحث عن روكى ولكنها لم تقل كلمة واحدة . فسألت مرة أخرى وهى تجذب جونلة أمها :

ـ أين روكى ؟

والأم تجد صعوبة فى الرد عليها ولكنها قالت :

ـ لقد اختفى .

ولكن توتوتشن رفضت أن تعتقد ذلك فسألت أمها ناظرة إلى وجهها :

ـ اختفى ؟ متى ؟

فردت الأم مضطربة بحزن :

ـ اختفى بعد أن ذهبت إلى كاماكورا فورا ، ثم استمرت سريعا لقد بحثنا عنه وذهبنا فى كل مكان وسألنا كل واحد ولكننا لم نجده وكنت متأسفة كيف أخبرك ، أنا أسفة جدا .

وضحت الحقيقة فى عين توتوتشن : روكى لابد وأن يكون قد مات ولم ترد الأم أن تخبرنى حتى لا أحزن . لقد مات روكى . لقد أصبح واضحا تماما لتوتوتشن . إلى الآن لم تكن تبالى أن تذهب إلى مسافات بعيدة لتبحث عنه



لأن روكى لم يخرج بعيدا عن المنزل . وهو يعلم دائما أنها إذا خرجت فسترجع مرة أخرى . إنه لم يخرج أبدا مثل هذا من غير أن يخبرنى واستمرت فى هذا التفكير ، وكان هذا اقتناعا قويا ولكنها لم تناقش هذا مع أمها لأنها تعلم شعور أمها .

ـ أنا أعجب أين ذهب ؟

كان هذا كل ما قالت وعيناها مسبلتان . لقد كان هذا ما استطاعت أن تقوله ثم جرت إلى غرفتها فى الدور الأول من غير روكى فإن البيت لا يبدو مثل بيتهم مطلقا .

وعندما ذهبت إلى غرفتها حاولت بمشقة ألا تبكى ثم فكرت فى ذلك مرة أخرى ، وتعجبت هل عملت أى شىء يحمله على أن يترك البيت .

ـ لقد أخبر الأستاذ كوباياشى الأطفال فى توموى ألا يكيدوا الحيوانات وقال :

ـ إنها قسوة أن تخون الحيوانات مادامت تأتمنك ، لا تجعل الكلب شحاذا تقول له : إذا مددت يدك فإنى سأعطيك طعاما ، فإذا مديده لم تعطه شيئا فإن الكلب سوف لايصدقك بعد ذلك وربما ينمى ذلك فيه طبيعة سيئة .

لقد أطاعت توتوتشن هذه القواعد ولم تخدع روكى أبدا . إنها لم تعمل شيئا خطأ يمكن أن تتذكره . ثم أبصرت شيئا ملتصقا برجل دمية الدب على الأرض . وقد كانت قد تحكمت فى نفسها قبل ذلك حتى لاتبكى ، ولكنها عندما رأت ذلك انفجرت بالبكاء لأنها كانت من شعر روكى البنى اللون لابد أن هذه الشعيرات قد سقطت منه حينما تدحرجا سويا على الأرض وهما يلعبان فى صباح اليوم الذى غادرت فيه إلى كاماكورا .

فأمسكت بيدها هذه الشعيرات الشبيرد الألمانية ثم بكت وبكت ولم تتوقف دموعها ولانشيجها .

لقد فقدت أولا صديقها ياسواكى تشن والآن فقدت صديقا آخر هو روكى .

حفـل الشـاى :

لقد استدعى للحرب ريوتشن العامل فى تومووى ، وكان كل التلاميذ يحبونه كثيرا ومع أنه كان رجلا إلا أن الأطفال كانوا ينادونه باسم الطفولة . وكان هو الملاك الحارس الذى كان يأتى دائما للإنقاذ والمساعدة عندما يكون أى واحد فى مشكلة لأنه يستطيع أن يعمل أى شىء وعندما سقطت توتوتشن فى البالوعة كان هو الذى حضر لإنقاذها ثم غسل ملابسها ونظفها من غير تذمر . قال المدير :

ـ دعونا نقم حفل شاى لريوتشن ؟

ـ حفل شاى !!

سُرّ التلاميذ كلهم لأنهم سيعرفون شيئا جديدا ولم يكونوا يفهمون لماذا لم يسمه المدير حفل الوداع وإنما الأطفال الكبار يفهمون أن حفل الوداع شىء محزن . ولكن كلهم لم يكونوا يعرفون ماهو حفل الشاى فكان سرورهم لأنهم سيعرفون شيئا لم يسبق لهم .

بعد الدراسة أمر المدير الأطفال أن يجعلوا المكاتب على شكل دائرة مثل وقت الغداء فى قاعة الاجتماع ، وعندما جلسوا كلهم فى دائرة وزع عليهم كل واحد شريحة واحدة مجففة مشوية من سمك السيبيا وحتى هذا كان ترفا ـ مع

قلته ـ فى أيام الحرب هذه ثم جلس بجانب ريوتشن ووضع كوبا أمامه فيها قليل من الخمر وكان هذا يقدم خصوصا لهؤلاء الذين يغادرون للجبهة فى الحرب .

وقال المدير :

ـ إنه أول حفل شاى تقيمه فى توموى فدعونا نتمتع بوقت لطيف ، وإذا كان هناك أى شىء تريدون أن تقولوه له فتفضلوا ، وتستطيعون أن تقولوا أى شىء بعضكم لبعض أيضا ، واحدا بعد الآخر بعد أن يقف فى الوسط . فلنبدأ .

لم تكن هذه فقط أول مرة يأكلون فيها سمك السيبيا المجفف المشوى بل أيضا أول مرة يجلس معهم ريوتشن وأول مرة يرونه يحتسى الخمر وقف الأطفال واحدا بعد الآخر مواجها ريوتشن وتكلموا إليه : بعضهم قال له :

ـ مع السلامة .

وبعضهم قال :

ـ اهتم بصحتك حتى لاتمرض

ووقف ميغيتا وهو تلميذ فى فصل توتوتشن وقال :

ـ عندما أذهب إلى بلدى سأحضر لكم كعك الجنازة .

فضحكوا كثيرا ، لأنه قد ذاق طعم كعك الجنازة منذ سنة ولم ينس طعمه اللذيذ وتكرر وعده لهم بأنه سوف يحضره لهم ، ولكنه لم يف بما وعد وعندما سمع المدير ميغيتا يذكر كعك الجنازة انتفض فزعا لأن هذه الكلمة تعطى فألا سيئا خصوصا فى هذا الوقت ، ولكن ميغيتا قال ذلك ببراءة وأنه إنما أراد أن يشترك مع أصدقائه فى بعض الأطعمة لذيذة الطعم ، فضحك

المدير ومعه الآخرون وضحك ريوتشن من قوله أيضا ، وقال إن ميجيتا قد وعده منذ مدة طويلة أن يحضر له بعضا من هذا الكعك .

ثم وقف أوى ووعد ريوتشن أنه سوف يحترف فلاحة البساتين ويكون أحسن بستانى فى اليابانى ، وأوى هذا هو ابن رجل يملك مشتلا زراعيا كبيرا فى تودوروكى .

كيكو أوكى وقفت بعد ذلك ولم تقل شيئا وإنما ابتسمت خجلا كالمعتاد وانحنت ثم رجعت إلى مقعدها . وبعد ذلك اندفعت توتوتشن إلى الأمام وقالت لها : لقد رأيت فراخك تستطيع أن تطير قبل ذلك ثم تكلم أماديرا :

ـ إذا وجدت قطا أو كلبا مجروحا فأحضره لى كى أعالجه .

أما تاكاهاشى فلأن جسمه صغير فقد زحف تحت المكتب سريعا ليذهب إلى مركز الدائرة ووقف فى الوسط وقال فى صوت مرح :

ـ شكرا لك ياريوتشن ، شكرا لك على كل شىء قدمته لنا :

ثم قالت أيكو سايشو بعد أن وقفت :

ـ أشكرك يا ريوتش على ما قمت به نحو تضميد جرحى ولفه بالرباط عندما وقعت . سوف لا أنسى .

لقد كان جدها الكبير توجو مشيرا كبيرا فى الحرب الروسية اليابانية وقريبتها الأخرى أتسوكو سايشو كانت شاعرة مشهورة فى بلاط الإمبراطور ميجى ولكن أيكو لم تذكرهم قط .

وميوتشن ابنة المدير كانت تعرف ريوتشن أنه أحسن واحد فامتلأت عيناها بالدموع وقالت :

ـ اهتم بنفسك ، هل لاتفعل ياريوتشن ؟ دعنا نراسل بعضنا .

وكان عند توتوتشن أمور كثيرة أرادت أن تقولها ولكنها لاتعرف من أين تبدأ ، ولهذا فإنها قالت :

ـ حتى بعد ذهابك ياريوتشن سنقوم بعمل حفل شاى كل يوم .

فضحك المدير وضحك ريوتشن وضحك الجميع حتى توتوتشن نفسها وقد تحققت كلمة توتوتشن فى اليوم التالى . فعندما يكون هناك وقت فإن الأطفال يكونون مجموعة ثم يقومون بعمل حفلة شاى وبدلا من سمك السيبيا المجفف المشوى فإنهم يمتصون أشياء مثل لحاء الشجرة ، ثم يرشفون ماء من أكواب بدلا من الشاى ، وفى بعض الأحيان يتظاهرون بأنها ساكى (خمر) ويقول بعضهم : سوف أحضر لكم كعك الجنازة ، ثم يضحكون ، ثم يتحدثون ليخبر بعضهم بعضا برأيه ، ومع أنه لم يكن هناك شىء ليأكلوه فقد تكون حفلة شاى مرحة .

وكان حفل الشاى هذا هدية وداع جميلة تركها ريوتشن للتلاميذ كما كان آخر شىء قاموا بعمله فى توموى قبل أن ينفصل بعضهم عن بعض ويذهب كل واحد منهم فى طريق . ثم ذهب ريوتشن ليركب قطار طوكيو ، وكان رحيله متفقا مع وصول الطائرات الأمريكية وأخيرا ظهرت فى سماء طوكيو وبدأت تسقط قنابلها كل يوم .

وداعـا :

لقد احترقت مدرسة توموى وكان ذلك ليلا . ميوتشن وأختها مياتشن وأمها كن يعشن فى المنزل المتصل بالمدرسة ، وقد هربن إلى المزرعة بجانب بركة كوهنبتسو حيث سلمن من الحريق .

كثير من القنابل الحارقة التى ألقيت من قاذفات القنابل (بى ٢٩) سقطت على عربات السكة الحديد المستعملة كغرفات للدراسة لقد كانت حلما للمدير وبدلا من أصوات الأطفال الضاحكة التى كان يحبها كثيرا ومن غنائهم غلفها لهب الحريق وتهدمت بأصوات مخيفة ، وكان من المستحيل إطفاؤها وقد أحرقتها حتى الأرض وامتد اللهب حتى جيوغاؤكا .

وقف السيد المدير فى وسط الشارع بين كل ذلك وشاهد حريق توموى وكان كالمعتاد يلبس حلته ذات الثلاث قطع السوداء المهدلة ويداه فى جيوبه . وقال المدير سائلا ابنه توموى الطالب فى الجامعة والذى كان يقف بجانبه :

ـ ماذا يكون نوع المدرسة التى ستبنيها بعد ذلك ؟

سمعه ابنه توموى معقود اللسان متحيرا .

لقد كان حب الأستاذ كوباياشى للأطفال وانفعاله للتعلم أقوى من اللهب

الذى يلف المدرسة الآن وهو لايزال سليما قويا ولذا سأل ابنه عن نوع المدرسة التى يبنيها بعد ذلك .

لقد كانت توتوتشن نائمة فى قطار مزدحم بين رجلين وكان القطار متجها نحو الشمال ، وعندما نظرت خارج القطار من النافذة إلى الظلام المخيم فكرت فى بعض مقاطع كلمات السيد المدير التى كان يقولها لها دائما :

ـ سنلتقى مرة أخرى .

ـ بلا شك أنت بنت طيبة . أنت تعرفين

إنها تريد ألا تنسى هذه الكلمات .

ثم نامت وهى فى أفكارها المطمئنة أنها سترى الأستاذ كوباياشى مرة أخرى .

ثم جرى القطار بصوت عال فى الظلام بمن يحمل من ركاب قلقى البال مشغولى الخاطر .

الخـاتمـة :

منذ زمن بعيد وأنا أريد أن أكتب عن مدرسة توموى والأستاذ كوباياشى الذى أسس هذه المدرسة وأدارها ولا أبتغى شيئا سوى خير القارئ الكريم .

لم أخترع شيئا من الحوادث التى جرت فى هذه القصة . فهى حوادث حقيقية وقعت ، ومن حسن الحظ أنى لم أنس هذه الأشياء لأننى كنت أود أن اكتبها وبجانب ذلك أننى ذكرت فى أحد فصول هذه القصة أنى وعدت الأستاذ كوباياشى عندما أكبر سوف أكون مدرسة فى توموى إلا أننى لم أف بوعدى . لذا أحسست أنه من الضرورى أن أبلغ الناس ما أمكننى أنه كان يوجد أستاذ اسمه كوباياشى ذو عطف وحنان على الأطفال وكيف علمهم .

ولقد توفى الأستاذ كوباياشى فى سنة ١٩٦٣ ولو كان حيا اليوم لتعلمنا منه الأشياء الكثيرة .

وحتى وأنا أكتب الآن فإنى أعرف كثيرا من الحوادث التى تبدو لى ذكريات طفولة سعيدة ولكنها كانت أفكارا قام بها ورتبها بعناية ليحصل على نتائج معينة . هذا هو الذى كان فى نفس الأستاذ كوباياشى أو هو الذى أحس به أو ماتخيلت أنه كان يريده . وكلما اكتشفت غرضا من هذه الأغراض فإنى لا أملك إلا أن أشكر له هذا المجهود .

بالنسبة لى فإنى :

لا أستطيع أن أقدر مدى التوجيه الذى أمدنى به الأستاذ كوباياشى فى حياتى عندما كان يكرر القولى لى « بلا شك إنك بنت طيبة أنت تعلمين » ولو أننى لم ألتحق بهذه المدرسة ولم أقابل الأستاذ كوباياشى لكنت فى حياتى من الضالين شاردى البال وكنت مرقومة بعلامة « بنت رديئة » وكان عندى مركب النقص ومضطربة العقل .

لقد حرقت مدرسة توموى فى الغارات الجوية على طوكيو فى سنة ١٩٤٥ ، وكان الأستاذ كوباياشى هو الذى أنشأها من ماله الخاص ، وكانت بعد هدمها تحتاج إلى وقت لاستئناف إنشائها.

بعد انتهاء الحرب بدأ الأستاذ كوباياشى فى إنشاء مدرسة روضة أطفال فى نفس المكان بينما كان يساعد فى إنشاء قسم لتعليم الأطفال فى كلية كونيتاتشى للموسيقى وعلم فيها فن الإيقاع وساعد فى إنشاء مدرسة كونيتاتشى الأبتدائية . وقد توفى وعمره تسع وستون سنه قبل أن يتم مدرسته المثالية مرة ثانية التى كان يحلم بقيامها .

قد كانت مدرسة توموى فى الجنوب الغربى لطوكيو على بعد ثلاث دقائق سيرا على الأقدام من محطة جيوغاؤكا على خط تويوكو ، والمكان الآن مشغول بمحلات « بيكوك » وموقف للسيارات ولقد تاقت نفسى لرؤية هذا المكان مع العلم أنى أعرف أنه لا شىء هناك من المدرسة أو فنائها .

سقت سيارتى ببطء عابرة موقف السيارات حيث كانت عربات القطار التى استعملت فصولا دراسية وكان الملعب ولكن الرجل المسئول عن الموقف عندما رأى سيارتى صاح :

ـ لايمكن أن تدخلى ... لايمكن أن تدخلى .. إن الموقف مزدحم .

كنت أشعر كأنى أريد أن أقول له :

ـ أنا لا أريد أن أقف أنا فقط أريد أن استعيد ذكرياتى .

ولكنه لا يفهم وحينئذ انطلقت من ذلك المكان سريعا .

أنا متأكدة أن فى العالم كثيرا من المعلمين ولكل منهم طموحا ومثالية وأفكارا وأحلاما فى إقامة المدارس المثالية ، ولكنى أعلم أنه من الصعب تحقيق هذه الأحلام . لقد قضى الأستاذ كوباياشى سنين وسنين فى الدراسة قبل أن يبدأ توموى فى سنة ١٩٣٧ ثم احترقت فى سنة ١٩٤٥ ولهذا كانت فترة الخبرة قصيرة جدا .

أحب أن أقول فى الفترة التى قضيتها هناك كان حماس .

الأستاذ كوباياشى فى قمته وكانت مشروعاته فى تمام تفتحها ، ولكنى أشعر بالأسى والحزن عندما أفكر فى الأطفال الكثيرين الذين جاءوا تحت رعايته ثم ذهبت الحرب بآمالهم ولولا ذلك لتخرج كثير منهم على يدى الأستاذ كوباياشى فى مدرسة توموى .

لقد حاولت أن أصف طرق تعليم الأستاذ كوباياشى فى هذا الكتاب :

إنه يعتقد أن كل الأطفال يولدون مفطورين على طبيعة طيبة ولكنها من السهل أن تفسد على حسب الظروف والمؤثرات الخارجية . وكان قصده أن يكتشف طبيعتهم الطيبة وينميها حتى يكبر الأطفال بين الناس ولهم شخصيتهم الذاتية .

لقد قدر قيمة عدم التكلف وأراد أن يترك أخلاقيات الأطفال تنمو بلا

تكلف على قدر الامكان . وهو أيضا أحب الطبيعة ، ولقد أخبرتنى ابنته الصغرى ميوتشن أن أباها قد اعتاد أن يصحبها للتنزه عندما كانت صغيرة ويقول لها :

ـ فلنذهب ونتأمل فى تناسق الطبيعة .

وكان يقودها إلى شجرة كبيرة ثم يريها كيف تهتز الأوراق والفروع مع النسيم مشيرا إلى الصلة بين الأوراق والفروع والجذوع ، وكيف يكون اهتزاز الأوراق مختلفا طبقا لقوة الرياح أو ضعفها . ولقد كانا يمكثان فى الوقوف لملاحظة الأشياء المحيطة وإذا لم يكن هناك رياح فإنهما ينتظران بصبر بدون أن يلفتا وجهيهما حتى يهب نسيم خفيف . ولم يقتصرا على ملاحظة الشجر وإنما أيضا الأنهار ، فقد اعتادا الذهاب إلى نهر طما القريب لمشاهدة جريان المياه ، ولم يشعرا بتعب قط من عمل ذلك .

وربما تساءل القراء : كيف سمحت السلطات فى أثناء الحرب لمثل هذه المدرسة الابتدائية التى لم تحافظ على التقاليد بأن تجرى الدراسة فيها فى مثل هذا الجو من الحرية ؟

لقد كان الأستاذ كوباياشى يكره الشهرة وحتى قبل الحرب لم يكن يسمح بالتقاط صور للمدرسة أو أى نشرة عن انفرادها فى نظامها .

وربما يكون السبب أن هذه المدرسة صغيرة وبها أقل من خمسين طفلا ولذلك كان سهلا أن تختفى عن الملاحظة وأن تستمر ، وشىء آخر هو أن الأستاذ كوباياشى كان معتبرا فى وزارة التربية والتعليم أنه معلم أطفال .

فى اليوم الثالث من نوفمبر فى كل عام ـ يوم الرياضة الجميلة التى تحمل

الذكريات الطيبة ـ يجتمع أطفال توموى بدون اعتبار لتاريخ تخرجهم فى حجرة من معبد كوهنبتو لبعد بعضهم عن بعض ومع أننا الآن فى سن الأربعين وكثير منا قارب الخمسين ولنا أولاد كبار فإننا لانزال ندعو بعضنا بكنيتنا أى ألقابنا القديمة « ساكوتشن » أو « أوى كون » كما ينادى الأطفال بعضهم بعضا .

هذه الاجتماعات واحدة من التراث السعيد الذى تركه لنا الأستاذ كوباياشى .

إنها حقيقة أنى طردت من المدرسة الابتدائية السابقة وإن كنت لا أتذكر كثيرا عن تلك المدرسة ، وقد أخبرتنى أمى عن الغجر وعن المكتب . ولكنى وجدت من الصعب أن أعتقد ذلك . هل كنت حقا شقية إلى هذا الحد ؟ على أى الحالات : منذ خمس سنوات بدأت الاشتراك فى عرض التليفزيون الصباحى وكان أن قدمت إلىّ سيدة تعرفنى فى هذا الوقت فإذا بها مدرسة الفصل الذى كان يجاور فصلى ، وقد كنت مندهشة مما أخبرتنى : قالت :

ـ لقد كنت فى حجرة مجاورة تماما لحجرتى وعندما كنت أريد أن أذهب إلى حجرة المدرسين لأمر ما فى أثناء الدرس كنت أجدك عادة واقفة فى الممر مطرودة لسوء سلوكك وبعد مرورى بك تنادينى ثم تسألينى :

ـ لماذا أنا واقفة فى الخارج هكذا ؟ وما الخطأ الذى ارتكبته ؟

ولقد سألتنى يوما :

ـ ألا تحبين الغجر ؟

ولم أعلم أبدا كيف أتعامل معك فلم أقل شيئا . وأخير كنت إذا أردت الذهاب إلى حجرة المدرسين فلابد أن أنظر إلى الممر أولا فإذا رأيتك واقفة

كعادتك أحجمت عن الذهاب إليها ، وطالما جذبتنى مدرسة فصلك فى حجرة المدرسين وقالت لماذا هى هكذا ؟

ولهذا عندما ظهرت على شاشة التليفزيون بعد ذلك عرفت اسمك فورا . إنه كان منذ زمن طويل ولكنى أتذكرك بوضوح عندما كنت فى السنة الأولى هل كنت أقف فى الممر خارج الفصل ؟ لا أتذكر ذلك وكنت مندهشة .

لقد كانت هذه المدرسة ذات الشعر الرمادى التى تبدو شابة وبوجه سمح والتى تحملت إزعاجى والتى حضرت فى عروض التليفزيون فى الصباح الباكر هى التى اقنعتنى أخيرا أننى حقا قد طردت من المدرسة الأولى .

وهنا أحب أن أشكر من قلبى لأمى لأنها لم تخبرنى عن ذلك حتى بعد بلوغى سن العشرين . لقد سألتنى يوما ما :

ـ هل تعلمين لماذا غيرت مدرستك الابتدائية ؟

وعندما أجبت بالنفى استمرت برصانة وهدوء :

ـ لقد كان ذلك لانك طردت من المدرسة الأولى . وربما لو قالت فى هذا الوقت :

ـ وماذا يكون من أمرك ؟ إنك قد طردت فعلا من مدرسة ، وإذا طردوك من المدرسة الثانية فأين تذهبين ؟

ما كان أتعسنى وأغضبنى لو أن أمى قالت لى مثل ذلك وكنت قد شعرت بنفس الشعور الذى أحسسته عندما دخلت بوابة مدرسة توموى أول يوم ذهبت هناك ، تلك البوابة بجذوع أشجارها وهذه الفصول الدراسية فى عربات القطار التى لم تبد سارة لى تقريبا . كم أنا محظوظة أن يكون لى أم عظيمة مثل أمى .

فى أثناء الحرب لم تلتقط صور كثيرة فى توموى . وكانت الصور التى التقطت للخريجين أجمل هذه الصور وكانت صور الخريجين عادة تؤخذ على السلالم أمام صالة الاجتماع ، ولكن عندما يصطف الخريجون لالتقاط الصور صائحين (تعالى هنا خذ صورة فى هذا المكان) . كان الآخرون يريدون أن يكونوا فى الصورة أيضا فيدخلوا رءوسهم من هنا ومن هناك .

ولهذا من الصعب الآن أن تعرف من هم الخريجون . ولقد ناقشنا فى اجتماعاتنا هذا الموضوع لمعرفة أصحاب الصور . ولم يعتد الأستاذ كوباياشى أن يقول شيئا فى هذه المناسبات لأنه كان يفضل أن تكون الصورة شاملة لجميع أطفال المدرسة لا أن تكون فقط للخريجين وبالنظر إلى تلك الصور الآن يتمثل للرائى مدرسة توموى آنذاك .

وهناك لايزال أمور كثيرة استطيع أن أكتب فيها عن توموى ، ولكن . ـ على أى حال ـ سأكون مقتنعة إذا كنت قد جعلت الناس يعرفون كيف أن بنتا صغيرة جدا مثل توتوتشن تربت على العطف والود تستطيع أن تكون الشخصية القادرة على أن تتعامل مع الآخرين .

أنا متأكدة تماما لو أنه كان هناك مدارس الآن مثل توموى لقلّت من قلوب الناس القسوة التى نسمع عنها كثيرا فى هذه الأيام وقلَّ عدد التلاميذ الذين يرفضون دخول المدارس . ولقد كان التلاميذ فى توموى لايرغبون فى مغادرة المدرسة والرجوع إلى بيوتهم بعد الدراسة ، وفى اليوم التالى لم يستطيعوا صبرا حتى يأتى وقت ذهابهم إلى المدرسة .

وهكذا كانت مدرسة توموى من هذا النوع .

سوساكى كوباياشى : الرجل الذى كان ذا إلهام وحسن تصور حين انشأ هذه المدرسة العجيبة ، ولد فى ١٨ يونيو سنة ١٨٩٣ فى قرية فى الشمال الغربى من طوكيو. وقد كانت الطبيعة والموسيقى هوايته المفضلة ، وعندما كان طفلا كان يقف على شاطىء النهر قريبا من منزله وعلى مسافة قريبة من جبل هارونا وأصوات الماء المتدفق كلها كانت الأوركسترا الذى يقوم بقيادته .

وقد كان أصغر أخوات ستة فى عائلة رجل فلاح وكان عليه أن يعمل مساعدا لمدرس فى مدرسة بعد التعليم الابتدائى ، وأن يحصل على المؤهل الضرورى لهذا العمل ، وكان الحصول على ذلك عملا باهرا تماما لولد فى هذا العصر وقد أظهر أنه كان ذكيا ، وبعد وقت قصير . حاز مؤهلا .

حصل على مركز فى مدرسة ابتدائية فى طوكيو ، وجمع إلى التعليم دراسة الموسيقى التى ـ أخيرا ـ جعلته قادرا على أن يستمر فى طموحه العز ثم دخل قسم تعليم الموسيقى فى معهد اليابان الأول للموسيقه ـ الآن جامعة طوكيو للفن الدقيق والموسيقى ـ وعندما تخرج أصبح معلم موسيقى فى مدرسة سيكى الابتدائية التى أسست بوساطة هاروجى تاكامورا الرجل العجيب الذى كان يعتقد أن تعليم الأطفال الابتدائى له أهميته الكبيرة . وقد حافظ على قلة الأطفال فى الفصول وحيذ كفاية الموضوعات الحرة ليربى فى الطفل الشخصية الفردية وينمى الاعتماد على النفس . وكانت الدراسة تجربة فى الصباح . وبعد الظهر كانت مثل الفترة . جمع المحصول ، الرسم أو التمثيليات القصيرة ، الغناء أو الاستماع إلى حديث السيد المدير .

لقد كان تأثر الأستاذ كوباياشى عظيما بنتيجة طرقة التعليمية حتى إنه أنشأ نوعا مشابها لها فى مناهج التعليم وسارت عليها مدرسة توموى . وبينما كان يدرس

الموسيقى هناك كتب للأطفال رواية تمثيلية هزلية ليقوم بتمثيلها الطلبة ، فتأثر بها رجل الصناعة بارون إيواساكى الذى أسست أسرته مؤسسة متسوبيشى العملاقة للتجارة وقد كان بارون إيواساكى نصيرا للفنون وكان يساعد كوساكو يامادا عميد المؤلفين اليابانيين كما كان يمد المدرسة بالمساعدات المالية .

وقد عرض بارون أن يرسل الأستاذ كوباياشى إلى أوروبا ليدرس طرق التدريس ، فقضى هناك سنتين من سنة ١٩٢٢ إلى ١٩٢٤ يزور المدارس ويدرس فنون التوقيع مع إميل جاكوس دالكروز فى باريس . وعندما عاد أنشأ روضة أطفال سيبجو مع رجل آخر ، وقد اعتاد الأستاذ كوباياشى أن يخبر مدرسى روضة الأطفال ألا يحاولوا وضع الأطفال فى دائرة محددة بل يتركوهم أحرارا .

ـ أتركوهم للطبيعة ، ولاتحبسوا طموحاتهم ، فإن أحلامهم أكبر من أحلامكم .

لم يكن هناك فى اليابان روضة أطفال مثل هذه .

فى سنة ١٩٣٠ ذهب الأستاذ كوباياشى إلى أوربا لمدد سنة أخرى ليدرس مع دالكروز وسافر هنا وهناك ودون ملاحظات وقرر أن يبدأ مدرسته الخاصة به عندما يرجع إلى اليابان وبجانب بدء مدرسة توموى أسس جمعية فن التوقيع اليابانية ولهذا فإن معظم الناس يذكرونه بأنه الرجل الذى أدخل فن الايقاع إلى اليابان ولعمله الذى يتصل بمدرسة كونيتاتشى للموسيقى بعد الحرب . وكان من المؤسف أنه مات قبل أن ينشىء مدرسة أخرى على طراز توموى بعد أن أحرقت بقنابل الحرب .

رغم طول مقدمتى أود أن أضيف لها ما يأتى لكى يفهم القارئ عن الأستاذ

كوباياشي . السيد كازوهيكو سانو المخرج لبرنامج « مضيفة تيتسوكو » على شبكة إذاعة أساهى . الذى أقوم به ـ تخرج فى قسم الآلات الموسيقية بجامعة طوكيو للفنون الجميلة وبالإضافة إلى عمله فى إذاعة التليفزيون بدأ تعليم الموسيقة للأطفال . حيث يعلمهم كثيراً من المسائل . وفى ذلك الحين سمع عن معلم بارز: وهو الأستاذ كوباياشي وأخذ يبحث عن أسلوبه فى التعليم وشخصيته واستمع إلى الناس المحتكين به . ولكن لم يفهم بشكل واضح كيف يتعامل مع الأطفال . ومن الغريب أننى أعرفه منذ عشر سنوات قبل برنامج « مضيفة تيتسوكو » وقمت بتقديم برنامج آخر عده سنين وحينئذ عرفت السيد سانو . وقبل سنوات لم أكن أعرف أن السيد سانو يبحث عن معلومات عن الأستاذ كوباياشي وأيضاً كان السيد سانو يعرف أننى قد ربيت على يد مدير بارز ولكن لم يتخيل قط أنه الأستاذ كوباياشي نفسه . عندما بدأت كتاب توتوتشن عرف السيد سانو وسر للغاية ، إنه يوجد شخص مطلوب فى مكان قريب له . .

السبب الذى جعل السيد سانو يبحث عن الأستاذ كوباياشي هو لقاء مع امرأة عزفت على البيانو عندما علم الأستاذ كوباياشي علم الإيقاع للأطفال .

قالت المرأة :

ـ قال الأستاذ كوباياشي أن الأطفال لا يمشون بذلك !

ولما سمع هذا الكلام بدأ السيد سانو دراسة عن الأستاذ كوباياشي . إننى أتوق لمعرفة أكثر عن الأستاذ كوباياشي بتفاصيل دقيقة من السيد سانو بقدرته والبحث الدقيق .

ريوتشن العامل فى المدرسة قد دعى للاشتراك فى الحرب رجع سليما منها . وحتى الآن فى كل سنة يوم ٣ من نوفمبر يلتقى معنا .

لقد اشتهر لفظ « قوم عند الشبابيك » بين الناس عندما بدأت كتابها هذا . يعنى الناس الذين يتخرجون من النخبة المخطوطة وينظر إليهم ببرود . يفسر هنا اللفظة بمعنى ذلك

أنا أيضاً كنت دائما عند الشباك لانتظر إلى الغجر وخشيت أن يرانى الناس وينظروا إلى نظرات فاترة فى المدرسة الأولى .

ولهذا قررت أن يكون ذلك هو موضوع الكتاب . ولقد تحدثت عن توتوتشن فى الكتاب . بمناسبة طبع هذا الكتاب أود أن أشكر تشيهيرو اثيواساكى رسام الصور اللطيفة والجميلة فى هذا الكتاب . للأسف توفى قبل سبع سنين . إلا أنه ترك لنا حوالى ٧٠٠٠ صورة جميلة . كما اشتهر برسم صور الأطفال . وأعتقد أنه الوحيد فى العالم كله الذى يرسم صور الأطفال بحيوية كان يستطيع أن يرسم أى وضع للأطفال ويستطيع برسمه أن يجعلك تعرف طفل السنة شهور عن طفل التسعة شهور .

إنه كان يعمل دائما لصالح الأطفال . ويتمنى سعادة الأطفال . كان حلمى أن أحظى برسام شهير فى كتابى . وتحققت رغبتى وأشعر بسعادة غامرة . كانت صور تشيهيرو تلائم الموضوعات فمن الناس من يسأل هل الصور كتبت قبل الوفاة لى ؟ يعنى إلى هذا الحد رسم تشيهيرو صورا لأطفال كثيرة ومختلفة .

لم تبعد توموى عنى . ومن خلال الاطلاع على هذا الكتاب يستطيع القارئ أن يتخيل منظر توموى كما كانت ، وهذا يجعلنى فى منتهى السعادة .

عام ١٩٨٢م فى طوكيو اليوم نشر الخبر الذى دخلت فيه الشرطة حفل التخرج بمدرسة أعدادية لكى لايعتدى التلاميذ على الأساتذة .

تعريف بالأشخاص الذين وردوا فى هذه القصة :

ـ والذين رحلوا معى فى فصل القطار .

أكيرا تاكاهاشى :

هو الذى فاز فى كل المباريات الرياضية فى اليوم الرياضى ، ومع أنه لم يزد طول جسمه فإنه قد التحق بمدرسة ثانوية مشهورة فى اليابان بفريقها الرجبى (نوع من الرياضة) ثم دخل جامعة ميجى وتخرج منها مهندسا اليكترونيا . وهو الآن مدير شئون الموظفين فى شركة كهربائية كبيرة قريبة من بحيرة هامانا فى وسط اليابان وهو مسئول عن تحسين العلاقة بين العمال والاستماع إلى شكاياتهم ومشاكلهم ثم يحاول حل هذه المشاكل ، ولأنه تحمل كثيرا فإنه يحس بآلام الآخرين ويساعده مركزه العالى وشخصيته الجذابة مساعدة جليلة فى التغلب على العقبات . ولأنه أيضا متخصص فى فنون الصناعة فإنه أيضا يقوم بتدريب الشباب على استعمال الماكينات الكبيرة ذات الدوائر المتكاملة .

لقد ذهبت إلى هاماما تسو لأرى تاكاهاشى وزوجته الكريمة التى تفهمه جيداً وسمعت كثيراً عن توموى وهى تقول : كأنها التحقت هى أيضا بتوموى وقد أكدت أنه لايحس بمركب النقص لقصر قامته . وهى على حق لأن مركب النقص تجعل حياته شاقة وتجعل من المستحيل أن يلتحق بالمدارس الثانوية والجامعة ويكون فى هذا المنصب الهام الذى يحتم على شاغلة أن يعامل العمال

بروح الود وعلى مستوى واحد . وعند وصفه للأيام الأولى فى تومونى : قال :

إنه احس مباشرة بسهولة التحاقه وراحته عندما رأى أن هناك بعض الأطفال الآخرين المعوقين ومن هذه اللحظة فإنه لم يتحمل أية آلام وتمتع بكل يوم حتى إنه لم يرد أن ينتظر فى البيت وقد أخبرنى أنه كان متضايقاً وخجلاً من السباحة عاريا فى حمام السباحة ولكن عندما خلع ملابسه واحدة تلو الأخرى فإنه خلع أيضا احساسه بالخجل قليلا قليلا وأنه لم يهتم عندما وقف أمام الآخرين ليلقى حديثه فى أثناء الغذاء وقد أخبرنى أيضا كيف شجعه الأستاذ كوباياشى على الوثوب على ظهر الحصان أعلى ما يكون ، وكان يؤكد له دائما أنه يستطيع ذلك مع العلم إنه لاشك الآن أن الأستاذ كوباياشى كان يساعده فى ذلك ، ولكن إلى آخر لحظة كان يجعله يفكر إنه قد قام بكل ذلك بنفسه وبدون مساعدة أحد ، وقد أعطاه الثقة فى نفسه وجعله قادرا على إدراك السرور الذى لايوصف عند بلوغ النجاح ، وكلما حاول أن يختبئ فى الخلف قدمه المدير إلى الإمام ولهذا كان عليه أن ينمى طريقة إيجابية إلى الحياة طوعا أوكرها ، وهو لايزال يتذكر الفخر الذى احس به عندما فاز بهذه الجوائز كلها . إنه لايزال يستعيد الذكرى عن تومونى بسعادة وبعيون لامعة سريعة التأثر ولقد كان للبيئة الطيبة التى كان فيها تاكاهاشى أثر طيب حيث ساهمت فى تربيته وجعلته فى هذه الشخصية اللطيفة ، وبلا شك فإن الأستاذ كوباياشى تعامل معنا كلنا بطريقة كاملة الرؤية مثل قوله المتكرر لى « بلا شك أنت بنت طيبة كما تعلمين » فإن الطريقة المشجعة التى داوم على قولها لتاكاهاشى (أنت تستطيع أن تعمل هذا) هى التى شكلت حياة تاكاهاشى .

وعندما تأهبت لمغادرة هاماماتسو أخبرنى تاكاهاشى بشىء قد نسيته تماماً . عندما أزعجه تلاميذ من مدرسة أخرى فى خارج الفناء دخل إلى الفناء مضطربا

وسرعان ما سألته عما ازعجه وقلت له :

ـ لاتخف يا تاكاهاشي .

ثم طمأنته فكان سعيدا .

ـ شكرا لك يا تاكاهاشي لتذكرك

ميوتشن (ميوكانيكو)

هي البنت الثالثة للأستاذ كوباياشي ، وقد تخرجت فى قسم التربية بجامعة كونيتاتشي كلية الموسيقى وهى تعلم الآن الموسيقى فى المدرسة الابتدائية الملحقة بالكلية . وهى مثل أبيها تحب تعليم الأطفال الصغار . منذ كانت فى الثالثة من عمرها لاحظ الأستاذ كوباياشي ميوتشن كيف تمشى وكيف تحرك جسمها وقت الموسيقى ، وكيف تتحدث ، وقد ساعده ذلك بدرجة كبيرة فى تعليمه للأطفال .

ساكوتشن (ساكو ماتسوياما وبعد الزواج ساكو سايتو)

البنت ذات العيون الكبيرة التى كانت تلبس جونلة وعليها ارنب فى اليوم الذى بدأت فى توموى . وقد التحقت بمدرسة ميتا الثانوية إحدى المدارس للبنات وكان الالتحاق إليها صعبا فى ذلك الوقت ثم التحقت بجامعة طوكيو للبنات قسم اللغة الإنكليزية وبعد تخرجها صارت مدرسة للغة الانكليزية فى احد المعاهد ولازالت مدرسة للآن .

ولقد استفادت من تجربتها فى توموى فى معسكرهم الصيفى ، وقد تزوجت من رجل قابلته عند صعود جبل هوتاكا ضمن جبال الب اليابان ، وقد انجبا

ولدا وهو فى الصف الثالث بالجامعة وقد سمياه ياسوتاكا ذكرى جبل هوتاكا حيث يتفق الجزء الأخير من الأسمين .

تايتشن (تانجى ياماؤتشى)

هو الذى قال لى : لن تكونى عروسا لى . صار من الفيزيائيين البارزين فى اليابان ويسكن حاليا فى الولايات المتحدة أى أنه أحد (الادمغة النازحة) .

تخرج فى قسم الفيزياء بكلية العلوم فى جامعة طوكيو للتربية وبعد حصوله على الماجستير ذهب إلى امريكا فى منحة دراسية على نظام تبادل المنح لمؤسسة فولبرايت : وبعد خمس سنوات حصل على الدكتوراة من جامعة روتشستر ، وظل فى الجامعة يجرى تجارب للبحث فى فيزياء الطاقة العليا .

وهو الآن يعمل وكيلا لمدير معمل (فرمى) العالمى لزيادة السرعة فى ولاية ايللينوس وهو أكبر معمل فى العالم .

وهذا المعمل للابحاث يضم علماء من ثلاث وخمسين جامعة فى أمريكا وجامعته فيها ١٤٥ فيزيائيا و ١٤٠٠ مهندسا ومن ذلك تستطيع أن تعرف مكانه تايتشن وموهبته الفذة . وقد جذب هذا المعمل انتباه العالم منذ خمس سنوات عندما نجح فى انتاج شعاع عالى الطاقة قدرته ٥٠٠ بليون فولط اليكترونى .

والآن تايتشن بالاشتراك مع استاذ من جامعة كولومبيا قد اكتشفا شيئا يسمى (أبسيون) . ولهذا فأنا متأكدة أن تايتشن سيحصل على جائزة نوبل فى بعض الأيام . وقد تزوج تايتشن بفتاة ذكية تخرجت من قسم الرياضة بمرتبة الشرف من جامعة روتشيستر . وبمثل هذه العقول فإن تايتشن سيذهب بعيداً بدون نظر إلى المدرسة الابتدائية التى تعلم فيها : ولكنى أظن أن نظام توموى الذى يترك

التلاميذ يعملون فى الموضوعات باى طريقة يريدونها من المحتمل أن تكون قد ساعدت على تنمية ذكائه .

أنا لا أستطيع أن اتذكر إنه كان يعمل أى عمل آخر فى اثناء الدرس ، وإنما يعمل مع موقد كحول أو دورق مخروطى أو أنبوب اختبار أو قراءة كتب العلوم والفيزياء الصعبة .

أوى (كونيو أوى)

هو الولد الذى جذب ضفيرتى ، هو الآن المرجع الأول فى اليابان فى أوركيديا الشرق الأقصى ـ وهو نبات سحلى جذوره على شكل بصله ـ ويبلغ ثمن زهوره عشرات الآلاف من الدولارات وحقله حقل خاص ، و أوى هو الرجل المطلوب لأنه يتقن رعاية هذا النبات والآن هو دائما يسافر من مكان إلى آخر فى كل اليابان .

لقد عثرت عليه بمشقة بالتليفون بين الرحلات وقد حصلت منه على الحديث التالى مختصرا :

ـ إلى أى مدرسة ذهبت بعد توموى ؟

ـ لم أذهب إلى أى مدرسة .

ـ أنت لم تذهب إلى أى مكان آخر ؟ توموى كانت مدرستك فقط ؟

ـ نعم . هذا صحيح .

ـ ياسلام . حتى لم تذهب إلى مدرسة أعدادية ؟

ـ أوه . نعم . لقد بقيت فى مدرسة أويتا الأعدادية أشهرا قليلة عندما

أخرجت إلى كيوشو هربا من غارات الحرب .

ــ ولكن أليس الانتهاء من المدرسة الإعدادية إلزاميا ؟

ــ هذا صحيح ، ولكن لم انته منها .

لا أتصور كيف هو سعيد محظوظ ، لقد فكرت . قبل الحرب كان أبوه يملك حديقة واسعة لزراعة الشتلات وكانت تشمل معظم منطقة تودوروكى فى الجنوب الشرقى لطوكيو ، ولكنها كلها حطمت بالقنابل .

لقد كانت طبيعته هادئة وقد وضح ذلك فى بقية الحديث عندما غير موضوع الكلام . فقال :

ــ هل تعرفين ما هى أطيب الزهور رائحة ؟

أعتقد أن الزهرة السحلية الصينية هى الأفضل ولا توجد أى زهرة تدانى رائحتها .

ــ هل هى غالية ؟

ــ نعم : بعضها غال وبعضها رخيص .

ــ ماذا تشبه هذه الزهرة ؟

ــ حسنا ، ان هذه الزهور جميلة المنظر ورقيقة ولكن هذا سر جاذبيتها .

إنه لم يتغير قليلا منذ كان فى توموى ، إن الذى يسمع صوت أوى المريح الهادى أظن أنه سوف لا ينزعج لحظة واحدة . وحقا إنه حتى لم يتخرج فى المدرسة الإعدادية ولكنه عمل كل ما يحتاجه وأنه يثق فى نفسه ، وأنا لا أستطيع إلا أن أعجب به .

أماديرا (كازو أماديرا)

هو الذى أحب الحيوانات ، وكان يريد أن يكون بيطريا عندما يكبر وأن تكون له مزرعة ، ولسوء حظ مات أبوه فجأة وكان عليه لشدة تأثره أن يغير منهج حياته فترك كلية الطب البيطرى بجامعة اليابان والزراعة ، واشتغل بوظيفة فى مستشفى كيو ، وهو الآن فى المستشفى المركزى لقوات الدفاع الذاتى فى موقع مسئول يتصل بالاختبارات الصحية .

سايشو (أيكو سايشو بعد الزواج أيكو تاناكا)

التى كان جدها الكبير المشير توغو (بطل الحرب اليابانية الروسية فى سنة ١٩١٤) التحقت بتوموى تحويلا من مدرسة أؤياما ، وقد كنت أتصور فى تلك الأيام كأنها امرأة رزينة ، ولعلها بدت هكذا لأنها فقدت أباها وكان رائدا فى الفرقة الثالثة بالقوات المسلحة ، وقد قتل فى حادث منشوريا . وبعد ان تخرجت فى مدرسة كاماكورا الثانوية للبنات تزوجت برجل معمارى ويعمل ابنها الأكبر فى شركة للمقاولات .

وابنها الثانى موظف أيضا ، وتقضى أوقات فراغها فى كتابة الشعر .

ولقد سألتها :

ـ هكذا فأنت مستمرة على عادة عمتك الشهيرة التى كانت شاعرة ممتازة فى بلاط الأمبراطور ميجى ؟

فضحكت خجلى وأجابت :

ـ أوه . لا .

فقلت لها :

ـ أنت متواضعة كما كنت فى تومو ى وخجلى كالسيدات .
فأجابت فوراً :
ـ أنت تعلمين : شكلى الآن هو نفس شكلى عندما مثلت دور بينكيي .
ومن صوتها عرفت أنها زوجة سعيدة فى بيتها وبين أسرتها .

كيكوتشن (كيكو أوكى وبعد الزواج كيكو كوابارا)

هى التى تملك الدجاج الذى يطير فى الهواء ، وقد تزوجت من مدرس فى المدرسة الابتدائية التابعة لجامعة كيو ، ولها بنت متزوجة .

يوئتشى ميغيتا

هو الذى وعد باحضار كعك الجنازة من بلدته ، حصل على درجة فى فلاحة البساتين ولكنه أحب دائما الرسم ولهذا فإنه رجع إلى الكلية وتخرج فى كلية موساشينو للفن الدقيق وهو الآن يدير شركته لفن الرسم والتصوير مع أصدقائه .

ريوتشن

هو العامل الذى ذهب إلى الحرب ، وقد رجع سالما إلى وطنه
إنه لا يتأخر أبدا عن حضور اجتماعات تومو ى فى الثالث من نوفمبر كل عام .

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤ - برقياً: شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت: ص. ب: ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE